
على حافّة
الانتحار
رواية مقارنة أديان

الفهرس

المقدمة______________________________3

الفصل الأوّل______________________________4

قرية واحدة وعالمان______________________________4

الفصل الثّاني______________________________22

السّيّد عن قرب______________________________22

الفصل الثّالث______________________________41

وداع الماضي______________________________41

الفصل الرّابع______________________________65

ثلاثةٌ ضدّ الزّعيم______________________________65

الفصل الخامس______________________________83

جيوڤاني الأسير______________________________83

الفصل السّادس______________________________98

الملحد يتنصّر______________________________98

الفصل السّابع______________________________122

بجوار الوحش______________________________122

الفصل الثّامن______________________________142

تقنعني أو آكلك______________________________142

فصل إضافيّ______________________________158

صفقة جوناثا______________________________158

على حافّة الانتحار - ابن زعيم عصابة الجبل

المقدمة

قد ينشأ أحدنا لا يعرف الحقيقة فيسمّى جاهلًا.

وقد ينشأ البعض لا يريد أن يعرف الحقيقة فيسمّى متعصّبًا...

قد يولد أحدهم لا يعرف معنى الضّوء فيسمّى كفيفًا.

ويولد البعض لا يعرف معنى الصّوت فيسمّى أصمًّا.

ويولد آخرون لا يعرفون معنى اللّون فيسمّى أعمى ألوان.

ويولد بعضهم لا يعرف معنى المنطق فيسمّى مجنونًا.

ويولد شخصٌ ما لا يعرف معنى الحبّ فيسمّى سيكوباتيًّا (معتلّ نفسيًّا)

وهذا الأخير لا تعرف عاطفته إلّا مصلحته، ويرى الآخرين أدواتٍ أو عراقيل، والأدهى إن كان ذكيًّا فترى العجب.

المعتصم بالله المؤمن

الفصل الأوّل

قرية واحدة وعالمان

رنّت صيحتها الفظيعة لتشقّ عنان سماء اللّيل المتلفّحة بظلامها، دمعت عيناها وما دمعت من ألم الولادة بقدر ما كانت عَبراتٍ من ألم الحياة. رغم ثوبها الجميل وحليّها الثّمينة، كانت وحيدةً في البرّيّة تنجب ابنها البكر دون أمٍّ ولا أنيس.. وأين أنت يا أبوه؟ ولماذا أنت يا أبوه؟

زعقت ثانيةً الزّعقة الّتي ذهبت بها في لجج ذاكرتها قبل أقلّ من سنتين حين...

فجأةً انتبهت إلى صوت حوافر الحصان الّذي كان يعلو خلفها وهي تحاول أن تسبق قدرها بخطواتٍ بطيئة، وقبل أن تلتفت كان غطاء رأسها قد خُلع عاليًا، حينها ودونما وعي رمت السّلّة من يديها مطلقةً يديها البيضاوين لتغطّيا شعرها البنيّ المتطاير وهي تطلق تلك الزّعقة "يا عذراء!!"، وقد التقت عيناها العسليّتين بتلك العينين السّوداوين القاسيتين اللّتين تقدحانها من فوق تلك الكتلة العضليّة المرعبة المسمّاة بالفَرَس، وتناهى إلى سمعها صوت همسةً باردة: ما ظننتُه عجوزًا كان امرأة! بل وشابّة!

واتّضحت لكنة الفارس السوقيّة: ما هذا الّذي تغطّينه تحت هذا القماش اللّعين؟

اندفع صوتها متحشرجًا: أغلق فمك أيّها الوقح.. أعده إليّ!

سقط الغطاء الأسود، لمعت ابتسامة الشّابّ المريبة، واندفعت كاترينا بسذاجةٍ نحو

حتفها. لم تلتقط الغطاء، بل وجدت نفسها تُختطف من ثوبها لتستقرّ فوق صهوة الفرس تحت لذع سياط ذاك الشّيطان اللّاهب. وكسلاحها الوحيد، زعقت واستغاثت وعلا صياحها ليرتدّ صدى عذابها عن تماثيل البشر ويصطدم مصدّعًا قلبها البريء..

وانطلق الجواد يجرّ وراءه نحيب راهبةٍ تُساق إلى المجهول، ومع كل خطوة، كان الدّير يغيب، والدّفء يستحيل صقيعًا. كانت تستغيث بملء حنجرتها، لكنّ النداء لم يجد أذناً صاغية، لم يجد إلّا أذني ذاك الشّابّ الّذي بدا ماردًا على سرجه، وكأنّ ما يحمله خلفه ليس روحاً بشريّة، بل مجرّد كيسٍ من المتاع.

تدلّى رأسها نحو الأسفل، يتمايل مع إيقاع الفرس الرّتيب، وشعرها كستارةٍ من حرير، يحجب عنها الرّؤية إلّا من مشهد حوافر الخيل الّتي لا ترحم. في الممرّات الجبليّة الضّيقة، خمد زعيقها وبدأ التّرقّب، فالمكان لم يعد يتّسع إلا للأنفاس اللّاهثة.

ما إن توقّفت الأحصنة حتّى بادرت بالفرار، لكنّ اليدين الباردتين كانتا أسرع من حلمها. خاضت معركةً ضارية بيديها العزلاوين، وأفلتت لبرهةٍ قصيرة قبل أن يحاصرها الرّجال من كل جهة. تراجعت للوراء، فارتطمت بصلابة ذلك الشّابّ، الّذي قبض على شعرها بوحشيّةٍ أخرست صرختها.. وبإيجازٍ موجع، كانت تلك هي نهاية المقاومة.

في اليوم التّالي، تسلّل شعاع الشّمس الدّافئ من النّافذة الملوّنة إلى الفراش الفارغ في الدّير، ورغم أنّه لم يجد أحدًا ليدفّئه؛ لم يحزن أو ينكمش أو حتّى يتأثّر..

ففي حقيقة الأمر كان دافئًا ولكنّه لم يكن حنونًا أبدًا، إنّما الوحيد الّذي كان يعتقد بحنانه كانت تلك العينان اللّتان كانتا اليوم محبوستان في ظلام أحد الأقبية على الجبل المجاور للقرية..

تلك العينان الحمراوان كانتا تسكبان الدّموع بالعشرات، على صوت نحيبٍ طفوليٍّ كئيب، ورغم انكماش كاترينا الشّديد إلّا أنّ برودة الأرض كانت تتسلّل إلى عظامها عبر ثوبها الرّهبانيّ الخفيف، بينما رائحة الرّطوبة والعفن تملأ خياشيمها، كأنّها في قبرٍ ينتظر إغلاق فوّهته.

أمّا الضّوء فكان بالكاد يصل إلى عينيها بعد أن تتسلّل بعض أشعّته الخافتة عبر قضبان الزّنزانة الحديديّة الّتي غطّاها الصّدأ؛ وهي لا تزال مصرّةً أن تقف كالصّخر أمام شباب المساجين الضّائع.

- هيّا يا ابنتي اسكتي.. لقد بكيت طيلة اللّيل؛ أما مللت؟ عن نفسي، لقد آلمني رأسي.

فصاحت امرأةٌ أخرى: اضربيها.. أخرسيها بالقوّة، لقد مضى عليك تلاطفينها لساعاتٍ وهي تتباكى!

وانطلقت لتضرب كاترينا عندما أمسكتها الثّالثة وهي تقول: اتركيها كلّنا بكينا في البداية.

- أنا لم أبكِ.. أمّي كانت هكذا والحياة كلّها كذلك.. أكره هؤلاء البنات السّخيفات!

لكنّ صوت شابٍّ من الخلف علا صائحًا: إيزابيلا.. اخرسي؛ على الأقلّ هي لا تصرخ لدرجتك.

غطّت كاترينا رأسها تكبت صوت نحيبها الّذي لا ينقطع، وهي تطارد صورة ذلك الشّابّ اللّعين لتخرجها من ذاكرتها دون فائدة، شعرٌ أسودٌ وعينان سوداوان مركبّتان على وجه شابٍّ بالكاد وصل العشرين من عمره، ولكنّ قسوته ووحشيّته تجاوزتا عمره بمراحل

ومراحل..

- أإذا كان طفلَ عصابات؛ أيسمح له أن يفعل ما يريد؟؟؟؟

بهذا صرخت كاترينا منفجرةً فجأة، بينما أجابتها المرأة الّتي تحاول أن تربّت عليها: أخبرتك أنّه ابن أخ زعيم العصابة، ومن الطّبيعيّ أن يتصرّف بهذه الطّريقة.

- وإن كان زعيم العصابة نفسه.. ألن يموت ويحاسب على جرائمه كما الجميع؟!!

فأجابت إيزابيلا بلهجة تسخيف: دعي ربّك ينقذك هنا أوّلًا، وبعدها نرى ماذا سيفعل بعد أن نموت..

وضحك الجميع ضحكةً لاذعة، بينما غرقت كاترينا في عذابها الشّديد وهي تحلّم بلحظة الصّباح الدّافئة الّتي عاشتها البارحة..

بدا وكأنّ جدارًا صخريًّا صلدًا حال بينها وبين الدّير إلى الأبد، فصرخت مناديةً سرابها، لولا أنّ لطمةً قاسيةً أعادتها إلى الواقع وهي تلصق وجهها بالجدار بكلّ وحشيّة، مرفَقةً بصرخةٍ كادت تثقب أذنيها:

- قلت لك اخرسي!! ألا يمكن أن تفهمي؟؟

التقت عينا كاترينا بعيني إيزابيلا الحاقدتين، وقد سال الدّم من أنف الملطومة المذبوحة المشاعر، الّتي أعجزها الذّهول عن أن تدافع عن نفسها بكلمة.. ومرّت ثوانٍ حارقةٌ قبل أن تعود إيزابيلا لمكانها من الزّنزانة بمشية فخرٍ، ويرنّ صدى كفّها الّتي ضربته بكفّ الشّابّ ذي الشّعر الأحمر متشاركين بسمةً ساخرة.

كان الزّمن يبدو متوقّفًا في القبو، كلّ ساعةٍ مثل الّتي تسبقها ومثل الّتي تلحقها، لولا أنّه أحيانًا في النّهار كانت تتعالى أصوات بعض صنّاع الأسلحة الّذين

ينزلون إلى القبو الكبير، ليضعوا شحنةً أو يأخذوا أخرى، وبطبيعة الحال لم يكونوا يكترثون بالمساجين على طرف المكان، أو حتّى يتذكّروا أنّهم منفيّون هنا.

ومضت ثلاثة أيّامٍ متكرّرةٌ لم تذق فيها كاترينا النّوم أو الطّعام، أمّا الآخرون فقد كانوا فرحين بحزنها الّذي يتيح لهم استغلال حصّتها من الطّعام دون أن يسألوها حتّى، ليصير طعامها مجرّد حصّةٍ إضافيّةٍ يتنازعون عليها بجشعٍ ساخرين من غبائها، وتاركين إيّاها لتدعو المخلّص على راحتها حينما يملّون من تعذيبها..

وحين أظلمت سماء اليوم الثّالث ومضى بمقته ونكده، وانقبضت قلوب الجميع وهم ينصتون لصدى خطوات السّجّان الرّهيب وهو ينزل درج القبو ببطء، وترقّبوا متأهّبين كالعادة ليسمعوا اسم ضحيّة اللّيلة، واندفع ذاك الصّوت الأجشّ كالصّاعقة: الكلبة الباكية! اخرجي، يريدك اليوم.

ويا هاربًا من الرّمضاء إلى النّار، دفع جميع السّجناء بهيكل كاترينا النّحيل نحو قبضة السّجّان بكلّ سخاء، وهم يهزؤون بها وخاصّةً أنّها فقدت وعيها لمجرّد سماع اسمها!

وعلى برد الماء، فتحت عينيها لتجد رجلي ذلك الشّابّ السّيّد أمام ناظريها، فارتعشت وشدّت جسدها المعيى لتنهض، وانطلقت يدها -بحركةٍ لا إراديّة- تمسّد شعرها، ثمّ تمالكت نفسها ورفعت عينيها ببطءٍ نحو الأعلى وقطرات الماء تسيل من شعرها المتعب على وجهها الأصفر الهزيل، وما إن التقت عيناه الشّيطانيّتين بعينيها الذّابلتين حتّى أصمّها بصراخه: ما هذا؟! أهذه هي نفسها؟ انظروا كم أفسدتموها.. صارت نحيلةً وبشعة.

وأردف بغضبٍ متزايد: لِم لم تطعمها؟؟ لقد أفسدتّ مزاجي يا ابن الـ***...

أجاب السّجّان مرتبكًا: أنا أضع لها الطّعام، لكن هي لا...

فقاطعه السّيّد مزمجرًا: لن أسمع منك أعذارًا يا ابن الـ***ـة!!

ألبيرتو! اجلد هذا السّجّان الغبيّ المهمل عشرين جلدة.

واعلم، أيّها السّجّان الـ***، أنّها ستكون البداية فقط؛ إن لم أجدها زهرةً خلال يومين..

رُميت كاترينا في الزّنزانة لتسقط منهارةً وسط أنظار زملائها المستغربة، وضحكاتهم الهازئة السّمجة تلسع روحها بلا شفقة، ولكنّهم سرعان ما سكتوا منصتين لصوت الجلدات العشرين تملأ روحهم الشّماتة بسجّانهم، وهم يتبادلون نظرات أعينٍ كادت تقفز من السّخرية!

وبعد ساعات، جاء السّجّان يجرّ رجليه وهو يعضّ بشراسةٍ على قطعة خشبٍ في فمه. فوجم الجميع مترقّبين، بينما تجمّد الدّم في عروق كاترينا وجفّت دموعها في مقلتيها، وبصمتٍ اقتحم السّجّان الزّنزانة، وجرّ كاترينا بكلّ عنفٍ نحو زنزانةٍ مجاورةٍ لا تختلف عن سابقتها في النّتن والخشونة، ورفعت رأسها لتجد السّجان فوقها يفرقع بسوطه مهدّدًا:

- الـ*** عليك يا وجه الشّؤم.. إن لم تأكلي فسأقطّع هذا على وجهك..

وتحت نظرات السّجّان الّتي تقذف شررًا وسياطه الّتي لا تعرف مصطلح الرّحمة، لم تجد كاترينا بدًّا من وضع ذلك الشّيء الّذي يفترض أن تستلذّ به في فمها بيدها الّتي ترجف كالمروحة؛ وما تراه عينا قلبها هو أنّها تصبّ نارًا على شكل طعامٍ مسروقٍ في أحشائها،

وهي الّتي لم تعرف في حياتها إلّا اللّقمة النّظيفة، وعلى هذا استمرّت تستشعر غضب الرّبّ ينهال على رأسها مع كلّ لقمة..

مرّت ثلاثة أيّام وكاترينا في زنزاتها تجبر على الأكل الكثير مرّاتٍ في اليوم حتّى كادت تنفجر حرفيًّا، وزملاؤها الخمسة يتفرّجون عليها من زنزانتهم ساخرين؛ وكأنّ مشاهدة آلامها ينسيهم أنّهم مشتركون معها في ما هي فيه؛ فكلّ يومٍ أحدهم يخضع للتّعذيب على يد السّيّد، ويعود يلمّ جراحه النّازفة وبقايا مشاعره المحطّمة، ويبتسم بروتينيّة وكأنّه كان في إجازة..

أمّا الإيجابيّة الوحيدة هي أنّها كانت في زنزانتها الفرديّة آمنةً من أيديهم، تنظر إليهم مشفقةً على حالهم وترسم لهم الصّلبان، غير مستوعبةٍ كيف صار شابٌّ وسيمٌ وأربع شابّاتٍ جميلاتٍ يفهمون الحياة بمفهوم الحيوانات؛ ويسخرون ممّن لا يزال يحتفظ بشيءٍ من إنسانيّته، بل ويهزؤون بمجرّد فكرة أنّ يكون لأحدهم حقٌّ يبكي لفقدانه.

وحانت منها همسةٌ بعينين جامدتين: هل سأصير مثلهم يومًا ما، وأسخر ممّن يأتي بعدي؟

قطرت عيناها تحسّ عجزها وهي تقول:

- ليهزؤوا؛ سأصرّ على المقاومة حتّى لو قتلوني.. أو.. أنا آمل ذلك..

ومضى اليومان، وجاء السّجّان ليأخذ كاترينا إلى غرفة السّيّد، وبالفعل أخذها عبر تلك الممرّات المشؤومة الّتي كانت تخفي خبث قاطنيها خلف قناع منزلٍ فاخر..

ودفعها السّجّان إلى الغرفة وأركعها واقفًا خلفها بترقّبٍ وأمله أن يسامحه السّيّد على ما بدر منه من تقصير في المرّة السّابقة..

وبالفعل اقترب السّيّد بخطواتٍ متعجرفة، ليتفحّص حالها من فوق؛ يحرّكها بقدمه وهي لا تجرؤ أن تنبس بحرف، بل تكاد تختنق من رائحة الخمر الّتي تفوح من ثيابه وهي تشتاق رائحة البخور أيّام الطّهارة..ثمّ قال بلسانٍ ثقيل:

- لا بأس.. سأعفو عنكَ هذه المرّة.

فقبّل السّجّان يد السّيّد وخرج فرحًا، بينما أجهشت كاترينا بالبكاء وقد قطعت الأمل أن ترجع بسلامٍ هذه المرّة..

أمّا السّيّد النّرجسيّ فبادر بفتح زجاجة نبيذٍ أخرى، ورماها إليها لتملأ له كأسه، وهو يرميها بكلماتٍ أشدّ لذعًا من رائحة ذلك الشّراب الفظيع..

وفي اليوم التّالي، أعاد السّجّان كاترينا إلى الزّنزانة الجماعيّة وهو يفرقع بسوطه قائلًا: إذا لم تأكل هذه الـ***، فستعاقبون جميعًا!

وجرّت كاترينا قدّميها ببؤسٍ حتّى أخذت زاويتها في الزّنزانة متّجهةً بوجهها نحو الجدار وهي حيرانة؛ أتمسك دمها الّذي ينزف، أم دموعها الّتي تذرف، أم تسدّ أذنيها لئلّا تسمع الأصوات الوقحة الّتي ترنّ في ذلك القبو الخانق.

مرّت الأشهر والأيّام، والسّيّد المتوحّش على ديدنه دون أن تخالطه أيّ رحمةٍ أو يؤنّبه صوت ضمير، ودارت عجلة الحياة تدهس كاترينا دون تردّد حتّى جفّت دموعها وملّ الآخرون من السّخرية منها، وساد الواقع على المشاعر..

ساد حتّى باتت العفّة شيئًا مرتبطًا بذلك الدّير المفقود، وبات العطف حلمًا لا يتوقّع أن تُخَصّ به، ولذا صارت تعرف كيف تدافع عن طعامها وكيف تردّ لـ إيزابيلا لطماتها، وكيف

تبصق في عيني جورفورس ذي الشّعر الأحمر حينما يرمقها بتلك النّظرات الحقيرة، وصارت سخريّاتهم اللّاذعة كغناء صراصير اللّيل المعتاد.

أمّا على الجانب الآخر، فباتت ترى السّيّد المتوحّش مجرّد شابٍّ أنانيٍّ مدلّل، أضعف حتّى من نفسه أن يمنعها شهوةً تمرّ أمامه، وأصابها الإدمان على رائحة الخمر فصارت عطرًا يُشتهى، وبات السّجّان مجرّد أداةٍ لا تفكّر أن تنظر إلى وجهه أو تقرأ مشاعره.

الأمر الواقع حكم، ولكنّ شيئًا واحدًا لم يقدر الواقع عليه، لا زالت كاترينا تدعو الرّبّ قبل أن تأكل وقبل أن تنام رغم أنف غناء الصّراصير، ورغم أنّ الإنقاذ لم يبدُ حتّى في الأفق، ولكنّها لا زالت تحتفظ بصلواتها في أعماقها تعانقها عند كلّ فرصة؛ على أمل أن يغضّ الرّبّ نظره عمّا أُجبرت عليه ويغيثها يومًا ما.

وكأنّ كلّ ما أصاب كاترينا لم يكن كافيًا، ففي أحد الأيّام انتظر السّجناء الحاقدون أن يغطّ السّجّان في ثمله واتّفقوا على شيءٍ واحدٍ خسيس، ومهما صرخت كاترينا وقاومت لم يسمعها أحدٌ لينقذها؛ خمسةٌ على واحدة..

لكنّ الواقع قال شيئًا آخر هذه المرّة؛ فقد فُتح الباب فجأةً ونزل رجلٌ الدّرج بسرعةٍ وصدى خطواته يهزّ القبو وهو يصرخ بسرعة: جورج!! أحضر ذات الشّعر البنيّ.

انتفض الخمسة عنها بسرعةٍ، وهم يتهامسون: لكن.. هذا ليس دورها اليوم.. أليس الوقت مبكرًا أساسًا؟!

وبعد صراخٍ ونداءٍ صاخب، انتبه السّجّان الثّمل أخيرًا، وتحامل على نفسه مترنّحًا حتّى وصل الزّنزانة يهمس باللّعن، وحين سمع كاترينا تبكي، كال لها الشّتائم المقذعة، وشدّها

من شعرها بيدٍ حديديّةٍ كما لو كان الّذي يشدّه صندوقًا بلا حياة؛ وقد غاب عقله تحت المسكرات، واستمرّت تولول بلا مغيث حتّى رماها في غرفة السّيّد، وأغلق الباب بعنفٍ رنّ المكان له.

وانهارت كاترينا على الأرض تمسك فروة شعرها -الّذي كاد يُقتلع- متلوّيةً وهي تنتحب، وبعد أن أفرغت ما في جعبتها من دموعٍ وتمالكت نفسها، نهضت تتفحّص أنحاء الغرفة دون أن تجد أثرًا لصاحبها، فداهمها الاستغراب؛ إذ لم يسبق له أن يدعها في غرفته دون رقيبٍ كلّ هذا الوقت.

كانت مجرّد غرفة تحتوي أثاثًا خشبيًّا جيّدًا، ربّما كانت ستحسّها جميلةً لولا أنّها أيضًا غرفة تعذيبها، وهنا ترقد أسود لحظات حياتها..

فنفضت رأسها متجاهلةً ذكريات المكان، وأسرعت تعانق النّافذة المفتوحة على مصراعيها؛ لتقذف نظرها مساعدةً إيّاه على الهرب من هذا المكان اللّعين إلى وسع السّماء الّتي اشتاقت إليها، وهي تواجه ببشرة وجهها رياح الجبل الباردة المنعشة الّتي تتسابق إلى الغرفة، لاعبةً بشعرها النّاعم المرهق.

قبضت يداها تتضرّع من أعماق قلبها، وتنتحب بصوتٍ خفيض، ولكن لسوء حظّها داهمها الوقت؛ إذ سمعت الباب يفتح بهدوءٍ ويغلق خلفها، لكنّها تجلّدت ولم تأبه له وبقيت تتمتم في صلاتها، وهي تصغي واجفةً لصوت الخطوات المترنّحة يقترب منها..

وفي اللّحظة الّتي انكمشت فيها متوقّعةً أن ينقضّ عليها، ضرب أذنيها صوت الكرسيّ الخشبيّ؛ وهو يهتزّ تحت ثقل الكتلة البشريّة الّتي سقطت فوقه.

واستمرّت كاترينا في الصّلاة واستمرت حتّى هدأت ثائرتها بعض الشّيء، وأخيرًا شدّت أعصابها والتفتت ببطءٍ لتواجهه؛ وهي تتساءل كيف تركها دون أن

ينبس بحرف، ولكنّها تنفّست الصّعداء، وارتمت بهدوءٍ على الأرض بعد أن وجدته يغطّ في نومٍ عميق، مستلقيًا بشكلٍ ملويٍّ على الكرسيّ، ورائحة الخمر تفوح منه كعنوانٍ له.

وبمرور الوقت، أدركت أنّه على هذه الحال سيصاب بالبرد، فنهضت تعضّ على شفتها، واقتربت منه بخطواتٍ حذرة، ولمسته قائلةً بصوتٍ مرتجف:

- يجب أن تنهض، الجوّ بارد؛ ستبرد هنا..

فتح عينيه الحمراوين، ورفع يده ليضربها ولكنّها ابتعدت في الوقت المناسب، وخانته قواه فسقطت يده وجفناه. كان كالمشلول فاقد الوعي، ولم تعلم لِم طلبها وهو على هذه الحال العاجزة؛ لم يسبق له أن فعل شيئًا كهذا!

نعم، بإمكانها أن تنتقم منه، بإمكانها أن تقتله بصمت، أو حتّى -على الأقل- أن تتركه يصاب بالبرد، ووقفت تنازع الأفكار في رأسها..

ها هو المجرم الّذي حطّم أحلامها وسرق بريق عينيها وخطفها من أهلها ومزّقها وأدماها ولا يزال واقفًا عائقًا أمام سلامتها؛ ها هو مخدّرٌ أمامها وأوداجه تحت رحمتها، ولا حارسٌ ولا رقيب.. هل تفعلها؟ هل تخنقه وتخلّص الآخرين منه؟؟

- هيّا يا كاترينا.. هذا عدو الرّبّ.. القتل أقلّ ما يستحقّ.

دوى هذا الصّوت في قلبها؛ فاستجمعت قواها ووقفت خلف الكرسيّ ممسكةً بخناقه بكلتا كفّيها؛ تستعدّ لتفعلها مستذكرةً كلّ الفعائل القبيحة الّتي يعملها بها، وأخذت نفسًا عميقًا

جدًّا نفخ صدرها وهي تفكّر: بمجرّد أن أتأكّد من موته.. سأقذف بنفسي من النّافذة..

ولكن في تلك اللّحظة رنّت في أذنها صوت الأمّ وهي تقرأ:

"أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، وَبَارِكُوا لاعِنِيكُمْ، وَأَحْسِنُوا مُعَامَلَةَ الَّذِينَ يُبْغِضُونَكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَضْطَهِدُونَكُمْ".

فكشّرت بغيظٍ وهمست: ما أسهل أن تقرئي هذا يا أمّي!

انظري إليّ الآن.. حتّى المسيح؛ لو كان مكاني لغيّر كلامه! ولكن..

ثمّ طأطأت مراجعةً نفسها وهمست: ما الّذي أقوله؟!.. بالفعل واجه المسيح الأعداء وتحمّلهم ولم يغيّر كلامه يومًا..

ازدردت ريقها معقّبةً: والانتحار.. خطيئةٌ كبرى.. "لا تقتل"، "لا تقتل"..

وأخذت تحملق في وجهه القاسي باحثةً عن قرارٍ يشفي غليلها قبل أن يكون صحيحًا ،وهمست بانفجار: أليس من رحمةٍ للرّبّ في حالتي؟؟؟؟

لكن ارتخت يداها بعدها، وترقرقت دمعتاها وهي تقول: ألرّبّ يجب أن يستثنيني، أم أنا يجب أن أطيع الرّبّ؟!

ولدقيقةٍ أمسكت أنفاسها مختنقةً من صعوبة القرار، وفجأةً تنصّلت أصابعها ببطءٍ مطلقةً رقبته، وأغمضت عينيها وهي تجرّ قدميها -اللّتان بدتا بثقل الحديد- نحو النّافذة مغلقةً إيّاها، ثمّ أخذت تشعل المدفأة ورذاذ الحطب يزيد دموعها حرقةً.. وبعد صراعٍ آخر أجبرت يديها على تغطيته بغطائه، وهو ما يزال غافلًا على الكرسيّ..

نظرت إليه تغلي من الحقد ثمّ التفتت مزورّة؛ وكأنّ المسيح قد جعل بينها وبين الانتقام

منه سياجًا من حديد، وجلست تقرأ الصّلوات على أعصابها، وتضغط على أسنانها لتصلّي لأجله؛ منفّذةً وصيّة المسيح الّتي عرفتها اليوم كما لم تتخيّلها من قبل.. وتنتظر مصيرها بتشاؤم.

ومضت ساعتان وثلاثة.. أظلمت الدّنيا وحلّ اللّيل وهو غارقٌ في ثمله، وطُرق الباب مرّات، ولكنّ الطّارق تركه بعد أن سمع بوضوحٍ شخير السّيّد الذّاهب والآيب، أمّا كاترينا فقد سكتت مستغلّةً غفلته لتتلذّذ بنعمة أنّها خارج الزّنزانة العفنة كلّ هذا الوقت؛ تجلس بأمانٍ أمام المدفأة، على كرسيٍّ مريحٍ دون رقيب

ودون أن يصمّ أذنيها غناء الصّراصير!

كانت فكرة الهرب تراودها، وذهنها منشغلٌ بنسج نهايةً سعيدةً لمغامرتها المفترضة، ولكنّ خوفها من الألم كان أعظم بمرّاتٍ من أن تفتح الباب حتّى!

وفي منتصف اللّيل، تحرّك صاحب الغرفة، وتأوّه وهو يحسّن جلسته قائلًا بلسانٍ ثقيل:

- ألبيرتو، ظهري.. أوه، كيف تركتني على الكرسيّ هكذا؟! تعال مسّد لي ظهري.

تردّدت كاترينا، ثمّ خافت من ردّة فعله فاقتربت منه بهدوء، وبدأت تمسّد ظهره بتوتر، ومرّت دقيقتان قبل أن تستشعر الأمان ظانّةً أنّه لم ينتبه، ولكنّه قال بعد قليل: أتصدّق؟ الخمرة تجعلني أحسّ أنّ يديكَ يدي امرأة.

سكت وساد الصّمت بشكلٍ غريب، فساورته الرّيبة وقرّر أخيرًا أن يلتفت، وكم شُده حينما رأى كاترينا، فجفل صائحًا دون تفكير: من أنت؟؟

- أنا؟ أنا كاترينا.

فالتقط عدّة أنفاس، واستعاد لهجته قائلًا: ما.. ما الّذي جاء بك إلى هنا؟ أين ألبيرتو؟؟

- لا أدري، أنت طلبتني نهار البارحة.. وبعدها دخلتَ الغرفة ونمت فورًا.

تمتم وهو يتلمّس رقبته -بحركةٍ سريعةٍ- ويفكّر بصوتٍ عالٍ:

- منذ النّهار وهي هنا؟!!

ابتلع ريقه مشيحًا بنظره، وفكّر لوهلةٍ وهو يفرك الغطاء -الّذي عليه- بين أصابعه لا يستطيع أن يخفي ارتباكه، ثمّ رماه إلى السّرير بدفعةٍ واحدة، واستعاد بريق عينيه قائلًا: إذًا قلت أنّ اسمك كاترينا؟

أجابت بحرقة: نعم؛ ليس الـ*** ولا الـ*** ولا ابنة الـ***....

ابتسم بسخريةٍ وسكت قليلًا قبل أن يقول بساديّة: لا أحبّ اسم كاترينا.. إنّه مملٌّ وسخيف.

همست بتردّد وإن لم يسمعها: واسمك لا أراه يتناسب معك.

صفق يده على فخذه وقال: نعم، سأغيّر اسمك إلى كاتي! اسمك منذ الآن كاتي.

نهض جيوڤاني ونظر نحو المدفأة، وقال: اسمعي يا كاتي، أنا.....

وبدل أن يكمل تلك الجملة، زفر وقال: أنا مصدوعٌ وسأكمل نومي.

ورماها بنظرةٍ غريبة وهو يمسك رأسه، ثمّ رفع أنفه وقال آمرًا ونافضًا بكفّه: عودي إلى الزّنزانة أنت..

آه.. أقصد، ألبيرتو! ألبيرتو!

سرعان ما فتح ألبيرتو الباب وقد ظهر عليه النّوم، وأومأ إليه سيّده بعينيه، فأسرع قابضًا على معصمها يشدّها إلى الخارج؛ بينما هي واقفةٌ كالصّخرة وقد عاد إليها ذعر آخر ما

واجهته من جورفورس والأخريات، وألبيرتو يصيح: امشي يا *، ما بك؟؟**

همست بيأسٍ، وقد بهت وجهها: لا.. سيهاجموني.. لا لا..

تركها ألبيرتو ليحضر السّوط، بينما صاحت متوسّلةً: أرجوك يا جيوڤاني.. ذلك اللّعين في الزّنزانة لن يتركني!

رفع جيوڤاني عينيه الذّابلتين وهو يتثاءب، وقال بشكلٍ متقطّع: كيف.. تجرؤين.. أن تناديني باسمي..

ونظر نحو عينيها بفتور، بينما رنّت فرقعة السّوط في الغرفة، وألبيرتو يصيح: تحرّكي يا ......

وبطبيعة الحال، دخلت كاترينا الزّنزانة محبطةً وقد ضاعت الفرصة النّادرة من بين يديها. لكن -على الأقلّ- كان الصّراصير غاطّين في نومهم، وهم ملتصقون ببعضهم البعض كي يحصلوا على شيءٍ من الدِّفء في هذا الجوّ المتجمّد..

فتسلّلت على رؤوس قدميها لتجلس لوحدها في زاويتها؛ مستندةً على الجدار البارد، وتحاول استدعاء النّوم على ذكرى المدفأة وصوت الحطب.

لكن بالطّبع، لم تستطع النّوم مع كلّ ذاك البرد وأخذت تفكّر بكلّ ما حدث، فكّرت بقرارها وبالوصايا، وبالمسيح وكيف صبر وتحمّل حتّى النّهاية، ثمّ فكّرت بكلمات جيوڤاني ونظرته الغريبة وارتباكه الواضح، فهي لم تختبره بلا خمرٍ من قبل.. لم تنتبه في لحظتها ولكنّ تفكيره بما سيسمّيها لوحده سببٌ يدعو إلى الانتباه..

فكّرت وفكّرت، وأسنانها اصطكّت اصطكّت، حتّى طلع الصّبح واستيقظ الجميع ليعلن انتهاء وقت الهدوء الثّمين، حدّق جورفورس نحوها بابتسامة تجبّرٍ وقال:

- نجوتِ منّا البارحة، ولكن ليس اليوم.. انتظري فقط!

وغمزها بينما تبادلت النّساء أدوار السّخرية والاستهزاء.. وبعد الطّعام، كان جميعهم يترقّبون أن يشرب السّجّان بشغف، إلّا كاترينا الّتي كانت تعضّ شفتها بعذابٍ وتعانق جسدها الرّاجف، وهي تتضرّع للرّبّ عاجزة..

ومرّت ساعاتٌ قبل أن يغادر صانعو الأسلحة، ويرنّ صوت الزّجاجة على المنضدة ويجلس السّجّان ينتظر الأوامر وهو يشرب كالعادة، ولكن خرقت العادة بصدى الخطوات المهيب الّذي كان يطرق ببطءٍ على الدّرج، أتعب السّجّان نفسه ليرفع رأسه المسند على كفّه قليلًا وينظر بطرف عينه، لكنّه فجأةً انتفض واقفًا بارتباك: أهلًا بك يا سيّدي، ما كان عليك إلّا أن تناديني كعادتك!

وعلى شعاع فانوسه، نظر جيوڤاني إلى الزّنزانة شزرًا، وقال بلهجةٍ آمرة: لم تضع ابن الـ*، مع فتياتي؟**

أجاب السّجّان بتردّد: هذا أسهل لي حين...

قاطعه جيوڤاني حازمًا: اجلده خمسين وضعه هناك.. إيّاك وأن تجعله معهنّ ثانية.

قالها آمرًا وخرج من فوره، فحكّ السّجان رأسه، ثمّ انطلق ينقل جورفورس إلى الزّنزانة الأخرى، وهو يتمتم متضايقًا: من الـ* بينكم الّذي أخبره؟؟**

وعلى الفور نظر الجميع نحو كاترينا دون تردّد، فتمتم السّجّان بغيظ:

- يا وجه الشّؤم.. منذ أن جئتِ وأنت تسبّبين لي المشاكل.. سترين إن لم أنتقم منك.

أجابه جورفورس: أنصحك أن تنسى الأمر.. فيبدو أنّها هي الّتي ستنتقم منّا!

صاح السّجّان: ومن ابن الـ* الّذي يريد نصيحتك؟؟!**

وبالفعل، جُلد جورفورس ورمي في الزّنزانة الأخرى، والسّجينات يتألّمن لألمه ويلُمن كاترينا بنظراتهنّ ويشتمنها بهمساتهنّ، وهي لا تعرف أتفرح أم تبكي؟ ما حصل الآن يشير إلى ما حصل البارحة، كانت تهمس مذهولةً غير مصدّقة: لقد فعل شيئًا لأجلي.. لقد فعل شيئًا لأجلي..

وعاشت ساعاتٍ وهي تتخبّط بأفكارها؛ فتكذّبها تارّةً وتصدّقها أخرى، وانتهى ذلك عندما سمع الجميع صوت الباب يفتح بعنف، وصوت ألبيرتو الأجشّ يرجّ من أعلى الدّرج: هات ذات الشّعر البنّيّ!

شهقت السّجينات من الغيظ، بينما ابتلعت كاترينا ريقها من الخوف، ونهضت تسير بعينين جامدتين في الطّريق الّذي لا تعرف غيره من المكان، ودخلت الغرفة الدّافئة، لتجده جالسًا على طرف النّافذة، يرتشف خمرته بنظراتٍ ملؤها التبجّح، ووقفت تنتظر إشارته، ومرّ بعض الوقت قبل أن يشير إلى كأسٍ أخرى على المنضدة قائلًا: إذًا، كاتي أم كاترينا؟

ابتسم بمكرٍ بينما أجابت: عمّدتّ بـ كاترينا، لكن أمّي تناديني كاتي.

ضحك بخفّةٍ وقال: حسنًا يا كاتي، تعالي واجلسي هنا.

وجلست بجواره على عتبة النّافذة كما طلب، وأخذ يحدّق بعينيها لثوانٍ فأشاحت باصرتيها من الخجل، وتحرّكت شفتاه بنظراتٍ ثاقبة: أنت تكرهينني.

همست بتردّد: وهل تتوقّع أن أباركك؟!

مدّ قدميه مستندًا وردّ مع ابتسامته العريضة: ولكنّك اعتنيت بي البارحة دون أن يرغمك

أحدٌ على ذلك.

أخذت نفسًا وقبضت على كأسها مجيبةً: صحيح، طاعةً لوصايا الرّب ليس إلّا.

- قلتِ وصايا الرّب؟! ما هو الرّب؟

أخفضت كاترينا عينيها واحتقن وجهها، تحاول أن تسدّ آذان قلبها عن سماع السّخريّة، بينما أردف جيوڤاني رافعًا حاجبيه: لم لا تجيبين؟ ما هو الرّب؟ سمعتك قلتيها "الرّب".. هل سمعتها خطأً؟

رفعت عينيها تتأكّد أنّ الأمر ليس سخريةً بينما قال بانفعال: ما هذه النّظرات الفارغة؟ أستتكلّمين أم...؟

بدا الاستغراب على ملامحها وهي تهمس بصوتٍ متقطّع: أفعلًا تعيش دون أن تعرف الرّبّ؟! الفادي!!

سكت يدرس الأمر ثمّ قال: حسنًا، أنا لست أحد البهائم!

احتقن وجه كاترينا ثانيةً وانتفخت، لكنّ جيوڤاني أردف بسرعة: لا! أقصد أنا لست أحد الـ.. أحد الـ... ماذا يقولون؟!

ووضع يده على رأسه ينظر لأعلى اليمين؛ محاولًا أن يتذكّر حين سألته: تقصد القرويين؟

انفرج ومدّ كأسه مشيرًا بالإيجاب، ثمّ شرح بعفويّة: آه نعم؛ لا نستعمل هذه الكلمة في العادة.. نقول بهائم أو أغنام أو..آه.. أيًّا يكن.

عادت تتأكّد: إذًا أنت لا تعرف أبدًا من هو الرّب؟

ضيّق عينيه قائلًا: يبدو من كلامك شخصًا؟؟

ابتسمت كاترينا من قلبها وأشرقت؛ وأخيرًا بعد أشهرٍ أحدٌ يكلّمها عن الرّبّ دون سخرية،

فأجابت وقد استعادت بريق عينيها: الرّبّ هو الآب السّماويّ؛ الّذي خلقنا جميعًا على صورته...

- خلقنا؟ ماذا تعنين بهذا؟ (وانفجر ضاحكًا) أأنا وحدي من لديه والدين؟!

تجاهلت ضحكته وأجابت برصانة: أجل، هو الّذي خلقنا، أمّا والديّ.. حسنًا.. كيف يكونان هما من خلقاني وقد تفاجآ بملامحي حين ولدتّ؟!

غمزها قائلًا: تفاجآ؟

لكنّها استمرّت بشرح فكرتها سعيدةً: نعم، فهما لم يعرفا ملامحي، بل انتظرا مشيئة الرّبّ بصبرٍ وإيمان..

فضحك بخفّةٍ قائلًا بخبث: يبدو أنّ الرّبّ خيّب أملهما في النّهاية!!

وبحركاتٍ ساخرة: ولكن هل كان هناك شخصٌ يصنعكِ داخل بطنها يدعى الرّبّ؟

انبرت مدافعةً: جيوڤاني، إنّه ليس شخصًا مثلي ومثلك!

- مثل من إذًا؟

فكّرت لوهلةٍ ثمّ أجابت: ليس مثل أحدٍ من خلقه، لكنّه في السّماء، ومع ذلك هو بعلمه وحضوره موجودٌ معنا الآن وفي كلّ زمانٍ ومكان!

رمق السّماء وقال: لا أراه هنا، ولا حتّى في السّماء!

وضعت كفّها على قلبها برقّةٍ وقالت: لا تدركه الأبصار، ولكنّك تستلذّ بحضوره هنا بعين الإيمان!

ضاربًا صدره بقبضته: لا أحسّ شيئًا أيضًا.. لم لا يظهر حتّى نراه ونتكلّم معه؟

حدّقت به بعينيها البريئتين وفتحت ساعديها تشرح: لأنّ جلاله أعظم من أن تحتمله أبصارنا الفانية، لو تجلّى لنا لذُبنا من هيبة قدسيّته!

انفجر جيوڤاني ضاحكًا وضاحكًا، ثمّ كفكف ضحكته وقال أخيرًا: هل أنت فعلًا معتقدةٌ بما تقولينه؟!

امتصّت ضيقها وقالت: طبعًا وعن تجربة!

مسح وجهه المحمرّ: وما هي التّجربة؟ قولي لي حتّى أجرّب أنا الآخر.

- كلّما صلّيت ودعوته، أحسّه بقربي يستمع إليّ.. وأحسّ بالسّكينة تملأ روحي!

- لن أستطيع رؤية تخيّلاتك، أريد تجربةً أراها بنفسي، ألمسها!

فرك أصابعه بينما تأمّلت الكرسيّ الّذي كان نائمًا عليه البارحة، ثمّ قالت: البارحة جلستُ أصلّي وقتًا طويلًا وأنت نائم، ودعوت الآب كثيرًا أن يـ....

تحوّل بعينيه متململًا: لا يمكنك أن تكوني اعتقدتّ أنّ الآب خاصّتك هو من جعلني أكلّمك الآن.. على هذه الحال فسأعتقد أنّه خلقك وسخّر أبواك لينشآك؛ لمتعتي!

ارتبكت كاترينا واحمرّ وجهها، بينما قهقه جيوڤاني قائلًا: غير معقول كم أنت ساذجة! اسمعي، أنا أتكلّم معك لأنّني ملّان.. كما أنّي شربت البارحة في النّهار حتّى الثّمل؛ لأنّي "ملّان".. فقط!!

طفا الاستهجان على وجهها وصوتها : ملّان؟! لكن أنت تفعل كلّ ما يحلو لك؛ على الإطلاق!

دمدم بأصابعه على كأسه وقال بعد صمت: ولهذا أنا ملّان.. وأبحث عن شيءٍ جديد..

وهذا ما جعلني أكلّمك اليوم.

ولكن لا بأس، لقد تحسّن مزاجي بالسّخرية من كلامك السّاذج!

وجمت كاترينا بخيبة أمل، بينما قال جيوڤاني: أنت تحبّين هذا الموضوع كثيرًا كما يبدو.

تحشرج صوتها ومسحت مقلتيها وهي تقول: طبعًا، لقد كرّست حياتي لخدمة الملكوت.. قبل أن تأتي أنت.. وتنتهك قدسيّة نذري، وتحطّم أحلامي بجشعك..

أشرق وجه جيوڤاني وصوته وهو يقول: آه، هل حطّمتُها فعلًا؟ يا للخبر السّعيد الّذي يستحقّ الاحتفال!

اضربي كأسك! دعينا نشرب نخب إنقاذي حياتك من هذه التّرّهات!

نهضت كاترينا وضربت الكأس بالمنضدة، قائلةً بانفعال: افعل ما تريده، ودعني اذهب.. لا أريد الكلام معك!

يمكنك استعباد جسدي، لكنّك لن تملك روحي أبدًا!

فارتشف كأسه ببرود، ثمّ رفع أنفه ينظر من أعلى آمرًا متغطرسًا: إن لم تحتفلي معي خلال ثلاث ثوانٍ، فسترين كيف سأجعلك تلحقين بأحلامك المحطّمة.

ارتعشت كاترينا من نبرة صوته الحادّة، وأحسّت بلهيب السّوط على طول جسدها مسبقًا، فانقبضت ترقوتها بخنوع، وجلست ثانيةً وضربت كأسها بكأسه بيدٍ راجفة، فعلّق متبجّحًا:

- أرأيت؟ القوّة تخوّلني أن أملك أيّ شيءٍ فيك!

حسنًا، سأكون لطيفًا وأتجاهل ما قلتيه؛ "هذه المرّة فقط"!!

وارتشف كأسه برضًا، وعاد ليقول بنبرةٍ هادئة: وهذا الثّوب الأسود الّذي كنت ترتدينه.. ظننتك رجلًا في البداية!

أخذت نفسًا غاضبًا قبل أن تجيب: هذه ثياب الرّاهبات.

- الرّاهبات؟.. من هؤلاء؟

- نساءٌ يكرّسن وقتهنّ لعبادة الرّبّ داخل الدّير، بعيدًا عن دنس العالم وشروره.

- امم.. الدّير هو ذلك البناء مع تلك الخشبة الّتي يقف عليها الغربان؟

صدمت من هذا التّعبير وأجابت باشمئزاز: تدعى صليبًا! رمز الفادي!

ابتسم بسماجةٍ وقال: لا أرى أحدًا مصلوبًا، هل الرّبّ يستلذّ بهذه الطّريقة للقتل؟

زفرت غاضبةً: لا، هذا الرمز الذي صُلب عليه ابن الرب ليفتدي البشرية بخلاصه!

انفرجت عيناه: وهل للرّبّ ابنٌ أيضًا؟! ألم تقولي أنّه ليس شخصًا مثلي ومثلك؟

- بلى، ابنه هو الكلمة الذي صار جسداً، نزل إلينا بالرّسالة من الآب!

أطلق صوت انفعالٍ، وانحنى إلى الأمام صائحًا: ماذا؟!! تخيّلي أن يرسلني أبي إلى القرية بثياب الـ.. القرويين.. لأقول لهم شيئًا، ثمّ يتفرّج عليهم مثل الأحمق وهم يصلبونني!!

وأخذ يضحك ويقول باستصغار: لا أحد عاقل يفعل هذا الشّيء! وهل مات الابن بعد الصّلب؟

حارت منه، وتمنّت لو لا تجيبه، لكنّها عضّت على أسنانها: نعم، ولكنّه قهر الموت بالقيامة في اليوم الثّالث.

استند وقال: حقًّا؟! وأين هو الآن؟

اقتضبت على أمل أن يترك الموضوع: صعد إلى السماء، وسيعود يوماً ليدين الأحياء والأموات.

ولكنّه استمرّ دون اكتراث: والرّاهبات ينتظرونه في الدّير؟ ويضعون له إشارة الصّليب

عاليًا؛ حتّى يعرف أين أتباعه فينزل إليهم؟

فوجئت كاترينا بخواطره الغريبة، بينما استرسل: مع أنّه كان يفترض بالأب أن ينذر ابنه مسبقًا بدل أن يذيقه التّسمير هكذا، فالأب في كل مكان، ويفترض أن يعرف كلّ شيء..

بينما الابن المسكين حُرم من كلّ مميّزات أبيه الخارقة، وصار إنسانًا مثلنا؛ لدرجة أنّهم صلبوه.. لو فعل أبي معي هذا لحقدتّ عليه، وسعيت لأنتقم منه!!

- أنت لا تفهم سرّ التجسد! الابن نزل بمشيئته، وكان يشفي المرضى ويحيي الموتى بمعجزاتٍ باهرة، لكنه رضيَ بالألم من أجلنا!

قرّب وجهه حتّى كاد يلامس وجهها وهمس: ولكنّه لحمٌ وعظم؛ وليس في كلّ مكان، ولا يخلق كلّ إنسان مثل أبيه، صح؟

ارتبكت من نظراته وامتدّت يدها لتبحث عن الصّليب الّذي يكون في العادة في رقبتها، بينما استطرد بجدّيّة مستعرضًا: انظري، رغم أنّي قويّ إلّا أنّ أحدًا من عصابتنا لا يطلب منّي شيئًا؛ جميعهم يتحدّثون إلى عمّي الزّعيم، لأنّه هو من لديه كلّ القوّة، وليس جزءًا منها مثلي.

رمقته مستفهمةً بينما أردف: لذا خطر لي أن أنصحكم أن تعتمدوا على الرّبّ وليس على ابنه، فهمت كيف؟

ردّت كاترينا يائسةً: الآب والابن واحد، لهما نفس الجوهر الأزليّ...

لكنّ جيوڤاني لم يكلّف نفسه عناء الإنصات، بل نهض قائلًا:

- فهمت الآن لم أنتم لا تملّون؛ تخترعون قصصًا عجيبةً عن ملكٍ وأميرٍ يموت لأجل

عبيده، لتتصبّروا على بؤسكم..

ياه! حتّى أنا تسلّيت بالحديث عن هذه القصّة الطّريفة!

تمطّى جيوڤاني ونادى ألبيرتو قائلًا: خذها!

نظر إليها فوجدها مطأطئةً تحدّق بكأسها فقال: هذا كان سريعًا؛ هل أغضبَتْك؟

تثاءب جيوڤاني: لا.. ولكن لا رغبة لي في شيء..

سأل ألبيرتو وهو ينطلق نحوها: قد تكون مريضًا، هل أحضر لك طبيبًا؟

ردّ بملل: لا، أنا بخير..

ومشت كاترينا خطواتٍ قبل أن تلتفت قائلةً بقوّةٍ مفاجئة: أنت ملّان لأنك تعيش في قفص خطاياك!

لديك كلّ شيء، لكنّ روحك مكبّلةٌ بالأغلال.

صوّب إليها نظرةً حادّةً وقال متهكّمًا: أنا أعيش في قفصٍ وأغلال؟!

أرى أنّك أنت من يعيش في القفص، وها أنت عائدةٌ إليه الآن!

دفع ألبيرتو كاترينا بعنفٍ وخرج بها من الغرفة مغلقًا الباب، بينما تنهّد جيوڤاني وهو يهمس بدهشة: كيف عرفت أنّي محبوس؟؟

عادت كاترينا إلى القبو حيث كانت نظرات الجميع تصفعها، وقد اشتمّوا رائحة النّبيذ الّتي تفوح منها قويّةً، وطبعًا ارتسم الغيظ والغيرة واضحين على وجوه جميع النّساء السّجينات اللّواتي يرجفن من بردهنّ؛ وهنّ يكدن يقتلعنها بأعينهنّ الحاقدة، بعد أن بدأ تحصل على ما لا تطوله أيديهنّ..

أمّا هي فكانت تعيش في عالمٍ آخر..

الفصل الثّاني

السّيّد عن قرب

جلست كاترينا على سريرها تقلّب أفكارها بجنون، ضربت وجهها بكلتا كفّيها وسحبت يديها لأسفل بعنفٍ كاد يمزّق جلدها، ثمّ ركضت نحو النّافذة تقفز بروحها نحو السّماء تحاول أن تبرّر للرّبّ الموقف الّذي مرّت فيه.. " تلك الخمرة.. أكيد أكلت من رأسي خمرته، منذ شهرٍ فقط كنت أكره ذكراه" وغاصت تبكي بين ذراعيها "كاترينا، ماذا ستقول أمّك لو علمت يا كاترينا؟!.."

أخذ شريط القصّة يجري أمامها منذ اللّحظة الّتي نادى فيها ألبيرتو عليها بعد طول انقطاعٍ بين لقاءاتها مع جيوڤاني، حينها انطلقت -من الطّريق المعهود- إلى غرفة جيوڤاني وقد أخجلها خفقان قلبها.

وحين رأته طريح الفراش، تقدّمت بخطواتٍ راجفةٍ وقد اعتلى البرد والزّكام وجهها،أمّا هو فما إن رآها حتّى صاح مستاءً: أنت مريضةٌ أيضًا؟!

- ليس الغريب أنّني مريضة؛ وأنا بالكاد أنام من بردي، بل الغريب أن تمرض أنت ولديك الدّفء والرّاحة..

كشّر جيوڤاني وقال مستغنيًا: ألبيرتو.. خذها..

وقبل أن تكتمل خطواتها، صدر صوته: غيّرت رأيي، اخرج وأغلق الباب!

نظر إليها متسلّطًا: كاتي، أحضرتك لتعتني بي أثناء مرضي..

وأتوقّع أن تفعلي ذلك بإخلاص إن كنت تريدين أن تبقي هنا دافئة.

سعلت وقالت: من الجيّد أنّك تثق بي، لأنّي أؤمن بالرّبّ.

- لا أريد أن تكلّميني اليوم!

بعد اللّهجة الآمرة، صمتت كاترينا وأخذت تقوم بالخدمة دون أن تنبس بحرف؛ لا مشكلة ما دامت ستحصل على الدّفء. وبطبيعة الحال لاحظ جيوڤاني علامات الحمّى عليها هي الأخرى، فمكث فترةً يصارع ساديّته حتّى قال وهو يعضّ على أسنانه: هناك أغطيةٌ في الدّرج، خذي أحدهم لك.

تهلّل وجه كاترينا وأسرعت تختطف الغطاء من فورها، ورفعته تتمتم بصلاة شكرٍ سرّيّةٍ

قبل أن تلفّ به جسدها الرّاجف، ثمّ قعدت تعانقه وتستمتع بقليلٍ من الإنسانيّة الّتي باتت تحسّ أنّها لا تحقّ لها.

كان كرّسيّها بجوار السّرير تعتني به تارّةً، وتحدّق نحو السّماء الزّرقاء تارّةً أخرى، وبعد برهةٍ جاءتها قليلٌ من الجرأة لتسأل: ما هذا الصوت الّذي يشبه صوت ماءٍ ينقط.. متقطّعٌ وبعيد..

أجاب من تحت الأغطية: أطلّي من النّافذة!

فنظرت إليه مستفهمةً فأوضح: أطلّي لتعرفي.

وبالفعل أطلّت نحو الوادي لترى خطًّا من النّاس يدخلون ويخرجون ببطءٍ من كهفٍ هناك في أسفل الوادي، ومرّت لحظاتٌ قبل أن تدرك أنّهم كانوا يجلدون ليستمرّوا بعمل السّخرة في ذاك المنجم، فوضعت كفّها على فمها مغمضةً عينيها بقوّة، وتراجعت على الفور منقبضةً لتجلس على الكرسيّ دون أن تنبس بحرف، بينما علّق هو بابتسامةٍ عريضة: إذا سئمت منكم، فهناك سيكون مصيركم! ههه، ما رأيك بهذا؟

طأطأت وهمست: لا أرى لرأيي قيمة.

- آه فعلًا أحسنت الجواب!

زفرت واستجمعت قواها لتقول: ألا زلت ملّان؟

أجابها بضحكةٍ قصيرةٍ هازئة: ولم أنا مريضٌ إذًا؟!

اندفع صوتها: فكّرت بحلٍّ لمللك و...

قاطعها بصوتٍ جافّ: إذا كان عن الرّبّ فلا تخبريني به..

فتداركت بسرعةٍ وهي تطبق كفّيها: سـ.. سأغنّي لك أغنية؛ أغنية تحسّن المزاج.

أنزل الأغطية: يا لها من فكرة، لم أجعلك تغنين لي من قبل! هل صوتك جميل؟

- أنت من يقرر.

- إذا لم يعجبني صوتك فستخرسين فورًا.

- بانتظار إشارةٍ منك.

فأخذت نفسًا عميقًا وبدأت تنغّم أحد مزامير داوود الّتي تحبّه وتحفظه، وفي كلّ لحظةٍ تتوقّع أن يوبّخها عندما يكتشف أنّها تتكلّم عن الرّبّ، ولكنّه لم يقل شيئًا بالفعل، فاستمرّت وقد أحسّت بالثّقة بنفسها..

وهكذا جادت فرحةً حتّى انتهت وسكتت منتظرةً تعليقه، ولكنّه أيضًا لم يصدر منه صوتٌ غير صوت نفسٍ ثقيل، وإذا به قد نام!

فتتفسّت بعمقٍ، واستندت بخيبة أمل..

وبعد ساعتين استيقظ، وتمطّى وأخذ يحكّ صدره وهو ينظر إليها ببسمة سخريّةٍ، ثمّ قال: آه، هذا أنت المخادعة.. صوتك قبيحٌ على أيّة حال.

فحاجّته بقوّة: لدرجة أنّك لم تقل لي أن أصمت، ونمت أيضًا، لا أعرف أنّ أحدًا يستطيع أن يتحمّل الصوت القبيح فضلًا عن أن ينام عليه.

ابتسم بخبث: كنت أستمع إلى الكلمات فقط، ومللت حتّى النّوم؛ ولكنّه كان نومًا مريحًا على أيّة حال، وخاصّةً في المرض!

وجمت كاترينا متململةً، بينما أردف: النّوم هو الحالة الوحيدة الّتي أرتاح فيها، لذا أفكّر أن أنام إلى الأبد وأرتاح.. ما رأيك؛ هل أنهي حياتي؟

- إن فعلتها، فستصير إلى الجحيم.

أجابته بحزم بينما رمقها شزرًا، فاستدركت فورًا: وأنا أيضًا..

تحوّل منزعجًا: أقول لك نومٌ وراحة، وتقولين جحيم؟!

- هذا لأنّ الرّاحة هي مصير المؤمنين الأنقياء الّذين يحبّون من حولهم ويسعون بالخير، أمّا المجرمين القتَلة والسّارقين فمصيرهم هو الظّلمة الخارجيّة..

- من الجيّد أنّك أخبرتني، سآخذ معي ضوءًا إلى الخارج!

نظر إليها نظرةً ساخرةً وعقّب: هذا بفرض أنّها موجودةٌ فعلًا!

هه انتظري لحظة؛ هل يعني هذا أنّكم تعيشون هكذا كالبهائم في القرية خوفًا من الظّلام؟!

انبرت موضّحةً: لا! المقصود أنّ الّذي خلقك أوّل مرّة سيقيمك في الجسد للعقاب الأبديّ حتّى تدفع ثمن كلّ ما اقترفته يداك؛ كلّما ظننت أنّك انتهيت، يُدينك المسيح من جديد، "من يأخذ بالسّيف، بالسّيف يُؤخذ"!

- يبدو أنّ هذه الفقرة تعجبك كثيرًا.. تذكّري أنّك ستكونين معي.. باعترافك!

خابت كاترينا وسكتت وهي تذيق أسنانها ضغط الحقد، بينما ضحك وقال: هيّا، لا يوجد أيّ قصاص.. ما دليلك على وجوده أساسًا؟

- لأنّه لن يكون (وتحشرج صوتها) العالم عادلًا ما لم تحاسب أنت وجماعتك وأمثالكم كلّكم جميعًا!!

- هه! ولم يجب أن يكون العالم عادلًا؟

قانون العالم هو : القويّ يأكل الضّعيف، العالم كلّه يمشي بهذا القانون؛ ليس البشر فقط، هل ستقام الحيوانات لعقابٍ أبديٍّ أيضًا؟؟

- إنّك لن تقول هذا لو كنتَ أنت الضّعيف!

- أجيبيني، هل ستُدان الحيوانات؟؟

- الحيوانات ليست.. ليس لها أرواح خالدةٌ كالبشر.

- إذًا، الحيوانات لن تحصل على العدل أبدًا، فلماذا يجب أن يحصل عليه البشر؟ ونخترع قصصًا لأجل ذلك!

إِنَّهَا فقط طريقتكم لكي تتخيّلوا أنّكم انتقمتم منّا؛ نحن سادتكم الأقوياء، أيّها العبيد الـ*** !

أخذ جيوڤاني يقهقه هازئًا، حتّى أجابته كاترينا بغضبٍ مكبوت:

- الحقيقة أنّي لا أعرف عن الحيوانات، ولكنّي أعرف شيئًا آخر؛ وهو أنّ روحك معذّبةٌ بالملل رغم كلّ قوّتك، "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه"؛ فها أنت ذا تفكّر بالانتحار!

سكت جيوڤاني متنهّدًا وقد خمدت ضحكته، بينما أردفت: هل يفترض بي الآن أن أضحك وأسخر منك كما تفعل؟؟

- جرّبي لتعرفي الجواب.

واسترسلت بضيق:أترى موضوع الانتحار؟ هو اعترافٌ منك بفشلك في الحياة؛ فشلت في أن تجد السّعادة، ولذا لا أحد يحسدك على حالك ولو كنت قويًّا.

وأشارت إلى قلبها : "العبرة هنا"، ونفضت يديها:" وليست هنا!! "

ففقد جيوڤاني أعصابه وصاح: كاترينا، بدأت تغضبينني!!

بعد دقيقةٍ من الأنفاس الغاضبة، أخذ جيوڤاني نفسًا تهدئةٍ طويل ثمّ نظر نحوها بحقدٍ قائلًا متشفيًا: على الأقلّ قوّتي ستسلبك السّعادة الّتي في قلبك، لتتمنّي الموت كما أتمنّاه!

ورفع أنفه آمرًا: دعي هذا الغطاء جانبًا؛ (ثمّ وبهدوءٍ شامت) كيلا تنصدمي كثيرًا بفارق الحرارة حين ستنزلين إلى المنجم.. ألبـ....

وقبل أن ينادي ألبيرتو كانت كاترينا قد انقضّت تحاول أن تغلق فم جيوڤاني بيدها وهي تبكي وتتوسّل، فأمسك بمعصميها بعنفٍ وصاح: كيف تجرؤين أيّتها الـ***؟؟

ورنّ صوت اللّطمة في الغرفة لثوانٍ، قبل أن ينبعث صوت كاترينا الضّعيف الباكي: أرجوك.. سأفعل أيّ شيء، ارحمني.. أقبّل رجليك.. ليس هذا.. إلّا هذا!

- الآن تتوسّلين!! هه، إمّا أن أقتلك وإمّا أن تنزلي!

فهمست بعجز: اقتلني؛ ففي الحالتين سأموت..

فانتفخ شامتًا: تمنّيتِ الموت بسرعة!! ألا يفترض بالرّبّ أن يمنحك السّعادة حين تحسّين به بقلبك، حتّى لو كنت ضعيفة.. (وبهدوءٍ ساخر) هذا إن لم تكن العبرة بالقوّة؟!

غرقت كاترينا بدموعها وقد دفنت وجهها بكفّيها:

- أنا كنت في طريقي لأتعلّم الدّين، والحقيقة أنّي لا أحسن إجابتك على أسئلتك الغريبة الّتي لم تكن لتخطر لي في حياتي!

فردّ منتصرًا: أعلم.. فأنت تردّدين ما قالوه لك ولا تعرفين شيئًا، أمّا أنا فلن أقرّر أن أبيع حياتي لكيانٍ يسكن في رأسي؛ يجعلني أفسّر العالم على هواه.

سأعفو عنك بشرط أن تتركي موضوع الآب هذا إلى الأبد!

- لا أريد عفوك إذًا!

تجهّم وجه جيوڤاني، ثمّ كشّر بغيظٍ وصاح: لا زلت مقتنعة أيّتها الوقحة؟!

- ومـ.. ومستعدّة لأموت لأجل ذلك أيضًا..

- حسنًا مادمت قلت! ألبيرتو! خذها إلى المنجم!

دفنت كاترينا وجهها في الفراش ترجف من الخوف، ولكنّ ألبيرتو لم يـأت، فصـرخ جيوڤاني ثانيةً: ألبيرتو، ألبيرتو! أين أنت يا ابن الـ***؟؟

وأخيرًا همس جيوڤاني: يا للغرابة.. لم يتخلّف عنّي طيلة حياته.

ودفع جيوڤاني كاترينا صائحًا: اخرجي وانظري أين هو!

انكمشت على الأرض: ألكي يأخذني؛ لاا!!

ومرّت دقائق وجيوڤاني يقلّب أفكاره على صوت نحيب كاترينا قبل أن يُفتح الباب ويدخل ألبيرتو قائلًا بعينين مكسورتين: اعذرني لتأخّري يا سيّدي، كان السّيّد ياكوبو هنا يطمئنّ على صحّتك..

- هه، أبي هنا؟! أيًّا يكن، خذ هذه إلى المنجم لتعمل كلبةً هناك!

وعلى الفور أمسك ألبيرتو بذراع كاترينا يجرّها قبل أن يتوقّف قائلًا: سيّدي، أرى حرارتها مرتفعةً جدًّا، وهي ترجف من البرد.

- وما مشكلتك في هذا؟

- الجوّ اليوم صقيع، وخاصّةً في الوادي.. حتّى أنّ الزّعيم أمر بنقل العبيد إلى الزّريبة في الأعلى؛ كيلا يهلكوا جميعًا.

- أفعل عمّي ذلك؟!! هذا يعني أنّ الأمر جادّ!

- أجل، لذا إن كنت تريد أن تموت هذه الـ* من البرد، فسأنقلها إلى هناك.**

زفر جيوڤاني ينقر بأصابعه لثوانٍ ثمّ أشاح وجهه وقال: ليكن، سنؤجّل العقاب.. خذها من هنا.

ترنّحت كاترينا تحاول أن تجاري سرعة ألبيرتو؛ وهي تسحب خطواتها نحو الزّنزانة وقد أحسّتها نعمةً من السّماء، ولكن ما إن دخلت إلى عالم القبو حتّى سمعت صوت زملائها يحتجّون:

- ألبيرتو.. انظر إلى حالنا..

- سنتكسّر من الصّقيع..

- تجمّدت قدماي!

- لو كنّا بهائم لنقلتمونا من هنا..

وقف ألبيرتو يتذمّر بأنفاسه، ثمّ ساق الجميع إلى الطّابق الأعلى حيث حبسهم في غرفةٍ فارغة، وأمر السّجّان بحراستهم بشدّة.

جلست كاترينا في زاويةٍ أكبر، بينما تكدّس الخمسة الآخرون فوق بعضهم؛ مرحّباتٍ بجورفورس بينهم ثانيةً، وطالبين للدّفء بأجساد بعضهم البعض.

رجفت كاترينا ورجفت ونالت منها الحمّى، ولكنّ الأيّام استمرّت تمضي غير عابئةٍ ببردها، بقيت تقاوم مرضها وحيدةً جاثمةً في زاويتها تحرّك أصابعها المزرقّة بشكلٍ دائريٍّ؛ وكأنّ سبحةً في يدها، وهي تردّد التّرانيم الّتي تحنّ إليها روحها.

قابعةً هناك، كانت تشاهد بعينيها الكسيرتين زملاءها يضحكون ويتمازحون نابذين إيّاها

إلى جليد الوحدة وصقيع الشّتاء، لقد أدركت بكلّ خليّةٍ في جسدها أنّ المبادئ أحيانًا تودي بحياة الإنسان، ولكن ظنّت أنّه لا بأس إن كانت تستحقّ.

- تبًّا لكم، بسببكم سأقضي ليلة عيد الميلاد مثل كلّ ليلةٍ باهتة، ليتكم تجمّدتّم في القبو وارتحت من رؤية وجوهكم الـ***..

هذا ما تمتم به السّجّان وهو يضرب الباب بعنف، أمّا الصّراصير فضحكوا وأخذوا بالغناء عليه، وتنهّدت كاترينا مستذكرةً يوم الميلاد في السّنّة الماضية، كيف كانت بريئةً وتظنّ أنّ العالم مبنيٌّ على الرّحمة والتّعاطف اللّا محدود..

تذكّرت كيف كانت تحلم وتفرح، وتحسّ أنّها أطهر أختٍ في الدّير كلّه.. والآن لن تجرؤ أن تدخل الدّير إلّا بالذّكريات، ولن يطاوعها قلبها أن ترفع عينيها نحو تمثال المسيح.. حتّى شعاع الشّمس الدّافئ على فراشها القديم؛ بات أسمى أحلامها المتلاشية..

زفرت تنفخ على أصابع قدميها؛ عساها تتحرّك، حين دخل السّجّان صائحًا: وجه الشّؤم!.. تعالي!

نظر الصّراصير نحوها بحدّة؛ بينما نهضت ببطءٍ مفجوعةً وهي تحاول أن تستعدّ للعقاب المؤجّل، صرخ عليها السّجّان لتسرع ولكنّها تعثّرت بأصابع قدميها المتجمّدين وسقطت على وجهها..

وعلى صوت غناء الصّراصير السّاخرة، زحفت نحو غرفة جيوڤاني على ركبتيها وألبيرتو يجرّها من ساعدها، وقلبها يخفق، وشفتاها الزّرقاوان صار لديهما سببٌ

جديدٌ ليرتجفا لأجله.

دفعها في الغرفة فسقطت على وجهها مغمضةً عينيها تتلو الصّلاة، وجسدها يسرق خلسةً

دفء الغرفة الّذي لم يكن يحلم به..

وأخيرًا قررت أن ترفع رأسها لتجد الغرفة فارغة، فتتفّست الصّعداء وزحفت إلى جوار المدفأة تقنع نفسها أنّها ليست في حلم، وقعدت زمنًا طويلًا تفكّ تجمّد أصابعها وهي تشهق من الألم وتتلوّى، وأخيرًا استلقت على أحد الأغطية الدّافئة مسلمةً عينيها للنّعمة الّتي اشتاقت إليها منذ أيّام؛ ألا وهي النّوم!

ومضت ساعاتٌ كما الومضة، وفجأةً من أعماق النّوم، ومن لذّة الرّاحة أحسّت بقدمٍ تدفعها من خلفها، فانتفضت من فورها واقفةً وهي لا تزال تترنّح من النّعاس لتلتقي عيناها بعينيه وهو يقول لها ببسمته السّاخرة:

- عيد ميلاد حزين! هل أُعجِبتِ بهديّتي وبكرمي؟

- (تحاول أن تفتح عينيها الحمراوين) النّوم هو أجمل هديّةٍ بإمكاني أن أحصل عليها في هذا العيد الحزين..

رسمت صليب شكرٍ وهي تفرك عينيها، ومسّدت شعرها قبل أن تقول مندفعةً:

- لكن لحظة!! كيف تحتفلون بالعيد وأنتم لا تؤمنون بالمسيح أصلًا؟؟

- هه؟! ما علاقة المسيح بهذا؟!

- إنّ العيد للاحتفال بولادته ومجيئه المبارك إلى العالم، فيه نتلو وصاياه ونستذكر ميلاده المجيد وترانيم السّماء وهكذا.

لوّح بكفّه مستصغرًا: بالنّسبة إلينا هو مجرّد سببٍ للاحتفال بشرب الدّم وعدّ الغنائم السّنويّة وهكذا..

وما إن سكت حتّى استدرك بضحكةٍ متفجّرة: آآ، ظهر أنّ هناك زوجةً للرّبّ أيضًا؟! هههه!

كيف؟! لا يشبه أحدًا، ثمّ يكون لديه زوجة وولد؟!! هههه!

وبصوتٍ متخدّج: اممم، لا، ليست زوجة.. كانت القدّيسة مريم عذراءً بعد حين.. حين جاء الرّوح القدس وجعلها تحمل دون تدخلٍ بشريٍّ...

- ياه! هذه قصّةٌ خارقةٌ جديدة! امرأةٌ تحمل دون رجل، وبعدها يدّعي الرّب أنّ هذا ابنه.. ويصدّقه الجميع.

- أيّها الأحمق!! قلت لك أنّه الرّوح القدس، ألم تسمع؟!

نظر إليها باستياءٍ لوهلةٍ قبل أن يتحوّل إلى الانتقام بالتّجريح، فصاحت: لا تبدأ بهذا الكلام السّافل.. انسَ الأمر، أرجوك!!

كرّر بصوتٍ هازئ: أرجووك.. أرجووك!! ثمّ التفت بحقد: أسأت الأدب معي، وسأجعلك تدفعين الثّمن!

وضعت يدها على كتفه والأخرى على صدرها متوسّلةً: حسنًا، أنا الّتي شتمتك؛ خذ الثّمن منّي.. قل وافعل بي ما تريد، ولكن لا تتطاول على المقدّسات.

تحوّل بعينيه دافعًا إيّاها: ألهذه الدّرجة تحبّين هذه التّرّهات الـ***؟؟

أحسّ أنّي أكلّم طفلة لا تعرف ما الفرق بين الميّت والنّائم!!

فقاطعته قائلةً بشيءٍ من الارتباك: ما رأيك أن أدلّك لك رجليك اعتذارًا كي تهدأ و...

- ...وأغيّر الموضوع؟ لا، لا تدلّكي رجلَيّ..

ساد الصّمت للحظات قبل أن يجلس جيوڤاني أمام المرآة ويلفّ ساقيه قائلًا: بل قصّي لي شعري؛ سيكون هناك حفلٌ راقصٌ طيلة اللّيل، ولذا أريد أن أزداد وسامةً وجاذبيةً كي...

- أقصُّ شعرك؟! لم يسبق لي أن قصصت شعر رجل.. ولكنّي سأحاول.

ابتسم لمّاحًا: أمِن أجل المدفأة؟

التقطت المشط بمرح: لا أُخفيك!

وبالطّبع أخذ الأمر أكثر من ساعةٍ من الجهد حتّى انتهت القَصّة بشكلٍ لا بأس به، فنهض وهو يقول: قبيحةٌ وفاشلةٌ أنت! لكن لا بأس.

زفرت: هل يمرض لسانك إن فوّت فرصة شتيمة مثلًا؟

- أحيانًا يؤلمني، أجل.

تبادل الاثنان نظرةً معبّرة، قبل أن يقول بنبرةٍ لطيفة: والآن يا كاتي، ساعديني في التّدرّب على الرّقص قبل الحفل.

فانكمشت بضيق: لم أرقص من قبل حتّى أساعدك على التّدرّب!

ردّ بخبثٍ منتزعًا يدها: لا بأس، سأعلّمك مثلما علّمتك كلّ ما علّمتك من قبل.

احمرّ وجهها من الخزي وتمتمت: تبًّا لك من معلّم..

أطلق ضحكةً ساديّةً وقضى ساعةً أخرى قبل أن يمسك مقبض الباب قائلًا: بما أنك كنت كلبةً مطيعة، فسأتفضّل عليك وأسمح لك بالبقاء جوار المدفأة.

استمعت إلى صوت قفل الباب بغيظٍ وهي تهمس: هديّةٌ وقصٌّ ورقص.. من الصّعب عليه أن يعترف بحقيقة مشاعره، ومن الصّعب عليّ أن أتحمّل أنّ مجرمًا نذلًا يحمل هذه المشاعر القذرة تجاهي..

أين كنت في العيد الماضي وأين صرت.. يا ربّ رحمتك!

وجلست تندب حظّها على الأرض بجوار المدفأة، وهي تهمس:

- أيّها الرّب، هل أنت فعلًا راضٍ عمّا يحلّ بي؟ أهذا عقابٌ أم اختبار؟؟

على الأقلّ دعني أعرف ما هي الحكمة من ذلك؛ حتّى يزداد قلبي إيمانًا..

صباح اليوم التّالي، عاد جيوڤاني إلى غرفته مرهقًا بعد ليلةٍ طويلة، وأمر كاترينا أن تخرج، لكنّها تجرّأت أن تسأله: هل يمكنني أن آخذ الغطاء معي؟ فالجوّ باردٌ جدًّا هناك.

أجاب وهو يتثاءب: سأعطيك فرصة أن تستسمحيني.

انحنت كاترينا وقبّلت يديه ومدحته مجتهدةً لتروي غروره، وبعد جهدٍ وافق وهو يخلد إلى النّوم، فأخذت كاترينا جائزتها الثّمينة وانطلقت مع ألبيرتو تحمل في قلبها غصّة الذّلّة وفرحة الغنيمة، وجلست في زاويتها تبحث عن الدّفء في

غطائها الجديد، وهي تتجاهل أعين الصّراصير الحاقدة.

لم يطل الأمر ليومين قبل أن تعود كاترينا إلى تمريض جيوڤاني الّذي كان طريح الفراش لا لسببٍ سوى اكتئابه ورغبته المتزايدة في النّوم إلى الأبد، أدركت كاترينا شدّة الاكتئاب وهي تلحظ بريق عينيه الّذي خبا، وضحكته السّاخرة الّتي بردت.. وجهٌ فارغٌ من الأمل والمشاعر، ومرضٌ لا داء فيه!

كانت السّكين في يده وهو يحاول كلّ فترةٍ أن يغرزها في عنقه، ثمّ يتراجع.. حتّى أخذ قراره أخيرًا؛ فأعطى السّكّين لكاترينا قائلًا بصوتٍ خافت: عندما تغفو عيناي، اغرزيها في عنقي بكلّ قوّتك.

رجفت يد كاترينا وهي تمسك السّكّين وهمست: وبعدها لن يعرفوا أنّي كنت أنفّذ أمرك وسيقتلونني!

- لذا اقتلي نفسك بعدي.

- ولكنّي لا أريد أن أموت يا جيوڤاني!

- أنا قررت بدلًا عنك.. لا معنى لحياتك أصلًا، ها أنا قد وصلتُ إلى قمّة الحياة وحصلت على كلّ شيء، ولم أجد شيئًا يستحقّ أن يعيش أحدٌ لأجله أبدًا.

سحب نفسه وقال: ثقي بي؛ لا يوجد ما يُبكى عليه، تعالي نرتاح سويّةً يا كاتي.

- هذا لأنّك لم تجرّب الإيمان أبدًا يا جيوڤاني؛ الإيمان يمنحك الهدف ويجعلك تدرك سبب أنفاسك!

- آه، لا زلت على غبائك القديم...

وقبل أن يكمل كلامه، فُتح الباب بسرعةٍ ودخل رجلٌ أربعينيٌّ نحيلٌ، له شعرٌ أسود وعينان بنيّتان، كان وجهه مشوّهًا وجلده مجعّدًا، ومع ذلك استطاعت كاترينا أن تلاحظ أنّ ملامحه تلتقي مع ملامح جيوڤاني في عدّة أوجه شبه.. وصاح بصوتٍ ناعمٍ نسبيًّا: جيوڤاني، ما الّذي تفعله يا بنيّ؟ كيف لشابٍّ مثلك أن يفكّر بالانتحار؟ أنت لم تجرّب الحياة بعد!

جلّس جيوڤاني جسمه وزفر: ما هو الّذي لم أجرّبه؟؟ لديّ المال والسّلطة والرّجال والنّساء والحيوانات والطّعام والشّراب وكلّ شيء! لا يوجد شيءٌ أنتظره سوى العذاب.. كلّ يوم مثل سابقه.

- ولكنّك لم تجرّب.. لم تجرّب الأبوّة.. يجب أن تجرّبها؛ أنت النّسل الأخير من عائلة ويلياموني.

- ولِمَ يجب أن أجلب شخصًا آخر ليعيش هذه الحياة الفارغة تحت وطأة جوناثا ويقوم

بقتل نفسه أخيرًا؟! فلّا يعشْ منذ البداية!

- جيوڤاني!!!

تنحّت كاترينا خوفًا بينما كان الأب والابن يتبادلان النّظرات الثّاقبة، وأخيرًا أفصح ياكوبو بصوتٍ حازم: جيوڤاني، ستعود لسلك السّلب من الغد.

تهلّل وجه جيوڤاني وطفا الشرّ على وجهه: وأخيرًا، قرابة السّنة وأنا محبوس هنا كالحيوانات!، فيما اقترب أبوه بخطواتٍ صارمة: بالمقابل، من غير المسموح لك أن تقيم علاقةً إلّا مع امرأةٍ واحدة، وهي الّتي ستكون زوجتك!! أمّا فتياتك، فسننقلهنّ للخدمة ولتنسَ أمرهنّ نهائيًّا.

انسحب البِشْر من وجه جيوڤاني وعضّ على أسنانه: " ولماذا هذا الآن؟! أشتهي أن أعرف ما الّذي فعلتُه" وأدار وجهه نحو الجدار في محاولةٍ لإخفاء حنقه، بينما اقترب ياكوبو من كاترينا واختطف السّكّين من يدها، ثمّ التفت قائلًا: إن لم تكن هذه المرأة هي الّتي ستختارها، فيجب أن تخرج من غرفتك الآن!

- لتخرج..

بهذا أجاب جيوڤاني وصوت أسنانه المصطكّة واضح، فنظرت إليه ثمّ مضت، وعادت إلى زاويتها باهتة الوجه شاردة الذّهن، وحين علا غناء الصّراصير أجابتهم بألم: دعكم من الضّحك، ولنستمتع بهذه الغرفة اليوم.. ربّما نبيت في الوادي اللّيلة.

وأجهشت بالبكاء، فتبادل الجميع النّظرات قبل أن تنفجر النّساء بالضّحك، ولكنّ جورفورس قاطعهم: ما الّذي حدث؟ أخبريني؟

فروت كاترينا لهم ما حدث، وساد الصّمت بين الجميع، لقد كانوا جميعًا ينتظرون لحظة

خروجهم من السّجن بكلّ أمل، ولكن حين حقّت الحقيقة أوشكن على البكاء، لقد أصيب الجميع بخيبةٍ موجعة. وأخيرًا خرق صوتُ جورفورس الصّمت ليقول بوجهٍ دراميّ: كاترينا.. أنا أعتذر عمّا بدر منّي طيلة الفترة السّابقة.. أرجوك سامحيني!

فوجئت كاترينا وصدمت ولم تدري ما تقول حتّى عبّرت أخيرًا: أنت تعتذر؟ لم أعهد منك لطفًا يومًا!!

- الحياة فرضت عليّ ذلك.. كوني كريمةً ولا تنتقمي منّي.. حسنًا؟

- من قال أنّي سانتقم منك؟ أو حتّى كيف سأفعل؟؟؛ أنا نفسي لا أملك أمر نفسي!

- كم أنت متواضعة!!

صرخت إيزابيلا: وكم أنتَ خانع!! مهما حدث لا للاعتذار أبدًا!

التفت جورفورس بقوّة: سيأتي قريبًا اليوم الّذي سيجبرك على إدراك أنّ الغرور لن ينفعك يا إيزابيلا!

أشارت هازئة: انظروا من يتكلّم!!

في اليوم التّالي، أخذ ألبيرتو كاترينا من طريقٍ جديد، كانت خطوات كاترينا الواجفة تمثّل مخاوفها وإدراكها أنّها ماضيةٌ نحو مصيرها المجهول، ودخلت الغرفة الجديدة حيث كان جيوڤاني جالسًا على كرسيٍّ ومستندًا بعضده على المنضدة مغضبًا، بينما كان أبوه يذرع الغرفة ذهابًا وإيّابًا عاقدًا يديه من الخلف، وحين رآها، واقترب قائلًا: ما اسمك؟

- كاترينا.

- واسم عائلتك؟

- اسمهم غير معروف.

- غير معروف؟! امم، تخيّلي أنّ ابني اختارك أنت من بين كلّ الفتيات الفاتنات، لتكوني زوجته، لا أعرف سبب هذا الاختيار الغريب، ولكن ليس هذا شأني..

ألقى ياكوبو نظرة استخفافٍ نحو جيوڤاني الّذي كان يحدّق في الجدار، ثمّ عاد ليقول: الزّواج مبنيٌّ على الرّضا والثّقة، ولا ينفع فيه الإجبار، لذا ها أنا أسألك؛ هل توافقين أن تكوني زوجةً مخلصةً عفيفة، وتقومي على إرضاء زوجك وتنشئة أطفالك وتبذلي الغالي والنّفيس لأجل ذلك؟

فالتفت جيوڤاني ليعقّب على كلام أبيه ساخرًا: كما ترين؛ أنت حرّة أن تتعهّدي بذلك أو تذهبي إلى الوادي.. لا يوجد أيّ إجبارٍ في ذلك؛ لك الحرّيّة الكاملة!!

ابتسم ياكوبو للمفارقة وقال بنصف ضحكة: إذًا ما قرارك؟؟

أمّا كاترينا فكانت صامتةً من الخارج ثائرةً من الدّاخل؛ لقد فكّرت بهذا القرار طيلة اللّيل، ومع ذلك لا زالت لا تدري كيف تجيب، هل تتعهّد أمام الرّبّ بالالتزام بعدوّ الرّبّ ورعايته طيلة حياتها، أم توافق على الموت تحت السّياط والنّوم الجماعيّ في قطعانٍ بشريّة؛ فقدوا كلّ حسٍّ بالإنسانيّة ونسوا كلّ مبدأ..

وأخيرًا أمرت شفتاها الباهتتين بأن يلفظا ذاك القرار الصّعب: أتعهّد بذلك..

- قولي؛ بم تتعهّدين؟

- أتعهّد أن أكون زوجةً صالحةً مطيعة، وأن أرعى الأبناء بكلّ محبّةٍ وتفان..

التفت جيوڤاني قائلًا بثقة: وأنا أتعهّد أن أكون زوجًا منفلتًا وألّا أفعل إلّا ما يحلو لي، وسأحاسبك بقسوةٍ إن قصّرتِ في ما تعهّدت لي به الآن..

صاح ياكوبو: جيوڤاني!! ليس هذا ما اتّفقنا عليه!

- هه، رغم كلّ شيء إلّا أنّي زوجٌ صادق، ولا أستطيع أن أكذب وأقول غير الحقيقة!!

انفجر جيوڤاني ضاحكًا بينما هزّ ياكوبو رأسه وخرج من الغرفة مشيرًا: هذه غرفتك منذ الآن.. أصلحي مظهرك وارتدي شيئًا لائقًا.. لقد صرت من عائلة ويلياموني الآن.. يجب أن تحترمي اسمك الجديد؛ كاترينا ويلياموني.

فهمست بتحسّر: يا لهذا العرس!

أجاب جيوڤاني ببسمته المعتادة:

- عن أيّ عرسٍ تتكلّمين؟ كم مضى لك تعيشين عندي؟

- سبعة أشهر.

- حقًّا؟! لم أحسّ بذلك..

ضحك بخفّة بينما عقّبت: أمّا أنا فقد أحسست كأشدّ ما يُحَسّ..

- ههه، اعلمي أنّه لن تختلف علاقتي بك عمّا مضى، الحقيقة أنّي اخترتك شفقةً عليك، ليس إلّا ، شفقة القويّ على الضّعيف!

فانفلت لسانها ليردّ: ليس عيبًا أن تعترف أنّك تحبّني!

سكت جيوڤاني متلكّئًا ثمّ قال: لا تعوّلي على ذلك، أيّتها البلهاء.. عندما أجد الأفضل فسأنتقل إليها دون تفكير!

أطرقت كاترينا قبل أن يردف جيوڤاني: في المساء سنحضر عشاءً جماعيًّا وسنشرب نخب زواجنا مع الجميع.

نهض جيوڤاني يتبختر، وخرج تاركًا كاترينا تبكي ما باعته، باعت حياتها لشخصٍ لا يكترث بألمها ويجاهر بأنّه سيبيعها عند أقرب فرصة.. كان قرارًا من شأنه أن يرفعها إلى الطّبقة العُليا، أو يرميها إلى الطّبقة السّفلى!

وعندما اقترب موعد العشاء، تمالكت نفسها ونهضت فاغتسلت، ونظرت نحو المرآة بغيظٍ متذكّرةً قول حميها: "تخيّلي أنّ ابني اختارك أنت من بين كلّ الفتيات الفاتنات، لتكوني زوجته، لا أعرف سبب هذا الاختيار الغريب.."

وأخذت تفعل الشّيء الّذي لم تفعله منذ أشهر، فسرّحت شعرها وحسّنت منظرها، وارتدت فستانًا محترمًا، وأخذت تغمز المرآة مشتاقةً لنفسها حين دخل جيوڤاني قائلًا: هل أنت جا..؟

لم تكتمل جملته قبل أن يقترب منها متفحّصًا وقال: يظهر أنّ الرّجل يتزوّج نصف المرأة ونصف ثوبها.. وأنت الّتي كنت ترتدين ذلك الثّوب الأسود السّخيف!

- كان يفترض به ألّا يظهرني جميلة؛ حتّى لا أقع بيد أمثالك.

- حقًّا؟!.. زيديني من هذا فهو يزيد عندي نشوة سحقك.. هههههه!

وبينما رمقته كاترينا بنظرةٍ حادّةٍ، أردف: لكن أتدرين؛ ينقصك شيءٌ ما.. امم..نعم أعرف..

وقف جيوڤاني عند الباب ونادى: ألبيرتو!.. أحضر لي مجوهراتٍ نسائيّةً من الخزنة.

وبعد دقيقة، أحضر ألبيرتو صندوقًا مليئًا بمختلف أنواع المجوهرات الثّمينة الكبيرة والصّغيرة، وزاغت عينا كاترينا بين ذلك البريق، ولكن عكّر ذلك تذكّرها أنّ كلّ قطعةٍ من هؤلاء هي مال ظلمٍ انتزعت من جسد صاحبتها..

وأخيرًا قال جيوڤاني: إذًا أيّ واحد؟ لم يسبق لي أن اخترت لامرأة.

- طبعًا؛ فأنت تقضي عمرك في الأذى.. يبدو هذا جيّدًا.

رفع قرط لؤلؤٍ يحدّق فيه: هذا؟! إنّه صغيرٌ جدًّا؛ بل الأصغر في الصّندوق كلّه!

لعبت بأصابعها وقالت: يبدو مناسبًا لوجهي.. في نظري.

- حسنًا.. جرّبيه.. كبيرٌ أو صغير، المهمّ عندي أن تبدي فاتنة.

أخذته كاترينا وهي تهمس لنفسها: على الأقلّ ضرب المسيح مثالًا باللآلئ الحسنة!

على الأقلّ لن يفهموا أنّي أرمز لملكوت السّماوات به!

وبالفعل وضعت كاترينا طقم اللّؤلؤ الّذي اعتقدت أنّه الأقلّ إثمًا بينهم لصغر حجمه، ثمّ انتظرت رأي جيوڤاني مستعدّةً لانتقاده، لكنّه قال ساخرًا:

- لقد تحسّنت نظرتي إلى ذوقي أنا الآخر!

ولفّ ساعده على ساعدها يمشي بها: هيّا سنتأخّر.

وهناك، ازدحمت منضدة العشاء بسادات المجرمين، وفي المقدّمة ولأوّل مرّة جلست كاترينا بجوار جيوڤاني كزوجةٍ له، وتعلّقت بها الأنظار لتفحصها ممحّصةً ذوق ويلياموني الصّغير، وما هي إلّا دقائق حتّى مال ياكوبو نحو جيوڤاني قائلًا: بعد أن أصلحتْ مظهرها وشعرها، ظهر أنّه لا بأس بذوقك، وخاصّةً مع تلك الأقراط اللّؤلؤيّة!

ابتسم جيوڤاني بفخرٍ وهو ينظر نحو كاترينا الّتي كانت تتلوّى ذائبةً في واقع أنّها صارت فردًا مهمًّا في عصابة المجرمين، وكم دمى قلبها لفكرة أنّها تحوّلت من راهبةٍ إلى رأس عصابة الفاحشة..

بعد دقائق، دخل زعيم العصابة ليتصدّر على منضدة العشاء، لقد كان كلّ شيءٍ يوحي لكاترينا أنّها ليست واقعةً في مجرّد عصابةٍ لصوصٍ جبليّة؛ بل بدا الأمر أكثر تنظيمًا واتّساعًا، فقد كانت الأحاديث حولها تحكي عن وقائع في شرق البلاد وغربها، وأحسّت كأنّ الأمر اجتماع رؤساء عصابات، أو كهذا..

وسرعان ما لفتت كاترينا نظرَ الزّعيم المخيف، فرماها بنظرات شزرٍ ثاقبةٍ تتفحّصها من أعلاها إلى أخمص قدميها، أمّا عينا كاترينا فقد زاغتا عندما التقتا بتلك العينين الوحشيّتين المركّبتين على وجه رجلٍ خمسينيٍّ؛ غزا الشّيب رأسه ولحيته محاولًا ببياضه أن يخفّف من سواد ذلك الوجه المقيت دونما تأثير!

وبدأت حفلة الطّعام، والخدم يدورون مسرعين في المكان، وبدأ الجميع الأكل من حولها، فلم تجد بدًّا من أن تمسك تلك الشّوكة حينما سمعت أحدهم ينادي جيوڤاني: يا خسارة؛ كنت أريدك زوجًا لابنتي!

فأطلق جيوڤاني ضحكةً قصيرةً وقال: الأوان لا يفوت عندي!

أحسّت كاترينا بالغصّة وتسمّرت يدها في مكانها، وحار قلبها بين اعتبار جيوڤاني لها أم مجرّد شريكٍ اضطراريّ، وحين لم تجد منه انتباهًا زفرت ووضعت الشّوكة في فمها وهي تكاد تكسرها بأسنانها من الضّيق.

كان جيوڤاني يأكل بنهمٍ مهتمًّا بالأحاديث، بينما أكلت كاترينا عدّة لقمٍ بلا شهيّة؛ لم يرقها الجوّ كلّه وخاصّةً بتنوّع أحاديث الجرائم الّتي يضجّ بها الحاضرون مع غيابٍ تامٍّ للإنسانيّة والضّمير، كما أثار صوت الأكل المبتذل والطّريقة الهمجيّة الّتي يأكلون بها تقزّزها؛ كيف لا وهي تجالس أراذل النّاس؟!

والأسوأ من هذا كلّه أنّها كانت تلحظ الزّعيم يراقب عقدها اللّؤلؤيّ ويتابعه بنظراتٍ شائكةٍ أثناء كلامه وصمته، فنالها القلق وازدادت ارتباكًا، فحبست ناظريها على صحنها حتّى نهاية المأدبة كي تهرب منه.

وحين حان وقت الشّرب، توسّط جيوڤاني الرّجال ممسكًا بيد كاترينا ونادى بشرب نخب زواجهما، وحيّاهما الجميع، بينما اختنقت العبرة في حلق كاترينا وهي تفتقد مراسيم الزّواج في الكنيسة، وتنادي الطّهارة من وراء حجب.

ومع ذلك، تماسكت وعملت المطلوب رغم ما تحسّه من أنّ أعين الحاضرين والحاضرات تستخفّ بها وبوجهها المحمرّ من الخجل.. وبينما هي في حالها تناهى إلى سمعها همسةٌ نسائيّة:

- مثل قطعة الخشب.. ما الّذي أعجبه بها؟

فضغطت بأصابعها على خاتم اللّؤلؤ تحاول أن تفرغ فرط خيبتها، وهي تلتهب من ثقل الثّوب واللّؤلؤ على ضميرها، وكادت تنفجر لولا أنّ جيوڤاني شدّها فجأةً ليأخذها في رقصة العرس، وهناك أحسّت ضعفها في عينيه القويّتين، وبسمته الّتي لم تعبأ بالانتقادات، فأمرت محكمة المرأة عندها بضرورة أن تغالب ضعفها لتستحوذ عليه قبل أن يسرق منها، أو يتخلّص منها بنفسه.

وبعد أن أحسّت بالخطر، بدأت تقارن نفسها بمن حولها، فلاحظت أنّ تصرّفاتها

منقبضةٌ بشكلٍ فاضحٍ مقارنةً بالنّساء الفاجرات هناك، تمنّت لو تجد امرأةً واحدةً تتصرّف كالنّساء المحترمات اللّواتي عرفتهنّ سابقًا لتكون معها، لكنّ المكان كلّه كان يعجّ باللّغط والرّفث بلا حدودٍ ولا ضوابط، والجميع يضحك بلا استحياء، وهي تذوب من الضّيق والحياء.

أمّا صورة ذلك الوجه المرعب على ذَينِكَ المنكبين العريضين؛ فهي الّتي كانت تتردّد في ذهنها وهي تتّجه مع جيوڤاني نحو الغرفة الرّئيسيّة في اليوم التّالي، وهي تمسّد أعصابها لتقابل الزّعيم بشكلٍ شخصيّ..

بالكاد هربت من عينيه ليلة البارحة والآن سيكلّمها وجهًا لوجه ويحكم عليها، ومن يدري قد يرفض أمر زواجهما بإشارةٍ منه ويعيدها إلى هاوية العبوديّة وهو ينكش سنّه.

وفعلًا وبمجرّد أن التقت الأعين سألها بلهجةٍ متسلّطة: ما اسمك؟

حيّته بحركةٍ من فستانها: كاترينا، يا عم.

- كاترينا ماذا؟

- كاترينا ويلياموني.

- ليس بعد.. أسألك عن عائلة أبيك؟

- إنّه غير معروف.

هزّ الزعيم كتفيه وهمس مادًّا يده: جيوڤاني!

ودون أدنى تفكيرٍ، انطلق جيوڤاني يقبّل يد عمّه الّذي قبض شعر ناصيته بأظافره الحادّة، ثمّ نظر نحو كاترينا مستعرضًا على صوت طنين أساور الذّهب الّتي ملأت ساعده، وبعدها أطلق جيوڤاني سائلًا إيّاها بثقة: ما اسمها؟

حُبست أنفاس كاترينا وقد تلقّت الرّسالة، وأجابت بصوتٍ خافت: بريستين.

- بريستين؟! أليس هذا اسم أسقف كنيسة مارونا؟

- بلى.

تململ موبّخًا: أيجب أن أسألك؟!! قولي كلّ شيء.

فتردّدت وارتبكت قائلةً: إنّه أبي، وقد نشأتُ في الدّير تحت رعايته وهو وأمّي، ولا أعرف من العالم غير صلواتي.

رمق الزّعيم جيوڤاني باشمئزازٍ وقال: أتركت بنات العالم كلّهنّ، واخترت راهبةً ابنة أسقفٍ أيّها الأبله؟؟

ارتدّ رأس جيوڤاني يحاول أن يفهم ثمّ قال: وما هو الأسقف في الأساس؟

تحوّل وجه الزّعيم وانفجر ضاحكًا حتّى قال: هذا أغبى جوابٍ مفاجئٍ سمعته في حياتي! تتزوّج راهبة ولا تعرف ما هو الأسقف؟!

وبلهجة تخمين: أتوقّع شيئًا ما عن ذاك الرّبّ خاصّتهم..

فابتسم الزّعيم بزهوٍّ وقال: الأسقف هو الرّجل الّذي يتزعّم جلسات الكنيسة، ويهزأ بالنّاس ليدفعوا نقودًا أكثر؛ على أساس أنّه جعل الرّبّ المزعوم يعفو عنهم ولا يطردهم من الفردوس بعدما كلّ ما ارتكبوه من خطايا.

أجابت كاترينا بتحفّظ مغالبةً رعبها: إنّك تهزأ بجيوڤاني بتعريفٍ كهذا؛ يعمي أكثر ممّا يوضّح.

رفع كتفيه وشدّ حاجبيه متهكّمًا: آها، أنيرينا إذاً أيتها الأخت الفاضلة، عرّفي لنا رتبة أبيك.

تلكّأت كاترينا بعد سخريّته، ثمّ شحذت صوتها: الأسقف هو الراعي الذي يحمل عصا الخدمة، يعلّمنا أسرار الكنيسة من معموديّةٍ وتوبة، ويستمع لاعترافاتنا ليحرّر ضمائرنا من ثقل الخطيّة بمحبة المخلّص، ويحثّنا على الصّدقة لأنّ من يرحم الفقير يقرض الرّبّ.

سكتت كاترينا وقد استغربت أنّهم استمعوا إليها أساسًا، بينما توجّه الزّعيم نحو جيوڤاني مبتسمًا بسخريّة: ماذا فهمت ممّا قالته يا جيوڤاني؟ عرّفه لنا أنت الآن.

حكّ رأسه بشدّةٍ ليسرع بتفسير وربط ما سمع: فهمت؟.. امم.. حسنًا.. الأسقف هو زعيم جماعة الكنيسة الّذي يحسن، بطقوسٍ

لست أعلمها، أن يقنع النّاس أنّ هناك ملكًا يدعى الرّبّ؛ يجب أن يتبعه النّاس لأنّه هو الّذي خلقهم..

امم، وهذا الملك يحبّ أن يكون النّاس كريمين على الفقراء، ولذا يقوم النّاس بدفع نقودهم للكنيسة، بينما الأمر كلّه ترّهات من وحي طمعه..

والتفت نحو كاترينا بسرعة: على هذه الحال أنت ابنة زعيم عصابةٍ أيضًا!

فعلّق الزّعيم بلهجة إعجاب: أميرٌ تزوّج أميرةً بكامل سخط الرّبّ!

بهتت كاترينا من تعليق الزّعيم الهازئ، بينما استفسر جيوڤاني ينظر إلى الزّعيم:

- لم أتوقّع أنّ أمر الرّبّ الّذي سمعت عنه بمحض الصّدفة معروفٌ هكذا لدى الجميع!

هزّ الزّعيم رأسه: أيّها الغبيّ.. ألم تلحظ أنّنا نذكره في الشّتائم؟؟

تراجع جيوڤاني خجلًا: ماذا؟.. آه، صحيح.. لم يخطر لي أنّ هذه كلمةٌ منفصلة، أو أنّ لها هذا المعنى!

كبت الزّعيم ضحكته وقال لكاترينا: أليس الموت في المنجم أهون من العيش تحت جناح هذا الكافر؟؟

وهدّدها بوضوح: لا يزال لديك الخيار، أمّا إن قررت أن تصيري منّا، فسأبشُر بَشَرتك بالمناشير إن سمعت شيئًا عن مسيحك ثانية.

أطرقت كاترينا وفي ذهنها صور التّعذيب في المنجم، وهمست روحها: أيّها الآب، لا أجد معونة السّماء في اختبارٍ مريعٍ كهذا!

لا! أعلم أنّه لا يمكنني أن أدفع بنفسي إلى عمل السّخرة، وصوت السّياط..

صوتها سيصير سوطًا على جلدي ليلًا نهارًا وبلا أدنى رحمةٍ أو شفقة.. وماذا سيحدث لي في اللّيل في ذلك الكوخ النتن.. لاااا!

وضعت قبضتها على صدرها: إن كان الآب رحيمًا كما يقولون فلن يرضى أن أتعذّب.. لو علمت أمّي لسامحتني وما رضيت لي العذاب، لو كان المسيح هنا لرحمني..

وما استيقظت إلّا على الصّوت الأجشّ: كاترينا، أن تصيري من 'آل ويلياموني' يعني أن تعدّي الكنيسة ماضيًا لا رجعة إليه.. لأكلّمك بألفاظك؛ يجب أن تكفري بماضيكِ، وتجحدي نذوركِ أمامنا الآن، وتلعني تلك الكنيسة التي آوتك!

شخصت كاترينا ببصرها وقد جمدت مقلتاها، وتحرّكت شفتاها، لم تنصّت أبدًا إلى ما قاله لسانها، ولكنّها عرفت أنّها جحدت الإيمان عندما رأت وجه الزّعيم راضيًا وهو يجيب ياكوبو: لا بأس بها حاليًّا..

رفعت كاترين رأسها عن النّافذة بعد أن لم يعجبها في قصتها تلك أيّ عذر، ووقفت لا تبصر بعينيها وقد خوت روحها، ارتمت على الفراش وهي لا تكاد تصدّق أيّ إثمٍ عظيمٍ ارتكبت لتوّها، تذكّرت قصص القدّيسين والقدّيسات.. كيف استطاع أولئك أن يوحّدوا كلمتهم في السّرّاء والضرّاء؟؟ كيف صمدوا أمام الطّغاة ليذكّرهم التّاريخ بعد قرونٍ وعقود؟؟

همست وهي تعضّ على أسنانها: نعمةٌ أنّ والديّ لن يعلما بأمري..

الفصل الثّالث

وداع الماضي

داهمهم صوتٌ آتٍ من بعيد: يا أهل القرية، يا أهل الدّير.. سطا اللّصوص على الكنيسة.. هناك عشرة على الأقلّ!!

تحوّل وجه الأب إلى حمرةٍ قانية، قبض على شعر ابنته رافعًا عينيها نحو عينيه صائحًا

بكلّ انفعالٍ وغيظ: أكانت خدعة؟؟ تكلّمي يا كاترينا، تكلّمي!!

تحرّكت شفتا كاترينا الباهتة أخيرًا لتهمس: وكيف ظننتم أنّهم أطلقوني بهذه البساطة؟!!

زعقت الأمّ، وأمسكت بثياب كاترينا تهزّها وتقول ببكاءٍ يقطّع القلب: كاترينا، لا أصدّق..لا.. قولي أنّك لم تتفقي معهم.. صحيح؟ قولي أنّ هذا صحيح.. قولي.. قولي!!

أرادت كاترينا أن تجيب تلك الملامح المحبّة الحنونة، ولكن غصّت الكلمات في حلقها وهي تحاول أن تنسجها ممّا حدث منذ الصّباح حين كانت تتقلّب على سريرها، تحاول لملمة ما بقي منها بعد تلك الكارثة الرّوحيّة الّتي صعقتها، تارّةً تعضّ على شفتها حتّى تدميها وتارّةً على أصابعها، وهي تتلوّى من ضيق الصّدر وتكاد تجنّ، لكنّ جيوڤاني قطع عليها الحال عندما فتح بابها فجأةً: كاتي، تعالي سنخرج في نزهة.

جفلت وانتفضت جالسة تنظر إليه وتمسّد شعرها: نزهة؟!

غمزها: ولم لا نتنزّه؟

تصنّعت مرحها وهي تنهض: لا سبب لذلك.. سنتنزّه طبعًا.

وحين أغلق الباب همست لروحها، وهي تستعدّ للخروج: على الأقلّ فرصةٌ كي أشغل تفكيري..

ولأوّل مرّة منذ أشهرٍ معتمةٍ طويلة، خرجت كاترينا من ذلك البيت المشؤوم، خطت خطوات حريّةٍ كادت تنساها على الثّلج النّديّ وهي تغطّي عينيها من وهج الضّوء الّذي نسيته، واستدارت لتنظر خلفها لتدرك لأوّل مرة طبيعة هذا البناء الّذي كانت محبوسةً بين جدرانه كلّ تلك الأشهر الطّويلة..

كان بناءً ضخمًا من طابقين مبنيٌّ تقريبًا على حرف وادٍ جبليٍّ كبير، وحوله مساحةٌ واسعةٌ يتوزّع عليها بيوتٌ عديدةٌ وبعض الإسطبلات والأكواخ، وحيث ما تلقي نظرها كانت ترى رجالًا من العصابة هنا وهناك، بعضهم يتسامرون وبعضهم يتدرّبون، وآخرون يقودون جماعةً من العبيد للقيام بمختلف المهامّ.

لكن قبل أن تشبع عيناها من التّعرّف على محيطها، كان جيوڤاني قد رفعها على فرسه البنيّة، وحين أدركت أين هي، تملّكها الذّعر وسارعت تتشبّث بعُرف الحصان الّذي ردّ بحركةٍ قويّةٍ من رأسه، فزعقت وقد فقدت توازنها وانتظرت لحظة الارتطام بالأرض حين شعرت بيدي جيوڤاني تثبّتانها وصوته يضحك مستهجنًا: ما بك؟ ألم تركبي فرسًا من قبل؟؟

صاحت: لا!! هذا مخيفٌ جدًّا!!

أطلق ضحكةً وهو يقفز خلفها؛ ولحظتها ماج الحصان وزعقت ثالثةً وقد عانقت رأسها منكمشةً على نفسها، واستطاع جيوڤاني أخيرًا تجاوزها ليلتقط اللّجام، ورفع رأسها بأنامله قائلًا بنظراتٍ ساخرة: هيّا، لن تقعي الآن وأنت بين يديّ!

رفعت كاترينا وجهها المحمرّ ونظرت إليه بخجلٍ خالطه الخوف، ففاجأها بقبلةٍ طبعها على خدّها، ونغز الحصان لينطلق ويبدأ هواء الجبل البارد يداعب وجههما، متلاعبًا بشعرهما المتماوج مع النّسمات..

لكنّها لم تستمتع بلحظتها وشعورها الأوّل يداهم قلبها؛ يوم أجبرها بجلافةٍ على ركوب الحصان على بطنها قهرًا، وقارنته بجلوسها الآن بين ساعديه بهدوءٍ كزوجةٍ محترمةٍ خرجت لتقضي نزهةً مشروعةً مع زوجها، ويا له من زواج!

حاولت أن تمتّع ناظريها بجمال الطّبيعة الّتي اشتاقت لرؤيتها، وفكرها حيرانٌ كيف

سينسى كلّ ما مرّت به من مرارةٍ لتحاول أن تقضي وقتًا حلوًا معه..

أمّا هو فقد لمحت في ملامحه جدّيّةً على غير العادة، ولكنّها كسرت الصّمت: يبدو أنّي أحظى بلقب المرأة الوحيدة في العائلة.

- لا، ألم تري ابنة عمّي؟! ذات الفستان البنيّ القصير الـ....

- آه، هذه ابنة عمّك.. يا لغبائي؛ ظننتها أحد فتيات عمّك!

- الاثنتين.

- عفوًا؟!

- إنّها الاثنين معًا؛ ابنته وفتاته.

شهقت كاترينا واضعةً يديها على فمها: اايييه..هذا.. هذا مقزّز!

- ما هو المقزّز في الأمر؟

استغربت واستنكرت: كيف يجرؤ أن يعمل شيئًا شنيعًا كهذا؟؟!

لكنّه رمقها باستخفاف: ولم لا مثلًا؟ أليس هو الّذي ربّاها وهو الأحقّ بها؟!

ما هو الغريب؟ لم أفهم.

شدهت كاترينا من جوابه وتوقّفت الكلمات في حلقها، فعقّب مستفهمًا: أهذا شيءٌ له علاقة بالرّبّ الّذي كنت تشتمينه أمامنا لتوّك؟؟

وبشكلٍ صادمٍ أدركت كاترينا حجم الفراغ الهائل الّذي يخلفه غياب الرّبّ في حياة الإنسان، فابتلعت ريقها لتقول بصوتٍ خفيضٍ متلكّئ: وأنتم هكذا تعيشون بلا قوانين مطلقًا؟ أيّ شيء يجوز فعله؟

- عمّي هو الّذي يضع القوانين هنا؛ مثلما يفعل أبوك في الكنيسة، ولذا عليك أن تعي أنّ

قوانينا هي ما تهمّك الآن.

أطرقت كاترينا بخزيٍ، ثمّ سألت بريقٍ جاف: ها وقد عرّفتني على الرّجل المسيطر، فمن هي المسيطرة؟ لم أر له زوجة.

أخذ نفسًا وقال: عمّي لا يؤمن بالزّواج.

ارتدّت ترمش بعينيها: لا يؤمن بالزّواج؟! لكنّك تزوّجت للتوّ، أليس هو من يضع القوانين؟

- لا، أقول هو لا يؤمن، وليس لا يسمح..

على صعيده الشّخصيّ يفضّل أن تبقى النّساء مجرّد أدوات..

سادت لحظة صمتٍ صاعقةٌ قبل أن يردف جيوڤاني موضحًّا: بالنّسبة إليّ، فأبي يؤمن بالزّواج ولذلك اضطرّني لذلك كما رأيت.

رمته بنظرةٍ ثمّ علّقت: لا أظنّني رأيت زوجته، أو أمّك يعني؟

- نعم، أمّي هي الوحيدة الّتي تزوّجها وقد اختفت فجأةً في صغري، ولم أره حزينًا عليها أو يسأل عنها مطلقًا؛ ولذلك اعتقدتّ من وقتها أنّ أبي هو من قتلها انتقامًا؛ لأنّي كنت أراها مع عمّي كثيرًا.

كان جيوڤاني يتكلّم بهدوءٍ تامٍّ، فيما كانت كاترينا تغلي بصمتٍ بين يديه، وهي تعصر يديها ببعضٍ من الغيظ والخوف، وقد توسّعت عيناها المصدومتان، حتّى قالت بصوتٍ أقرب للهمس: كان عليّ أن أسأل منذ البداية.. ما هو.. الزّواج عندك؟

ضحك جيوڤاني شامتًا: فعلًا سؤالٌ متأخّر!

بالنّسبة إليّ، زواجي بك يعني أنّك فتاتي الّتي سأنجب منها.. هذا هو!

وبمّا أنّ هناك عُرفًا سائدًا بأنّ هذا قد يجعلك تمثّليني؛ فلذلك اضطررت إلى تمييزك عن

الأخريات.. ولكن فيما بيننا -وهو الحال الأغلب- لا زلت سيّدك ورجلي فوق رأسك!

صمت جيوڤاني لوهلةٍ يستشعر وقع كلماته ثمّ عقّب: وماذا كنت تظنّين أنت؟!

ردّت بصوتٍ كئيب وهي تعضّ على أسنانها وتحدّق بجمودٍ بالأرض الّتي تطوى من تحتهما: أنّي.. نصفك الآخر.

لكن بدلًا من أن تصفعها سخريته المتوقّعة، صفعها صمته الغريب، لم يردّ ولم يعلّق، وساد صوت سنابك الحصان الّتي كانت تبدو قد تسارعت وكأنّه يمضي إلى هدفٍ وليس إلى نزهة.. انتبهت كاترينا، فرفعت رأسها لتدرك من بعيدٍ أنّها كانت في فخٍّ سمّي ظلمًا بنزهة.

شدّت قبضتها على قلبها الّذي كان يقفز مع خطوات الحصان، وقد صعقت حين أدركت أنّ اختبار الزّعيم لم ينته بالكلمات، وأنّها لن تصاهره بتلك السّهولة..

ظنّت أنّها مستسلمة، ولكن في لحظة وقوع المصيبة، تشبّثت يداها بصدر جيوڤاني تتوسّل: لا، أرجوك.. أليس في قلبك ذرّة رحمة؟ ضع نفسك مكاني..

سكتت حين أدركت أنّ كلماتها تناثرت في الهواء وتجانست معه وهي تحدّق بدموعها في ذلك الوجه الجامد، وكسر اللّحظة حين جذب اللّجام بقوّة، فتوقّف الحصان صاهلًا، وجاء أمره مقتضبًا كضربة سيف: انزلي! قفي عند تلك الشّجرة!

ترجّلت بوجهٍ قد غادره الدّم، أمامها كانت قريتها؛ مرابع طفولتها التي غدت الآن غريبةً عنها. رمتها بنظرةٍ دامية قبل أن تدخل ظلّ الشجرة مطأطئة الرّأس. لم يودعها جيوڤاني، بل نغز حصانه وعاد من حيث أتى، تاركاً إيّاها لبرد الشّتاء وندف

الثّلج الّتي بدأت تسقط على رأس تلك "الزّهرة الذّابلة".

وقُطِعَت أصواتَ الشّتاء بضحكات جماعةٍ من القرويّات يطردن تعب الطّريق بالثّرثرة، كنّ عائداتٍ وهنّ يحملن جرار الماء وقد نسين وزنها في خضمّ الحديث الممتع، ومررن بجوارها تحت الشّجرة..

لم يعرفنها أوّل الأمر، لكن سرعان ما علا صياح إحداهنّ: كاترينا.. هذه كاترينا!

وتوالت الصّيحات المهلّلة والضّحكات، وهنّ يتحلّقن حولها: لم نكد نعرفك بهذه الثّياب! وأخيرًا استطعت العودة..

- كيف هربت من أولئك الأوغاد؟؟

- لا نكاد نصدّق أنّك لا زلت على قيد الحياة!

وتسابقن لسحب كاترينا إلى القرية؛ متنافساتٍ من ستكون الأولى لتزفّها إلى الدّير، لكنّ المفاجأة أنّ كاترينا كانت تقاوم بصمتٍ، وتعود تحت الشّجرة وكأنّها تخاف الضّوء، وتؤثر الوحدة.

وقفن جميعًا مصدوماتٍ وأخذن يحاولن مواساتها والتّواصل معها وإقناعها، ولكنّ محاولاتهنّ كلّها كانت تبوء بالفشل، وأخيرًا هرع بعضهنّ بزفّ خبر المعجزة إلى الدّير ليبدأ الموكب الطّويل إليها.

كبرت الدّائرة حولها -خلال دقائق- واكتسبت اللّون الأسود؛ وقد توافدت الأخوات الواحدة تلو الأخرى، وكلّ واحدةٍ تعبّر على طريقتها، واختلطت الضّحكات بالآهات، وكادت كاترينا أن تفقد وعيها لولا أنّها سمعت صوتًا جعل شعرها يقف وجعلها تسمع صوت قلبها كالطّبل.

زاحمت الأمّ جميع الأخوات منطلقةً كالسّهم نحو كاترينا لتمسك كفّيها وتضعهما على خدّيها المبلّلين بالدّموع، وتحدّق بعينيها بكلّ شعورٍ صادق: كاتي يا حبيبتي..عاد بك الرّب حيّة.. كلّ الشّكر للرّبّ أنّك بخير!

وما إن سمعت كاترينا كلمة 'الرّبّ'، حتّى تفجّرت عيناها بالدّموع، وحرّكت شفتيها حركةً قبل أن تنتزع يديها بعنفٍ صاعق، وتضعهما خلف ظهرها عند الشّجرة، وقد أشاحت وجهها كمن يتفادى طعنة!

صدمت الأمّ ممّا رأت، وأخذت تستجدي كلمةً منها بكلّ طريقة، ولكن بعد محاولاتٍ عديدة، لم تحصل الأمّ إلّا على جملةٍ مبتورة: " أنا لست.."

فصاحت الأمّ المكلومة مستفهمةً: لستِ؟! لست ماذا؟؟ لم لا تتكلّمين؟

قولي على الأقلّ ما الّذي يمنعك من الكلام مع أمّك؛ الّتي تعلمين كم تحبّك وتعمل المستحيل لأجلك! بإمكانهم أن يحرموك من كلّ شيء إلّا قلب أمّك!

وصل فجأةً جمعٌ جديدٌ من رجال الكنيسة، وعلى رأسهم أبوها القسّيس الّذي لم يحتضنها بل وضع يده الثّقيلة على رأسها وبدأ يتلو التّراتيل بجهارةٍ؛ على أمل أن تترك روح الشّيطان روحها.

ولم يدرِ أنّ ما يدور في رأس ابنته -الّذي تحت يده- كان شيئًا آخر لا تصلحه بضع كلمات؛ للمرّة الأولى لم تستطع كاترينا أن تنظر إلى أبيها كرجل الدّين العظيم الّذي طالما افتخرت به، أو الأب المطاع الّتي تتباهى بالانتساب إليه..

إنّما الشّيء الوحيد الّذي كان يجول بخاطرها هو كلمات آل ويلياموني، وحتّى كلمات جورفورس وإيزابيلا والأخريات؛ كنّ جميعًا يتوافدن على رأسها من كلّ ذكرى عاشتها منقوعةً في ألم الوحدة ونسيج التّأثير الجماعيّ.

أمّا كلمات الكفر الّتي لفظتها في الصّباح فكانت هي حشوة الحجر الّتي صبّت في أذنيها وكلّ عروق قلبها، وكلّما كانت تسمعه هو صوت الشّكّ المتردّد في روحها: تلك التّراتيل يا أبي لم تنقذني من فاحشة، ولا أغنت عنّي ألمًا..

لم أعد تلك الّتي ترى العالم من ثقب إبرة، يا والدي العزيز.

قطع الصّلاة صوتٌ آتٍ من بعيد: **يا أهل القرية، يا أهل الدّير.. سطا اللّصوص على الكنيسة.. هناك عشرة على الأقلّ!!**

تحوّل وجه الأب إلى حُمرةٍ قانية، قبض على شعر ابنته رافعًا عينيها نحو عينيه صائحًا بانفعالٍ وغيظ: **أكانت خدعة؟؟ تكلّمي يا كاترينا، تكلّمي!!**

تحرّكت شفتا كاترينا الباهتة أخيرًا لتهمس: **وكيف ظننتم أنّهم أطلقوني بهذه البساطة أصلًا؟!!**

زعقت الأمّ، وأمسكت بثياب كاترينا تهزّها وتقول ببكاءٍ يقطّع القلب: **كاترينا، لا أصدّق..لا.. قولي أنّك لم تتفقي معهم.. صحيح؟ قولي أنّ هذا صحيح.. قولي.. قولي!!**

شردت كاترينا وهي تراقب نحيب الأمّ متجاهلةً صوت الأحصنة وهي تحاصر الجماعة من كلّ جانب، تراجع الجمع رُعبًا عن تلك السّيوف الغاشمة الّتي استُلَّت أمامهم، إلّا والدي كاترينا اللّذين بقيا يحاوطان فلذة كبديهما. وعلا نداء أحد الملثّمين: كاتي، هيّا!!

لم تتردّد كاترينا قبل أن تطلق ساقيها نحو جيوڤاني لولا أنّ قبضة أبيها كانت أقوى: ما الّذي تريده يا عدو الرّبّ؟؟ لقد أخذت المال، وتريد أن تأخذها أيضًا؟!!

تشبّثت الأمّ بها أيضًا وهي تصيح مستبسلةً: لن تلمس ابنتي أيّها الوغد.. ابتعد من هنا يا ابن الشّيطان!!

فما كان إلّا أن أجاب جيوڤاني واثقًا: إن لم تتركاها فسآخذها وأيديكما المقطوعة لا تزال متشبّثةً بها.

ومع اقتراب جلبة جنود الملك، صرخ جيوڤاني بالرّجال: أعملوا سيوفكم حتّى تأتوني بها سليمةً من بين أيديهم.

وفي لحظة الهياج تلك، عضّت كاترينا يد والدها حتّى تركها، وصارت تقاوم أمّها بأقصى قوّتها، لكنّ تشبّث أمّها كان لا يقهر، وأخيرًا أمسك الأب كتف أمّها وهو يعضّ على أسنانه: ألم تفهميها؟! إنّه عشيقها!!

جفلت كاترينا بينما رمقتها أمّها شزرًا وقالت بحرقة البكاء: لا يمكن يا كاترينا.. لا يمكن أن أصدّق أنّك فعلتها..

اندفعت شفتا كاترينا تحاولان أن تدفعا عنها وحش العار: لا، إنّه 'زوجي'..

فغرزت الأمّ أصابعها في جلد كاترينا وهي تهزّها بشدّة وتصرخ: هل أجبرتك على النّذر حتّى تهربي معه؟! كيف.. كيف دهى في عقلك هذا الشّيطان؟ هناك ألف شابٍّ محترم.. لماذا هذا أيّتها المجنونة؟!!!

حاول الأب سحب الأمّ المتشبّثة بعيداً وهو يرى نصل جيوڤاني يقترب مهدداً، وهمست كاترينا متوسّلةً وهي تحاول أن تخلّص نفسها: أطلقيني يا أمّي.. يكفيني ما بي..

سأمووووت إن حصل لك مكروه..

ليست الكلمات، بل اللّهجة والنّصل الّذي يلمع أمامهما هما من أوحى إلى الأمّ بكلّ شيء، فأطلقت عزيزتها وهي تطالع عينيها لآخر مرّةٍ وتهمس: يا حبيبتي، ليكن المسيح معك..

وهمست كاترينا بالمقابل بصوتٍ بحّه العذاب: شكرًا..

وودّعتها بنظرةٍ ملؤها العبر قبل أن يخطف جيوڤاني يدها ويرفعها على صهوة الحصان مستعجلًا، وهو يراقب بطرف عينه تناوش اللّصوص مع بعض الجنود الّذين وصلوا، وغادروا في عاصفةٍ من الغبار تاركين خلفهم صرخة الأمّ الّتي شقّت السّماء: كاتيييييي!!

أغلقت كاترينا أذنيها بيديها الرّاجفتين حتّى عاد صوت زقزقة العصافير إلى الواجهة، كانت دموعها تطير مع الرّيح، وصوت نحيبها الخافت يتسلّل إلى أذني جيوڤاني، الّذي أنزل لثامه معلّقًا: الحقّ أنّك تصرّفت أفضل ممّا توقّعت؛ لم أتوقّع أن تحافظي تمامًا على مكانك تحت الشّجرة حتّى أعود..

لم يلق جوابًا، لكنّه أردف وقد لفّها بذراعه: لا يمكنك أن تتركي نصفك الآخر!

اطّلع جيوڤاني على عيني كاترينا فوجدها تسبح بالدّموع، فالتزم الصّمت وهو يقارن استهجان عمّه وأبيه في الصّباح، باستهجان والديها الآن، واستهجان الجميع في المأدبة البارحة. وقطّب حاجبيه وكلمات أمّ كاترينا المحتقرة له ترنّ في أذنه، فهمس لنفسه وهو يضغط أسنانه: ألا ترى تلك الـ*** كم أنا قويّ؟

هي المقهورة وتريد أن تعيّرني وتقلب كاتي عليّ!!

سأثبت لكاتي أنّي شريكٌ جيّد، وسأجعلها تضرب بكلامِ أمّها عرض الحائط!

وسابق الرّيح نحو المنزل وهو يغلي، وبدخولهما الغرفة الرّئيسيّة؛ دخل الرّجال من ورائهما وفرشوا الذّهب على منضدةٍ وضعت أمام الزّعيم، وكبيرهم يقول:

- هذا ما خبّأه الأوغاد في الكنيسة، لقد قلبناها رأسًا على عقبٍ في وقتٍ قياسيٍّ!

جلس جيوڤاني على يمين الزّعيم، وأجلس كاترينا بجواره، وقد ساوره القلق من نظرات زوجته الغريبة وحدسه ينذره بشدّة، أمّا الزّعيم فقد أخذ يقلّب الذّهب ساخرًا:هذا ذهب الفقراء.. ولكنّه على شكل صلبان.. ترى كيف يستفيد منه الفقراء هكذا؟؟

ثمّ التفت إلى كاترينا المحتقنة الوجه، وناولها أحد الصّلبان مبتسمًا:

- خذي هذا علّقيه في غرفتك للذّكرى!

- لا، لا أريد صلبانًا.

كانت صوت كاترينا صارمًا رغم حشرجته، فرمى الزّعيم الصّليب، ونظر متخيّرًا ثمّ أخذ عقد لؤلؤٍ كبيرٍ متألّق: ما رأيك بهذا، يا كنّتي الصّغيرة؟ اللّؤلؤ يليق بك!

وظهرت الصّدمة على وجه جيوڤاني حين نهضت كاترينا، وتناولت العقد ووضعته على رقبتها أمام الجميع، وتحرّكت بخفّة رغم آثار البكاء الظّاهرة عليها: ما رأيكم؟.. هل يليق بي؟

فأبدى كلّ الرّجال إعجابهم واستحسنوه إلّا شابًّا واحدًا صمت، واكتملت المشكلة حين اقتربت جوليا ابنة الزّعيم من كاترينا لتقول بتمايل: دعيني أصفّف شعرك، يا جميلة، سأجعله مناسبًا جدًّا؛ انظري، مع هذا الدّبوس البرّاق عليه!

وخطفت جوليا دبوسًا ذهبيًّا من أمام أبيها الّذي بدا شاردًا وهو يحدّق بكاترينا، وأرتها إيّاه وكيف ستجمّل به شعرها، وبالفعل وافقت كاترينا على الذّهاب مع جوليا لولا أنّ جيوڤاني قبض ذراعها فجأةً وقال بنبرةٍ جافّة: شعرك جميلٌ هكذا، ولا حاجة لتصفيفه.

سارعت جوليا واضعةً يدها على صدر جيوڤاني بدلع: هل انتابتك الغيرة يا ابن عمّي؟؟ رأيتها عندك منذ أشهر، فمن أين جئت بغيرة العرسان اليوم؟ آها؟

دفع جيوڤاني جوليا عنه مهدّدًا: قلت لك ألف مرّة ألف مرّة ألّا تقتربي منّي.. والآن أقول لك لا تقتربي من زوجتي، أتسمعين؟؟

وأوعز إلى كاترينا: غيّري ثيابك، وتعالي إلى غرفتي.

ثمّ خرج ظاهرًا عليه الغضب، وكذا فعلت بعده كاترينا بتوجّس، وحين أغلقت الباب سمعت جوليا تقول لأبيها: يبدو ليس اليوم.

فأجابها الزّعيم بتفاخر: أنـا..لست بحاجةٍ إلى الخداع مثلك!

نظرت نحوهم من خلف الباب ولم يخطر لها شيء، فانطلقت تغيّر ثيابها متوجّهةً من فورها إلى غرفة جيوڤاني، فدخلت وأغلقت الباب لتتوتّر برؤيته يدور ويدور بغضبٍ وانفعال.

رآها فسحبها نحو النّافذة المفتوحة، وأشار نحو السّماء بأنفاسٍ منفعلة: من يوجد هناك؟

ارتبكت كاترينا وقالت بصوتٍ خافت: لا.. أحد..

انتفض يهزّها: كاترينا.. هل أسكتّك يومًا لأنّك تكلّمت عن الرّبّ؟

حارت كاترينا ولم تعد تفهم مطلبه، بينما صاح: أجيبي!

فهمست: لا..

عاد ليسأل وعيناه تغليان: هل طلبت منك التّجديف؟

- لا..

- هل اشترطت عليك أن تغيّري معتقداتك لأتزوّجك؟

- لا..

فصاح: إذًا ماذا تستنتجين من كلّ هذا؟؟

زادت حيرة كاترينا وزاد توتّرها وتلعثمت، ثمّ سحبت أنفاسها ودفعت الكلمات بسرعة:

- أنت تتسلّى فقط بسماع هذه القصّة والسّخريّة منها، وتعتقد أنّي غبيّة، هذا ما أعرفه.. ولا أدري ما الّذي تريده الآن؟

ارتبكت عينا جيوڤاني رغم الغضب، لكنّه سحب نفسًا وقال: أنا.. حَسَنًا..

لأكون صريحًا؛ إنّ سخريّتي في النّهاية انقلبت عليّ..

أشاح جيوڤاني وجهه، فيما حملقت كاترينا فيه باستغرابٍ ولا تزال ترجف خوفًا من غضبه، حتّى قطعت صمته: ما الّذي تعنيه بهذا؟؟

عدّل جيوڤاني وقفته، وعاد ليحدّق بعينيها قائلًا: أولًا.. أجيبيني.. هل تحبينني؟

وعلى الفور ردّت مستنكرةً سؤاله: وهل تحبّني أنت؟!

- هل أنت بحاجةٍ لأقولها لك فعلًا؟ اسمعيها إذًا: أنا أحبّك!

وسبب حبّي لك هو أنّك..

زفر جيوڤاني وسكت لوهلةٍ قبل أن يكمل هامسًا: لأنّك الوحيدة الّتي تؤمنين بالرّبّ هنا.

صعقت كاترينا ووقفت لا تصدّق ما سمعته لتوّها؛ ما كانت تظنّه عيبها في نظره البارحة،

كان هو ما يجذبه إليها ويتحمّل لأجله!

وامتصّ جيوڤاني صدمتها بأن عانقها هربًا من أن تلتقي أعينهما وهو يهمس: لديّ سرّ.. هل ترغبين في أن تحفظيه معي؟

ابتسمت شفتاها: بالتّأكيد.. قل، أنا أسمع.

جمد لوهلةٍ ثمّ تشجّع وذهب يغلق النّافذة حذَرًا، وبعدها أخذ يهمس لها مندسّين تحت غطاء السّرير وقد بدأ مزاجه يهدأ: في حقيقة الأمر لا يوجد سيّدٌ في عائلتنا سوى عمّي جوناثا، منذ أن عرفت العالم وأنا أعيش في قفصه كما يهوى وكما يحبّ؛ يستغلّني تارّةً فيؤذيني، ويستفيد منّي أخرى فيعطيني، وأحيانًا يكتفي بوضعي جانبًا أسكر وألعب حتّى يقرّر تحريكي، كما حدث منذ أيّام.

بطبيعة الحال، لا سبيل لي للهرب منه؛ إنّ له عيونًا في كلّ مكانٍ حولنا، ولأكون صريحًا؛ أنا أيضًا لا أستسيغ الانتقال إلى حياة الـ.. الفقراء، فأنا هنا أحصّل متع الحياة بيسر، ولذلك فأنا..

عالقٌ هنا جسدًا وشهوةً.. مع أنّ عقلي له رأيٌ آخر كما تسمعين.

زفر ناظرًا إلى الأعلى: منذ صغري، كلّما آذاني ولم أجد من يحميني، كنت أبحث عن من هو أقوى منه.. لفتراتٍ أيقنت أنّه لا أقوى منه، وظننت حتّى أنّ موته مستحيل..

ولكن الآن بعد أن اكتمل عقلي أعلم أنّ هناك نقاطًا في حياته يُقهر فيها مثلما يُقهر بها أحقر حيوان..

استغربت بشدّة: ماذا تقصد بهذا بالضّبط؟

- أقصد: ألم يكن ماءً قذرًا؟! ألم يولد من امرأة؟! ألم يكن طفلًا؟! أليس مجبرًا على الأكل

طيلة حياته؟! أليس مقهورًا على قضاء حاجته؟! أليس مجبرًا على النّوم؟! أوليس مقهورًا بالمرض والموت؟؟

وتوسّعت حدقتاه: هذه ليست مجرّد نقاط ضعف، هذه إذا وصلتها ببعضها ونظرت من مسافةٍ أبعد، ظهرت لك الحقيقة؛ حقيقة وجود قوّةٍ أكبر منه تسيطر عليه قبل أن يوجد في الحياة أصلًا؛ مرورًا بكامل حياته وحتّى تنهي أمره نتنًا في التّراب..

رغم كلّ قوّته وتجبّره الآن، فلن يستطيع تكذيب حقيقة أنّ عينيه ستسيلان يومًا ما؛ إمّا من انتفاخات النتن وإمّا من لهيب النّار (الّتي تحرق بها الجثث).

سكت يشرب نظراتها قبل أن يستطرد: ولذا فوجئت حين سمعت منك عن الرّبّ، واكتشفت أنّها ليست مجرّد فكرة خطرت لي؛ بل هو شيءٌ فكّر به الكثيرون قبلي، وها أنت ذا كنت قد كرّست حياتك لأجله، وكنت مستعدّةً لتموتي لذلك حتّى..

ولذا أقول لك أنّ سخريّتي منك انقلبت عليّ؛ لأنّك بقيت تضعفين وتضعفين حتّى هان عليك -وبشكلٍ صادم- أن تكفري اليوم قبل أن تسمعي تهديدًا حتّى.

خجلت كاترينا وبرّرت: الحقيقة أنّي لم أقل ما قلته على أنّني أنا من يقوله..

لقد.. قلته متخيّلةً أنّك أنت من يفعل ذلك، وأنا أتجاهله منك كالعادة!!

تبادل الاثنان بسمةً قبل أن تهمس كاترينا مشرقةً: إذًا نستطيع أن نقول أنّك تؤمن بالرّبّ يا جيوڤاني!

أوقف جيوڤاني أنفاسه يحسب كلماته ثمّ قال: أنا أؤمن بالقوّة الّتي تسيطر على الكون، لكنّي أجهد أن أعرف كيف أتّصل بها؛ أعتقد أنّ من يتّصل بها يحصل على الحماية ويكون

الأقوى..

ولكن ما السّبيل؟ على الأقلّ أريد أن أعرف ما هدف هذه القوّة من تقييدي بسلسلة الحياة؟ لا أعتقد أنّ تلك القوّة كانت تعبث بخلقي؛ لأنّي أرى المخلوقات الأخرى غير عبثيّة.

- هذا رائع يا عزيزي! كيف استنتجت ذلك؟

لم تفت كلمة 'عزيزي' الجديدة جيوڤاني، فابتسم وقد هدأت أعصابه:

- مثلًا كيف أنّ موت العجل على يد الذّئب ليس للتّسلية؛ بل هو سببٌ لحياة الذّئب..

البقرة سترى أنّ موت ابنها فظيع، بينما يرى الذّئب أنّه أحسن بإطعام ابنه، إنّه مثالٌ بسيط كيف يمكن لشيءٍ واحدٍ أن يكون فضيلةً ومصيبةً في آنٍ واحد!

اهتزّت كاترينا: لن يخطر لي أن أنظر إلى الأمر هكذا في حياتي!

عقّب فخورًا باستحسانها حديثه: تُحسّين أنّ البقر هو عالمٌ مختلفٌ عن عالم الذّئاب رغم أنّ كلا العالمين نراهما في عالمٍ واحد.. ولذا أجل، هذا التّنظّيم يوحي إليّ أنّي جزءٌ منه بطريقةٍ ما!

مسحت شعرها تبتسم بمكر: تقصد مثل أنّ كاترينا من عالم القرويّين؛ تعرّضت لهجومٍ من عالم الذّئاب الّتي تسكن الجبل، وأمّها ثكلى عليها، بينما الذّئب يعدّها غنيمته المحبوبة؟؟

سكت جيوڤاني لوهلةٍ قبل أن ينفجر ضاحكًا: ما قصدتّها.. ما قصدتّها.. أنا الذّئب إذًا؟! هههه.. كيف طابقتيها!!

- ولكن أتدري ما المفارقة هنا؟؟ أنّ كلا القرويّين والمجرمين من البشر.. أعني العجل

والذّئب مختلفين تمامًا.. أمّا نحن، فنفس المخلوق؛ ولكنّنا نمثّل عوالم!

تنهّدت كاترينا وقالت بحزن: كان هذا شعوري في الصّباح؛ حين انتقلت من بين أيدي والديّ إلى يديك، أحسست أنّي أنتقل إلى عالمٍ آخر، القوانين مختلفة، السّادة مختلفون وحتّى الألبسة مختلفة!

- هه لنعود إلى البداية، أضيفي إلى معلوماتك أنّ هذا عالم جوناثا..

تنهّد بألمٍ ووضع يده على شعر كاترينا ناظرًا نحوها بجدّية، وقال:

- أنت لا تعرفين؛ سأشرح لك من النّهاية؛ إنّ عمّي يريد أن يبيت معك، ولهذا كانت جوليا تسحبك أيّتها السّاذجة..

ضاقت عينا كاترينا بينما أضاف جيوڤاني بصوتٍ هامس:

- لهذا كنت رافضًا للزّواج؛ لأنّي أعلم أنّ خصوصيّتنا ستنتهي عندما تقع صورتك في عينه، ولكن إن لم أتزوّجك أيضًا، فستصيرين في خدمته وسأخسر معك..

أجابته بصوتٍ مصدوم: ولكنّ والدك هو الّذي قال أن تتزوّج..

- هذا ما يتظاهر به، لكنّ الحقيقة هي أنّه قرار عمّي وليس قراره..

إدراكي أنّي أسيرٌ بين مخالب عمّي، وأنّ والدي مجرّد دميّة باعترافه؛ هو أحد الأسباب الّتي جعلتني أكره الحياة..

وأضاف بصوتٍ كسير: إنّي أرفض أن أكون دميةً في يده أنا الآخر..

وتنهّد وأمسك بيدي كاترينا : لا تتجمّلي أمامه.. لا تبتسمي، إنّه وحش.. هو الّذي قتل أمّي، وها هو يستعبدني أنا وأبي..

وبينما تساءلت كاترينا عن قاتل حماتها الحقيقيّ بعد روايـتين مختلفـتين، اسـتطرد جيوڤاني بحدّة:

- ماذا.. ماذا يوجد أكثر من أنّه قتل أباه وأكله؟

حتّى أنّه كلّما ولد له ولدٌ يشويه حيًّا ويأكله..

اختلجت عينا كاترينا وجلست ممسكةً فمها من الغثيان، فتركها جيوڤاني لبرهةٍ قبل أن يعقّب منفعلًا :

- ما فعلتِه في أوّل يومٍ خرج عن كلّ توقّعاتي، لماذا ارتديت العقد وحاولت لفت الأنظار؟

هذه ليست عادتك.. أنت أريتني معنى التعفّف والحياء؛ حتّى لأشهر عجزت عن خلع حمرة الخجل عنك.. لماذا تغيّرت الآن؟!

- أنا.. أنا..

اختنقت بعبراتها قبل أن تفصح أخيرًا وهي تفرك الغطاء بين يديها من الخجل: فكّرت.. إذا كنتُ مصيري هو الجحيم، فهذه فرصتي الوحيدة لأستمتع بالحياة، ولذلك...

فزمجر غاضبًا: أنت غبيّة! أنت امرأة؛ يعني في اللّحظة الّتي تعتقدين أنّ الرّجال معجبون بك، فاعلمي أنّهم، لحظتها، يفكّرون كيف يتمكّنون من إذلالك والنّيل منك..

رمقته باستخفافٍ وطأطأت رأسها، فأجابها مخزيًّا: أعرف.. ولكنّي الآن ذئبٌ صديق!

زفرت مشيحةً بوجهها: صديقٌ في هذه السّاعة الغريبة فقط.

أمسك بكلتا يديها مدافعًا: لا.. انسي الماضي! سأتغيّر، أعدك! ألم تلمحي ذلك؟ لقد بتّ نصفك الآخر!

ثمّ مسح على شعرها يواسيها قبل أن يقول بصوتٍ صادق:

- قتلتني الوحدة، لا أستطيع الكلام حتّى مع أبي؛ لأنّي أعرف أنّه سينقل كلامي لجوناثا..

لذلك عندما استطعت أن أثق بك، أردتّك أن تكوني صديقتي، شخصٌ ما لا علاقة له بجوناثا؛ أتكلّم معه بحريّة..

بدا على صوته الحزن فرفعت عينيها لتجيبه: إذا أردتّ الصّراحة، فالشّعور متبادل؛ الوحدة هي الّتي صرعت إيماني وجعلتني أتخاذل..

وابتسمت محدّقةً بعينيه: أمّا الآن وأنا أعرف أنّك معي وتؤمن بالرّبّ المسيطر مثلي؛ فهذا يعطيني شعورًا بالدّفء، ويمنحني الشّجاعة والأمان الّذي أفتقده..

ابتسم جيوڤاني قبل أن يخالجه الوجوم وهو يقول بشكلٍ متقطّع:

- أنا آسف.. إن لم أستطع دفعه عنك في الغد، فقد.. رأيته يحدّق فيك و... كوني قويّة. فقط.. اعملي على هواه.. واصبري.

لكن.. في حقيقة الأمر، كانت كاترينا بحاجةٍ لأكثر من هذه الكلمات لتتحمّل ما حدث في اللّيلة التّالية، إنّ مجنونًا بجنون العظمة مثل جوناثا لا يمكن وضع حدودٍ لما قد يفعل عندما تكون له السّلطة الكاملة لفعل أيّ شيءٍ بمن يشاء وقتما شاء..

وبشكلٍ غير متوقّعٍ أبدًا، انقلب وحش جيوڤاني القديم في عيني كاترينا إلى زميل السّجن الّذي يشاركها معاناةً بائسة، ويرزخ تحت ثقل نفس السّيّد العاتي!

بدا الأمر غريبًا جدًّا؛ عندما كانت في الزّنزانة كانوا جميعًا يعيشون على أنّ جيوڤاني المتغطرس هو رأس الهرم القادر، الّذي يجب أن يتسابقوا لإرضائه ويرضوا بأيّ شيءٍ

يفرضه عليهم؛ مهما انتقص من حقوقهم وكرامتهم..

والآن بعد أن صارت بجوار جيوڤاني، تبيّن أنّ جيوڤاني نفسه يعاني من الاستعباد وأنّه معذّبٌ لا يملك أمر نفسه!!

والسّؤال الّذي يطرق ذهنها الآن، هل جوناثا يعاني من الشّيء نفسه؟؟

دار هذا في خلدها وقد جلست في غرفة جيوڤاني يواسيها على مصابها، لم تتلفّظ كاترينا بكلمةٍ بعد عودتها؛ فقد كان تعذيب جوناثا أسوأ ممّا عُوِّدت عليه بأضعاف، لكنّها لم تبكي كثيرًا؛ لوجود صدرٍ تأوي إليه هذه المرّة، وإن كان هو نفس الصّدر الّتي كانت تهرب منه مسبقًا!!

وبعد طول صمتٍ قالت معتبرةً: البارحة في القرية، رأيت أختًا من الدّير؛ كنت قد ازدريتها حين جاءتنا تريد أن تتوب وتترهّب بعد ماضٍ أسود..

كنت أنفر منها وقد اعتقدتّ أنّها لا تستحقّ رحمة الرّبّ.. والآن أراني قد تبادلت معها الأماكن؛ بل قد صرت أرخص منها، ومن يدري إلى متى سأبقى أدفع ثمن سوء ظنّي بالرّبّ..

في تلك اللّحظة، سمعا طرق الباب، وحين أذن جيوڤاني، دخل جورفورس الغرفة وركع أمام جيوڤاني قائلًا: أمرني السّيّد أن أضطّلع بخدمتك بدلًا عن ألبيرتو.

- أنت؟! وما الّذي حلّ بألبيرتو؟

- في صندوق الأشواك أظنّ؛ فقد أغضب الزّعيم.

طأطأ جيوڤاني بينما شهقت كاترينا معترضةً: لا!! يا للظّلم! مهما فعل لا يستحقّ....

صاح بها جيوڤاني: كاتي!! لا تتلفّظي بهذا الكلام، هل أنت مجنونة؟؟

تمالكت كاترينا أعصابها وزفرت ما كانت تريد قوله مشيحةً بوجهها.. وقد بدأت تهون عليها مصيبتها بعد سماع هذا!

أمّا جيوڤاني فانشغل بإلقاء تعليمات الخدمة على جورفورس الّذي بدا مركّزًا تمامًا وعيناه مثبّتتان على قدمي جيوڤاني..

وأخيرًا انحنى وخرج من الغرفة، بينما همس جيوڤاني لكاترينا مفسّرًا: إنّه هكذا؛ يقتل من يجد لي علاقةً معهم بأيّة حجّة..

ثمّ زفر وعقّب: لقد قرّر اليوم أن يغيّر ترتيب شجرة الخدم.. لقد عيّن خادمةً لك أيضًا.

- حقًّا؟ من الصّعب التّنبؤ بتصرّفاته..

ساد الصّمت للحظات قبل أن تعلّق كاترينا بنظراتٍ غريبة: جيوڤاني، سأقول لك شيئًا لاحظته اللّيلة، لا أعلم إن كان صادمًا لك..

وسكتت متردّدةً فقال بملامح تستعدّ: ما هو؟

بلّلت شفتيها وقالت بصوتٍ متشكّك: لا أدري إن كنت قد لاحظت أنّ جوناثا هو.. هو أبوك.. أبوك وليس عمّك!!

فانتفض جيوڤاني باستهجانٍ حادّ: ما هذا الهراء الّذي تقولينه يا كاتي؟!!

- انتظر! تذكّر -وأنت تنظر إلى المرآة- كم مرّةً رأيتَه مع أمّك؛ انظر إلى مدى الشّبه الشّديد بينك وبينه، لدرجة أنّك تبدو لي اليوم لوهلاتٍ كنسخةٍ شابّةٍ منه!

توسّعت عينا جيوڤاني وبدا مصدومًا جدًّا بينما أضافت كاترينا: وبالمقابل أنت بالكاد تشبه ياكوبو..

وجه ياكوبو دائريّ، أمّا وجهك، مثل وجه جوناثا، طويل.. ولون عينيك كعينيه، وحتّى الصّوت والهيكل العام..

وبغضّ النّظر عن الشّبه، طريقة كلام جوناثا عن علاقته بك تلمّح إلى ذلك.

عقد يديه منقبضًا ورفع حاجبه: ومن أين جئت بهذا أيضًا؟!

- ألم تر كيف قال لي: 'تحملي اسمي' وقال ' يا كنّتي'..

نفض كفّه وقال وقد استفزّه كلامها: هذه مجرّد تعابير!! يمكنه استعمالها لأنّه عمّي، يعني مثل أبي..

قرّرت كاترينا الانسحاب بعد أن أنذرتها ملامح وجهه، فعلّقت هاربةً بعينيها:

- ربّما! ولكن على الأقلّ احتمال الشّكّ دليلٌ حيٌّ على سبب وجود الزّواج العفيف؛ انظر كيف تختلط الأنساب، وتضيع الحقيقة..

وجم جيوڤاني وقد ضاقت عيناه واحمرّ وجهه، ثمّ نهض نحو المرآة يحدّق بعينيّ نفسه لدقائق طويلةٍ قبل أن يهمس بغيظٍ عاصرًا رأسه: لا أكاد أصدّق.. أنا أشبهه بشكلٍ مريب.. لا، لا يمكن..

أيعقل أنّ جوناثا اللّعين هو أبي؟! أكاد أجنّ..

كان من الواضح أنّ مزاج جيوڤاني قد تدنّى، فنهضت كاترينا لتخلّص نفسها قبل فوات الأوان، حين وصل جورفورس بالعشاء، وما إن فتح الباب حتّى زمجر جيوڤاني غاضبًا:

- أبعده عنّي يا ابن الـ***، تحضر لي ***؟! وهل عندي شهيّةٌ لآكل؟!

همست كاترينا بقلق: جيوڤاني، اهدأ، قد لا يكون..

صاح: دعيني وشأني!! هيّا اذهبي إلى غرفتك!!

خرجت كاترينا وهي تحسّ بالنّدم الشّديد لأنّها تكلّمت، ودخلت غرفتها مطرقةً حين انتبهت إلى وجود امرأةٍ تضع العشاء في الغرفة، فأغلقت الباب وجلست على الكرسيّ قائلةً بلطف: سلمت يداك.

ورفعت كاترينا عينيها لتجد أمامها وجهًا عابسًا مألوفًا لديها لحدّ الحقد، وسرعان ما سمعت ذلك الصوت القاسي يجيبها: لا تنظري إليّ هكذا يا وجه الـ...

وعضّت إيزابيلا على لسانها محوّلةً وجهها: أيًّا يكن.. استمتعي بطعامك.

وحملت الزّجاجة ووقفت بجوار كاترينا لتؤدّي طقس الخدمة، عندما سحبت كاترينا الزّجاجة منها قائلةً:

- لا تتعبي نفسك؛ أستطيع أن أسكب بنفسي حينما أريد..

ما رأيك أن تجلسي وتتعشّي معي؟

- إذًا، أنا خارجة..

خرجت إيزابيلا مسرعةً وأغلقت الباب وكأنّها تهرب من نفسها، بينما همست كاترينا لنفسها مبتسمةً وهي تأكل: لهذا يجب على المرأ ألّا يعادي أحدًا.

وقبل أن تنهي طعامها طُرق الباب، وأدخلت إيزابيلا جورفورس الّذي قال وهو يمشي نحوها:

- السّيّد يطمئنّ عليك، ويسأل إن كان كلّ شيءٍ على ما يرام؟

أجابت كاترينا مستغربة: نعم كلّ شيءٍ جيّد..

همس جورفورس بعد أن تأكّد أنّ إيزابيلا ابتعدت: السّيّد لا يقول شيئًا، أنا الجائع فقط!

فهمست كاترينا بمرحٍ وهي تناوله رغيفًا: قلت لنفسي؛ هذا ليس من طبعه!

وأخذت تضحك بصمتٍ، وهي تشاهد جورفورس يقطّع الرّغيف ليخفي شيئًا في فمه وشيئًا في بنطاله، فناولته قطعة لحمٍ وجبنًا وهي تسأله: ألا تحصل على طعامٍ جيّدٍ الآن؟

أجاب بفمٍ ممتلئ: رغيفٌ بعد الكدح طيلة النّهار.

زفرت وقالت: يبدو أنّ جيوڤاني كان نعمةً في المقارنة.

ردّ وهو يسحب بقيّة عصيرٍ كانت في كأس كاترينا: يجب أن أخرج بسرعةٍ؛ فإيزابيلّا لا يوثق بها..

ووقف عند الباب قائلًا بصوتٍ واضح: 'نعم، على الفور!' وخرج بين نظرات كاترينا الضّاحكة، ونهضت وهي تفكّر: إيزابيلا تتاح لها فرصة أن تتعشّى فتأبى، والآخر يختلق عذرًا ليحصل على بضعة لقم، كما يشربُ من كأسي بلا حرج! فعلًا النّاس أجناس!

بعد عدّة أيّام، كانت جالسةً في غرفتها تستذكر الصّلوات في خلوتها، حين دخلت عليها إيزابيلا حاملةً ثيابًا سوداء في يدها، انتفضت كاترينا واقفةً لا تصدّق عينيها، ووضعت يديها على صدرها وتمنّت أن تفرح، لكن حدسها نصحها ألّا تفعل..

ورجفت يداها وهي تتلمّس ثياب الرّهبنة وقد ترقرقت الدّموع في عينيها، وسألت إيزابيلا بصوتٍ متخدّج: لماذا جئت بهذا؟

أجابتها بجفاء: وما أدراني؟ قالوا أن أعطيك إيّاه لتلبسيه.

ارتبكت كاترينا متذكّرةً تهديد الزّعيم لها بالمناشير، وخرجت تبحث عن جيوڤاني للتتأكّد

قبل أن تعمل أيّ خطأٍ قاتل، وحين رآها بادر بالقول منزعجًا: ألم تلبسيه بعد؟! ظننتك ستفعلين فورًا!

- خفت أن يكون فخًّا و..

- أنت الفخّ أيّتها السّاذجة.. هيّا البسيه بسرعةٍ والحقي بنا في الخارج.

لم تفهم ما قصده بـ 'أنت الفخّ'، ولكنّها أسرعت بذلك، ووقفت تمتّع نظرها برؤية نفسها في المرآة بالثّوب الفضفاض والصّليب وغطاء الرّأس وحتّى المسبحة.. يا له من منظرٍ اشتاقت إليه لدرجة أن طبعت قبلةً على صورتها في المرآة قبل أن تهرول إلى الخارج، لتجد جيوڤاني ينتظرها مع حصانه وهو يتكلّم مع اثنين من رجاله.

ومرّت دقيقةٌ قبل أن يقترب منها ليحملها على الحصان، لكن يا لدهشته حين تراجعت هاربةً من يديه، فرمقها بنظرةٍ حيرانة ووجهه يتقلّب، فصدمته حين انفجرت ضاحكةً وهي تقترب منه: كان عليك أن ترى وجهك!!

تصنّع بسمةً وتمتم: تبًّا! عرفت أنّه ثوبٌ ملعون!

أخفت بسمتها بيدها وقالت: إذًا لماذا جعلتني ألبسه؟

- اصعدي وسأحكي لك في الطّريق.

ردّت باستهجان: أتريد أن تضعني بين يديك وأنا بهذا الثّوب؟!!

حكّ رأسه مفكّرًا: ومـا المشكلة؟

أخذت تلوّح بيديها: جيوڤاني! الرّاهبة تكون عازبةً ولا تلامس الرّجال حتّى!

تململ بعينيه وقال مادًّا كفّه: أمنيتي أن أقوم بلمس كلّ الرّاهبات....

فقاطعته صارمةً: وأفضل ما في الأمر أنّك لن تحقّقها!!

مسح ذقنه قائلًا: لا يهمّ الآن، فهذا الثّوب لا يغيّر أنّك زوجتي..

- لا، بالطّبع.. النّاس كلّهم سيتّهمونني بنظراتهم، وسيعلمون أنّي مخادعة!

ارتدّ جيوڤاني برأسه حين فهم أخيرًا، فيما ضرب أحد الرّجلين كتفه مخفيًا بسمته:

- لنحضر عربةً تركبها هي، وأنت تقودها.

وبالفعل انطلقوا في ضوء الغروب، وكاترينا تهتزّ في العربة وهي تشدّ على مسبحتها وقلبها، وقد عرفت أنّها على ارتكاب خطيئةٍ جديدةٍ تتمثّل باستعمال لباس الدّين لتساعدهم على السّرقة، عضّت على أسنانها وهي تتفرّج على الطّريق حولها، وهي تتخيّل منكسرةً ردّة فعل والديها وأصدقائها لو عرفوا بهذه الجريمة، ولكنّها تنهّدت وهي تعترف بأنّ هذه أسرتها الآن ويجب أن تتحمّل.

وانطلقت كاترينا حسب الخطّة لتكلّم حارس أحد المخازن بلهجة الرّاهبة الّتي تتقنها بطبيعة الحال، وتقنعه ليأتي لمساعدتها بعد أن تعطّلت عربتها صدفةً وهي عائدةٌ إلى الدّير وقد حلّ الظّلام، فتفاعل الحارس مع لهجتها الباكية، ولم يكن يعلم أنّها تبكي لسببٍ آخر!

وما إن قام الحارس بالإصلاح اللّازم وهمّ بالمغادرة، ارتبكت كاترينا إذ لم تظهر الإشارة، فوقفت معه تباركه وتضيف بعض العظات..

وبعد محاولات، استطاع الحارس أخيرًا أن يفلت منها وهو خائفٌ أن يُكشف أمر ابتعاده، وما إن غاب عن نظرها حتّى سمعت صوت أحصنةٍ تلّف وتتوجّه إليها فزفرت تحمد الرّبّ عندما تذكّرت مصدومةً أنّ الرّبّ لن يبارك ما تفعل!

أسرع الرّجال يضعون الصّناديق في العربة، وصعدت كاترينا بسرعةٍ قبل أن ينطلقوا هاربين وهم يتضاحكون ويتشاتمون وهم يُعَرِّضون بخطأ أحدهم، بينما كانت كاترينا تتنهّد راجيةً أن يعتقد الحارس أنّها صدفةٌ وليست خدعة، ولكن أين ضاعت كلّ تلك المباركات؟!

فيما بعد، استعمل الزّعيم ورقته الجديدة -المرسوم عليها صورة راهبة- في العديد من عمليات السّطو خاصّته؛ بحجّة أنّ اسمه ليس بالمجان، وأُجبِرت كاترينا على أن تكون طعمًا تارّةً وسارقةً تارّةً أخرى..

كم صعبًا كان الأمر عليها؛ ولكن، كالعادة لم يكن بيدها حيلة.. على الأقلّ وجود جيوڤاني معها في ذلك غالبًا؛ كان يخفّف عنها عبء شعورها بالضّغط والقهر..

وكان الزّعيم مدركًا لمميّزات وعيوب هذه الورقة في لعبته!

وفي أحد الأمسيات، بعدما عادت كاترينا من أحد المهمّات، دخلت غرفة جيوڤاني الّذي كان يتعشّى، وبمجرّد رؤيتها قال معلّقًا: لقد صار الحمل واضحًا عليك!

- فعلًا، بدأ المشي يصير صعبًا عليّ.

استندت على المنضدة حين دخل جورفورس الغرفة بزجاجةٍ جديدةٍ ليسكب لسيّده، فأخذت كاترينا رغيف خبزٍ وهي تسأل متململةً من السّؤال المعتاد:

- هل يمكنني أن أعطيه إيّاه بيده؟

فأجاب مبتسمًا بتململ: للمرّة الألف لا!

ينبغي أن تشكريني لأنّي أسمح لك أن تطعميه من الأصل!

فرمت كاترينا الرّغيف على الأرض، وجثا جورفورس يأكله بفمه كما تعوّد، وعلّقت كاترينا مخاطبةً جيوڤاني وهي تنظر إلى جورفورس:

- أتدري أنّه لن يستمع إليك أبدًا (تقصد الرّبّ المسيطر) وأنت مصرٌّ على أن تفعل هكذا بإنسان؟

أغلق نصف عينيه: هل كلّمك عوضًا عنّي؟!

ردّت متحمّسة: بل هو يكلّمنا جميعًا، وسأثبت لك..

ارتشف جيوڤاني كأسه بتلذّذ وقال بمرح: أثبتي لي!

- لم لا تركب بقرة؟

رمقها باستخفاف: أبالبقرة ستثبتين لي؟!

- أجب لتعرف!

استند رافعًا كأسه وقال: اممم.. لا أعرف بصراحة.. لو سألت جوناثا لأجابك، لكن أنا لست فلّاحًا!

فارتدّت مستهجنةً: وما علاقة جوناثا بذلك؟؟

- لأنّه كان فلّاحًا في صغره قبل أن يقرّر أن يصير لصًّا!

ضربت كفّيها صائحةً: لا، مستحيل!!

- لكنّها حقيقة!

وضعت يديها على فمها تكبت ضحكتها:

- لا أستطيع تخيّله فلّاحًا.. يبدو الأمر سخيفًا!

لعب بكأسه وقال: كان يحسّ أنّ والده يجعل منه ثورًا، ولذلك غضب!

انفجرت كاترينا ضاحكةً، والمصيبة أنّه حتّى جورفورس اقترف جريمة الضّحك؛ رغم كلّ محاولاته لتجنّبها، وعلى الفور نال المسكين ركلاتٍ من جيوڤاني الّذي يبدو دائمًا مستعدًّا للعنف، وزجره خارجًا وهو يكيل له الشّتائم، وحين أغلق الباب كانت كاترينا قد سيطرت على ضحكتها، فقالت: لنعد إلى موضوعنا..

نحن لا نركب البقر، ببساطة لأنّ جسمها لا يصلح للرّكوب؛ إنّما جسمها مثاليٌّ لإنتاج الحليب. وبالمقابل لم لا تُحلب الفرس رغم أنّها ترضع صغارها؟

أجاب جيوڤاني وهو يشير لكاترينا لتسكب له عوضًا عن جورفورس:

- امم.. هذا أستطيع الإجابة عليه.. حليبها قليل وهي.. ترفض أن تحلب.

- نعم لأنّ جسمها مثاليٌّ للرّكوب.

رفع كأسه وهو يقول باستخفاف: هه، ما علاقة الحيوانات البهيمة بالحديث مع الرّبّ المسيطر؟

- هذا بالضّبط كلامٌ من الرّبّ المسيطر..

مسح شعره متهكّمًا: هل أثّرت الخمر عليّ بهذه السّرعة؟!!

ضحكت بخفّةٍ وأجابت: إنّ الرّبّ بخلقه البقرة بهذا الشّكل يقول لنا أن نستعملها لغرض الحليب، وبخلقه الفرس بهذا الشّكل يقول لنا أن نستعملها لغرض الرّكوب، ومع ذلك

بإمكان أي إنسانٍ أن يتجاهل كلام الرّبّ ويركب البقرة أو يعيش على حليب الفرس، ولكنّه سيدرك قريبًا أنّه مخطئ!

- آآ، فهمت الآن.. أنت تقولين أنّ الخلق هو هكذا.. مثل رموز كلامٍ لما يريده الرّبّ المسيطر. أو بإمكاننا أن نقول أنّ الرّبّ يخاطب العقل بالفعل لا بالقول، أو ربّما يجب أن نستعمل العقل لنفهم ما يقول.. أفهمت شيئًا من حديثي؟

- نعم، تمامًا!

- حسنًـــا، مــا.. علاقة كلّ هذا بالرّغيف؟؟

وضعت يديها على خصرها قائلةً: لِمَ يأكل الكلب بفمه؟؟

ضحك جيوڤاني وسكت مبتسمًا وكأنّه يقول فهمت ما لا أريد فهمه، فأردفت كاترينا: لقد فهمتَ قصدي.. أنت حين تجبر إنسانًا بيدين على الأكل بفمه، فأنت تخالف أوامر الرّبّ وتفسد ما خلقه، ولذا فهو لن يستمع إليك.. على أقلّ تقدير.

نظر جيوڤاني بعيدًا، وبعد صمتٍ عميقٍ قال:

- أحيانًا لا أدري، أإذا فعلًا كلّمني الرّبّ وأمرني؛ هل سأسمع كلامه وأطيعه؟

إذا قال لي لا.. لا تشرب مثلًا؛ هل سأتوقّف عن الشّرب؛ رغم أنّ الشّرب هو المفضّل لديّ؟؟

هتفت: هذه هي العبادة يا جيوڤاني! أن تفعل ما يقوله الرّبّ، وتبتعد عمّا نهاك عنه.

هرب بعينيه نافيًا: هذا صعب!! أريد أن أكون أقوى، لا أكثر ذلّة..

تنهّدت كاترينا وسكتت لفترةٍ قبل أن ترفع رأسها وتقول بمكر:

- هل ينبغي أن أنتظر إلى الغد لأسألك عن الرّغيف، وأعرف نتيجة هذا الحديث؟

- حينها سأجيبك: لا تطعميه أساسًا؛ لأنّي غضبت عليه!

زفرت كاترينا مسندةً رأسها وقد أعياها عناده، بينما أطلق هو ضحكةً شامتةً وقال:

- من الّذي يجبرك أن تقاتلي عنهم من الأساس؟؟ ما دمت بخير، فاتركي الشّقاء لأهله!

- ألست أنت من قال أنّ جوناثا كان يؤذيك في صغرك ولم تجد أحدًا قويًّا يحميك؟

- وما زال.

- إذًا ما الّذي يمنعك أن تكون أنت القويّ بالنّسبة لغيرك وتخفّف عنهم ما هم فيه؟؟

- لا شيء.. ولكن عندما أقهر الآخرين وأنتقم منهم دون حساب، أحسّ بنشوة القوّة! أمّا إذا فكّرت بهم، فسأصير مثلهم، ولن أكون قويًّا أصلًا.

كشّرت باشمئزاز: تؤلم الآخرين لتحسّ بالنّشوة؟؟

رفع كأسه يضحك لها ويقول: بالضّبط، أسلبهم سعادتهم لأضمّها إليّ!

نهضت كاترينا قائلةً بغضبٍ وإحباط:

- لا عتب على جوناثا إذًا، فلو كنت مكانه لعملت مثله.. تصبح على خير.

أغلقت الباب الخارجيّ وخرجت مطرقةً، ومشت بضعة خطواتٍ قبل أن تدرك أنّها على وشك الاصطدام بشخصٍ أمامها، فتراجعت رافعةً رأسها لترى نفس عينيّ جيوڤاني ولكن في أقصى نظرات النّرجسيّة، فتمالكت نفسها أمام الزّعيم:

- عفوًا، يا سيّدي.. لم أنتبه أنّك أمامي.

تحوّلت ملامح الزّعيم وتلاطف:

- أتدرين؟ أعتقد أنّ لقائي بك ليس عبثيًا.. لقد كان يدور في خلدي سؤالٌ عن الرّبّ، وقلبي متعطّشٌ لسماع إجابةٍ تنتشله من ظلامه.

تلعثمت كاترينا وقد أدركت أنّها وقعت في مأزق؛ إن أجابته فقد يكون فخًّا، وإن لم تجبه فقد تكون ضوّعت شخصًا؛ هدايته ستنقذ العشرات..

ولكن أخيرًا غلب على ظنّها أنّه كذّاب:

- المعذرة يا سيّدي، فأنا لم أعد أؤمن بالرّبّ كما تعلم.

- أعلم.. ولكنّك كنت راهبة، بإمكانك أن تتذكّري وتشفي ظمئي.

- لا أدري إن كنت سأتذكّر شيئًا قديمًا لم يعد يهمّني كهذا..

ضحك جوناثا بخبثٍ ولمس خدّها بأصبعيه ناظرًا إليها بعينين ضيّقتين ومكشّرًا: هذا القناع الذي ترتدينه، ألا تشعرين بوزنه الثّقيل على قلبك؟!

عيناكِ ما زالتا تبحثان عن سماءٍ لم تعد تراكِ، وربٍّ لا يهمّه أن يرعاك.

ومدّ مخلبه يرفع -بطرف ظفره- عقد اللّؤلؤ عن رقبتها يلعب به بخبث: لنرى متى ستتحرّرين من لآلئ الملكوت!

شدهت كاترينا من معرفته برمزها السّرّيّ، وكم أربكها أنّها مكشوفةٌ أمامه ككتابٍ مفتوح.

ابتلعت ريقها أخيرًا: هل تعطيني الأمان لأسألك سؤالًا واحدًا فقط؟

طقطق جوناثا بفمه متباهيًا بقوّته، وبلا مبالاة: أعطيك.

- يبدو لي من نوع كلماتك أنّ لك تجربةً دينيّة؛ ولست مجرّد ملحد، فهل هذا صحيح؟؟

ابتسم ببرود: أعطيتك الأمان، ولكنّي لم أقل أنّي سأجيبك. ولعب بلحيته: آه، دعينا نلعب، ما معنى' اسمي' يا كاترينا؟

وأردف هازئًا: كاترينا: الصّافية، 'الّتي أحرص على صفائها بنفسي'!

تجاهلت سخريّته من اسمها تفحصه بعينيها القلقتين: جوناثا، يوناتان، يعني " يهوه يعطي".

قطر الخبث من وجهه: إذًا هل أعجبتك "عطيّة" ربّك لك؟؟

وانفجر متبجّحًا: من الأفضل لك أن تسألي عن نوع الخطيئة الكبيرة الّتي سأجعلك تقترفينهـا أيّتها الصّافية.. غدًا.. لم لا؟! غدًّا يوجد لدينا وقت.

وفتح عينيه بالكامل وقد كاد وجهه يلاصق وجهها، فتتأتأت: أنت لا تكترث لألمي.. ولا حتّى لموتي بطبيعة الحال، ولكن..

عندما يتعلّق الأمر بالدّين فتكترث، وتجهد أن تنقذني من غبائي!!

شدّ ظهره ولعب بذقنه: لا، لا تفهمي الأمر بهذه الطّريقة المعيبة؛ فأنا فعليًا لا أكترث إن كان غباءك قد صرعك أو لا.. إنّما السّبب في حرصي على كفرك، هو تغيير نوع القهر فقط؛ فكلّ شخصٍ يعطيني لذّة أن أحطّمه بطريقةٍ مختلفة.. فهمت؟

ومضى جوناثا ناغزًا كتف كاترينا بمخلبه وهو يتهكّم: أنصحك ألّا تنامي، بل اقضي اللّيلة في الدّعاء، عسى أن ينقذك الرّبّ من الغد؛ فهو يومٌ عصيب!!

همست كاترينا لنفسها وحرس جوناثا يمرّون بجوارها كظلالٍ صامتة: وكأنّه سمع جيوڤاني!.. أم هو الّذي علّمه أساسًا؟!

نفس الإجابة الغبيّة؛ التّلذّذ بقهر الآخرين.. يا لها من حجّة!

وزفرت قلقةً وهي تدلك كتفها: آمل أن يمرّ الغد بسهولةٍ على أيّة حال.

الفصل الرّابع

ثلاثةٌ ضدّ الزّعيم

عاد جيوڤاني من السّلب متعبًا، زفر وهو ينظر نحو الشّمس المائلة نحو الغروب وهو يترجّل عن حصانه. دخل غرفته ليرتاح ويأكل؛ وليستعدّ ليعوّض عن تعبه بليلة نشوةٍ أخرى في الحانة المجاورة.

ابتسم وهو يتذكّر خديناته المتمايلات، وكم اشتاق لهنّ بين ساعديه..

صحيحٌ أنّه حُرم من فتياته منذ أشهر، ولكنّه في النّهاية وجد طريقه ليعود إلى مجونه في الحانة منذ أشهرٍ أيضًا..

ارتمى على الكرسيّ في غرفته الخارجيّة بيدين متأرجحتين، وقدماه ممدودتان بعد نهارٍ طويل، وقد سارع جورفورس بخلع حذائيه وغسل قدميه كما العادة.

تثاءب جيوڤاني متمطّيًا، ثمّ أخذ يحدّق في وجه جورفورس المتورّم وعيناه المزرقّتان، تذكّر كيف أنّه البارحة ركله على وجهه بكلّ قوّته، لأنّه تجرّأ وضحك حينما كان يكلّم كاترينا، فابتسم لنفسه:

- نسيت كاترينا أن تقول لي أنّ الرّبّ خلق الوجه في الأعلى؛ ليكون في الأعلى لا لتركله الأقدام!

أحسّ كاتي كالبلهاء؛ لا تعرف أتحبّني أم تبغضني.. كم أنا محظوظٌ أنّي انتزعتها من

أهلها؛ وإلّا لما نظرتْ إليّ في حياتها!

وضحك مسرًّا: يا لها من بنت، رغم أنّها تعاكسني في كلّ شيء، إلّا أنّني أميل إليها أكثر من كلّ الحسناوات!

وتأمّل متذكّرًا كيف اعتنت به منذ شهرين إذ أصيب بسهمٍ في كتفه..

حينها فتح عينيه وسط الحمّى؛ ليُسحر بحبّها الصّادق المتألّق في عينيها وهي تسهر عليه مصرّةً أن تفعل ذلك بنفسها، تلك اللّحظة هي ما جعلته يقسم أن يغيّر نظرته إلى النّساء، ويتخلّى عن ممارسة العنف والتّعذيب بحقّهنّ.

وبعد أن تعشّى جيوڤاني وتطيّب، خرج من غرفته منشرح الصّدر يريد الحانة، نزل من الدّرج قاصدًا باب الخروج حين تناهى إلى أذنيه صوت كاترينا يعاني من مكانٍ ما..

التفت مكذّبًا أذنيه ومضى خطوةً قبل أن يسمع الأنين ثانيةً ويغلب على ظنّه أنّه صوتها، فاتّخذ قراره ليتحقّق من الأمر، واقترب من الغرفة الرّئيسيّة عاجزًا عن الإنصات إذ كان الحارسان هناك يتناقشان، فتململ وجاء سؤاله قاطعًا للشّك: هل كاترينا هنا؟

- نعم يا سيّدي، منذ الصّباح.

ضيّق جيوڤاني عينيه واجمًا، ودفع ساقيه داخلًا إلى الغرفة الكبيرة، ليجد الزّعيم جالسًا على كرسيّه متغطرسًا كعادته، وما إن أعطى أوامره في المسألة الّتي بين يديه، حتّى التفت إلى جيوڤاني بصوتٍ متعاطف: آه، جيوڤاني! جئت في وقتك! أو ربّما تأخرت قليلًا؛ زوجتك على الكرسيّ تبكي منذ الصّباح.

كلّ ما عليها أن تسحب هذا الحبل ثمّ تذهب إلى غرفتها، لكنّ المسكينة لم تستطع.. وأنا، كما ترى، أعاملها بكلّ لطف؛ منتظرًا إيّاها حتّى تستطيع فعلها دون أن أرغمها على شيء!

ظهرت أنياب جوناثا في بسمته العريضة، بينما حوّل جيوڤاني نظره ليرى كاترينا جالسةً مسندةً رأسها على الجدار، كالّذي ينظر نحو الأعلى، لكنّها قد غطّت وجهها بيديها، وجسدها يهتزّ من حالة الانهيار الّتي هي فيها..

وكلّ ما كان في جوارها هو 'مشنقة'، في نهايتها امرأةٌ من العبيد مقيّدةً؛ يبدو عليها العذاب والإعياء.

وهنا سمع صوت جوناثا وهو مسندٌ رأسه على قبضته ذات الأظافر الحادّة: لنفترض أنّ خادمك يسيء خدمتك، ماذا كنت لتفعل به يا جيوڤاني؟

قبض يده: سأعاقبه بكلّ شدّة حتّى يحسن التّصرف.

- وإذا تعجرف إضافةً إلى تقصيره، فماذا ستفعل؟

ضرب الأرض: لن ينجو من قدميّ!

تهكّم جوناثا بإشراقةٍ مصطنعة: آه، أحسنت، لِم لم تُعلّم كاترينا ذلك حتّى الآن؟؟

خمدت لهجة جيوڤاني: إنّها مجرّد امرأةٍ ضعيفة.. أنا من يعمل هذه الأشياء.

- إنّ جوليا امرأة، وهي تفعل أكثر من ذلك منذ صغرها..

أخشى أنّ زوجتك لديها مرضٌ في قلبها يدعى الدّين؛ يمنعها من أن تحسن التّصرّف، ويجب أن نسرع لنشفيها منه قبل فوات الأوان.. صح يا جيوڤاني؟

أمام حدقتي الزّعيم الثّاقبة من بين جفونه الضّيقة، جاء جواب جيوڤاني: بالتّأكيد! بم

تأمرني؟

همس الزّعيم آمرًا بعينين حادّتين: اجعلها تشنقها!

دار جيوڤاني متنهّدًا نحو كاترينا، ووضع يده على كتفها وهمس: هيّا، إنّها ستموت في كلّ الأحوال، فلا تضيّعي نفسك معها..

انتفضت كاترينا منزلةً كفّيها عن وجهها لتنظر إليه بحدّةٍ من عينين حمراوين وتقول بغضبٍ مقهور: ما الّذي تفوّهت به يا جيوڤاني؟! لعلمك، أنت تتكلّم عن إنسانٍ مثلك، لـ...

تحوّل بعينيه: كاتي!! هل فهمت ما قلته لك؟!

هيّا إنّها مجرّد حركة، أمسكي الحبل أعلى ما تستطيعين واتركي وزنك يفعلها..

جذب جيوڤاني كاترينا المنهارة بشدّةٍ عن كرسيّها، ورماها بنظرةٍ قويّةٍ قبل أن يضع الحبل في يديها ويدفعها هامسًا في أذنها:

- انظري إلى جوناثا، إنّه هو من يفعل ذلك وليس أنت؛ لو لم يكن موجودًا لما حدث شيء.. هيّا!

دقّ قلبها وهي تحاول تأخير الأمر وقد رجفت يداها وهما تتلمّسان الحبل صاعدتين إلى أعلى ببطءٍ، قبل أن يجفلا على تعليق جيوڤاني في أذنها:

- إذا تردّدتِ أو تركتها بسرعةً أو لم تكن قويّةً ما فيه الكفاية، فستتعذّب أكثر..

احترقت كاترينا مع تلك اللّحظات الّتي قدّت من جمر، وأشاحت وجهها كما لو لفحته النّار، وقلبها يضجّ باكيًا: أيّها الرّبّ هذا ما يفعله جوناثا وليس أنا!!!!

وأفلتت ساقيها المرتعدتين ليرتمي وزنها خاتمًا النّفس الأخير في حياة إيزابيلا، الّتي من حسن حظّها أنّها عجزت لحظتها عن سماع صوت قهقهة جوناثا الّذي كان يرشف كأسه منتشيًا وفخورًا بانتصاره على ضمير كاترينا.. كاترينا الّتي وقعت تحت رحمة ضميرها ترجف على الأرض ودموعها أنهار.

وبعد دقائق، حين تأكّد جيوڤاني أنّ إيزابيلا انتهت، أمسك كتفي كاترينا قائلًا: هيّا، انهضي إلى غرفتك الآن.. يكفيك اليوم.

لم تجب كاترينا أو تبدي حراكًا، فازدرد ريقه وشدّها لأعلى ليجد أوصالها كدميةٍ قماشيّة، فصعد الدّم إلى رأسه وهو يرمي أنامله لتجسّ رقبتها، وخرج زفيره مرتاحًا حين تأكّد أنّها فقدت الوعي فقط..

ولكن، إضافةً إلى فشل الماء في إنعاشها، فشل جيوڤاني في فكّ يديها المتشنّجتين عن الحبل وكأنّ أعصابها لا تزال متشبّثةً بحياة الرّاحلة، فعقد حاجبيه وهو يعطي الحبل ضربةً بسكينه، ثمّ جرّ زوجته محاولًا أن يرفعها ووزن جسدها النّائم يتعنّت ويأبى.

كانت عيون المتواجدين تراقب المشهد وتتظاهر بالصّمت لتبرّئ أصحابها، بينما زعيمهم يتشدّق متضاحكًا مع جوليا: ترى هل الحبل أصعب أم السّكين؟ كن معنا يا جيوڤاني لنعرف في المرّة المقبلة!

وعقّبت جوليا ساخرة: يجب أن يكون ما في بطنها غرابًا، إذا جمعنا بين الدّجاجة والذّئب

أقصد!

تجاوز جيوڤاني الموقف وهو يكاد أن يكسّر أسنانه من شدّة عضّه عليهم، واستمرّ بسحب كاترينا إلى أن جاء جورفورس وساعده في حملها حتّى وضعاها في فراشها، وأحضر جورفورس ماءً دافئًا وأخذ جيوڤاني يسكبه على كفّي كاترينا وهو يفركهما يحلّ أعصابهما عن الحبل، وحين انتزع الحبل، رشق الماء بغضبٍ على وجهها، ففتحت عينيها لاهثةً من فورها وقد خنقها الفزع: هـ.. هل ماتت؟؟

زفر جيوڤاني يتخلّص من أحد فقّاعات غليانه: كاترينا! هذا يكفي.. إنّي أقتل كلّ يومٍ تقريبًا، ولا يخطر لي أن أفكّر بالأمر!

ردّت كاترينا منتحبةً وكأنّها لم تسمعه: يا يسوع!! ستبقى روحها تلاحقني إلى الأبد.. يا لتعاستي.. يا لخيبتي..

وانفجرت بالبكاء قبل أن تجد كفّ جيوڤاني يرتطم بوجهها وهو يزمجر: إن لم تخرسي الآن فسألحقك بها!!

غصّت كاترينا بدموعها وهي تنصت إلى لهاث جيوڤاني، الّذي أردف حاقدًا: إذا كنت نصفي الآخر، فعليك أن تعرفي كيف تتصرّفين؛ لقد جعلت الجميع يهزؤون بي ويسخرون منّي، ومن ابني.. لن أسامحك!!

وجّهت إليه سهام نظراتها والكلمات السّاخنة تتدفّق: هل نصف جسدك الأعلى مثل نصفه

الأسفل؟؟

إذا كنت نصفك فليس بالضّرورة أن أكون نسخةً منك.

- حتّى لو.. لا أسمح لك أن تتصرّفي بهذه الطّريقة المحرجة!!

مجرّد حركة! ما وجهة النّظر أن تبكي، وتنتحبي، وتفقدي وعيك، وتجعلي من نفسك ومنّي أضحوكة لأجلها...؟؟

فانتفضت جالسةً كالصّقر المنقضّ نحوه: جيوڤاني، لم لا تستطيع أن تفهم؟؟ هذه ليست حركة، هذا موت، هذا ألم، هذه نهاية.. كان لديها أحلام، كان لديها..

صرخ جيوڤاني: فلتذهب إلى الجحيم!!!

وعلى صدى صرخته، تجمّدت أطراف كاترينا وهي تجيب بصوتٍ ميّت:

- وأرجو أن تذهب أنت معها..

اعلم أنّي أكرهك.. ولا أريد حتّى أن أكون جزءًا منك..

اقتلني أو عذّبني إن شئت.. مهما حدث لي فأنا أستحقّ؛ لقد اشتريت سلامتي بعذاب الكثيرين.

رشقته بنظرات الحقد قبل أن تدفن وجهها بين كفّيها، وتغرق بالنّحيب؛ تصيح وقد فقدت رشدها وباعت كلّ شيء: كلّ هذا بسببك.. أنت.. أنت الـ*** الّذي جاء بي إلى هنا، وتريد منّي أن أحبّك؟! كيف أحبّ مجرمًا، أرعنًا، لعينًا، بغيضًا، مثلك؟؟

انتظر وسترى كيف سيرمي الرّبّ بك في الجحيم.. على رأسك.. وستدفع ثمن كلّ ما فعلته..

كلّ كبيرةٍ وصغيرة.. كلّ شيء.. الواحدة تلو الأخرى.. ومرّاتٍ تلو المرّات.. ستزهق روحك دونما موت، وستذوب عيناك دون أن ينفعك بكاء...

- اخرسيييييي......!!

رنّت صيحة جيوڤاني في الغرفة ولا عجب، فقد استعمل فيها كلّ قوّته ممسكًا رأسه، وهو يلهث حتّى الاختناق، أمّا كاترينا فقد كشفت وجهها المتوحّش ببسمةٍ مكشّرة وعينين تكادان تجحظان، وامتدّت إليه يداها بانكماشٍ شرسٍ في أصابعها وصوتها المتشفّي يصدح:

- هيّا خذني واقتلني.. عذّبني وتلذّذ بقهري.. وسنلتقي ثانيةً، سنلتقي حين ستنقلب الكفّة لي..

افقأ عينيّ وانتظر حين سأفعلها بك.. مزّق لحمي بالطّريقة الّتي تشتهي أن تعيشها فيما بعد.. ارمـ.....

سكتت كاترينا رغمًا عنها إذ أقفل جيوڤاني فمها بقوّة كفّه وهو يتمالك أعصابه:

- يكفي، يكفي، يكفي.. ما الّذي دهاك؟!!

ونفث أنفاسًا ساخنةً قبل أن يسيطر على يده ليمسح بها شعرها؛ يحاول أن يرتق عواقب تصعيده الّذي افتعله في الوقت الّذي كانت هي أحوج ما يكون إلى صدره ووسع صدره. ضاقت جفونها ترويان الأسى لعينيه، وانقلب اتّجاه حاجبيها بغتةً وهي تهمس من بين أصابعه: إن كنت رجلًا، فأخرجني من هذا المكان.. أخرجني مثلما أدخلتني. وأكّدت بنظرةٍ

متشكّكة: إن كنت رجلًا.

وسالت دمعتاها العاجزتان على أصابعه الّتي كانت ترعد مع جسده بسبب قمعه لتفشّي غضبه، وتحوّلت ملامحه قبل أن يصدَر همسه باهتًا:

- إن أخرجتك، فسأحلّ محلك.. سأحكم على نفسي بالتّعذيب.. سـ..

أغمض جيوڤاني عينيه بشدّةٍ تحت وطأة الفكرة بينما بكت:

- ليس ذنبي؛ إنّه خطؤك.. لقد كنت تعلم ما سيحلّ بي مسبقًا.. أنت من انتزعني من يدي أبي.. فمن لي رجلًا غيرك الآن؟؟

سحرت كلماتها الأخيرة كبرياء جيوڤاني في عنفوانه؛ فعلى وقعها انهارت أعصابه، وانسحبت يداه لتعصرا بعضهما وهو يحدّق فيهما بنظراتٍ ثابتة؛ وكأنّه ينتظر نتيجة الصّراع، وحين تشابكت يداه همس بصوتٍ هادئ: امسحي دموعك وانهضي، سأوصلك إلى أبعد مكانٍ أستطيع وبعدها ستكملين لوحدك.

لا تفكّري بالعودة إلى أهلك أو باللّجوء إلى أيّ دير، لئلّا يمسكوا بك..

لن أكذب عليك، ستكون مخاطرة.. سأوقع بنفسي وقد تقعين بعدي.. ولكن هذا أقصى ما أستطيع..

قبل أن تستطيع كاترينا أن تصدّق ما سمعت، كانت جيوڤاني قد انتزعها من فراشها وأجلسها على الكرسيّ والذّهول واضحٌ على ملامحها، وأحسّت شعرها يشدّ خلفها للحظةٍ قبل أن يختفي إحساسها به بضربةٍ سريعة..

وفتح الباب ليدخل جورفورس بهدوء مع ثيابٍ لجيوڤاني، وتحولّ مظهر كاترينا خلال دقائق إلى مظهر شابٍّ لا يشبه الشّباب إلّا بالثّياب!

وضع جيوڤاني أحد قبّعاته على رأسها ولثّمها قائلًا:

- لا يمكن أفضل من هذا.. أرني كيف تمشين.. حاولي أن تقلّدي مشيتي!

حاولت كاترينا أن تمشي كالرّجال، ولكنّ بطنها المنتفخ لم يكن ليدعها تفلح، فزفر جيوڤاني وتذمّر:

- ما هذا الحمل اللّعين؛ كلّ هذه الحالة العصبيّة الّتي كنت فيها، ولم يتأثّر؟!

- إنّه يتحرّك في بطني..

أطرق جيوڤاني يحكّ رأسه بعنفٍ أدماه عندما طرق سمعه تعليقٌ مفاجئٌ من خلفه: إنّها فكرةٌ جيّدة، لكنّها يستحيل أن تكفي..

قطّب جيوڤاني من فوره والتفت ليصبّ الويل على جورفورس الّذي تجرّأ أن يضيف أيضًا: لقد كنت أفكّر كيف أهرب، ووجدتّ خطّةً جيّدة؛ لولا أنّها بحاجةٍ لشخصٍ يضحّي لضمان فراري، ولذا أراني سأبقى هنا..

ونظر نحو كاترينا: ولكنّي الآن أستطيع أن أكون الشّخص الّذي سيضحّي لأجلها..

وعلى غير العادة، لم يضرب جيوڤاني جورفورس أو يكيل له أيّة شتيمة، بل أجابه بهدوءٍ حازم: وهل أنت فعلًا مستعدٌّ لتضحّي؟

- نعم، فأنا لا أعيش لأجلي أساسًا، وإذا رحلتما فإنّ الأمور ستصير أصعب عليّ.

عدّل جيوڤاني وقفته ضاغطًا على كبريائه: وما هي خطّتك؟

لمعت عينا شابٍّ دفن ذكاؤه تحت مسمّى العبوديّة، وقال يستلذّ بفكرة أنّ السّيّد يتعلّم منه:

- سأزيد نسبة البراندي في مشروب الحرس، وسأقوم برشّ الزّيت على طول نقاطٍ معيّنةٍ في البيت بين الغرف، وحين يغمق اللّيل سأقوم بإشعالها الواحدة تلو الأخرى بحيث يستنفر الجميع لإيجادي..

حتّى إذا اشتدّت النّار وطاش الجميع، ستخرجان نحو "مونتيس-فيروس" من نافذة الغرفة اليمينيّة الّتي بجوار البهو، فالباب سيبقى خطرًّا كونه رئيسيًّا..

حدّق جيوڤاني به متوجّسًا: ولم هذه النّافذة بالذّات؟

- لأنّها الأبعد عن الغرف الّتي يتواجد فيها الزّعيم.

تفحّص جيوڤاني المكان في خريطة رأسه معلّقًا:

- تمام، وبعدها من خلال ممرّ الجبل الغربيّ سنخرج نحو 'مونتيس-فيروس'، طريقٌ طويلٌ ووعرٌ عليها؛ لا يمكن أن تخرج لوحدها، يجب أن أكون معها..

تدارك جورفورس خطّته: ولكن.. حسنًا.. ما دمت تريد العودة، فيجب ألّا تعود من نفس الطّريق، أو يراك أحدٌ هناك، فأنت تشبه الزّعيم ولن تغيب عن أحد!

- صحيح، وبمجرّد أن يجدوني فسيمشّطون المنطقة بحثًا، ويستحيل أن أكون قد ابتعدت.

مسح جيوڤاني رأسه يفكّر وعيناه لأعلى ثمّ أردف مشيرًا بأصابعه: سنفترق عند

مونتيس-فيروس، ثمّ سأذهب باتّجاه 'براتوس' وحيث يجدوني سأكون قد منحتها وقتًا للابتعاد بالاتّجاه المعاكس.

- نعم، يفضّل أن تجعلها تركب على عربة.. فالحامل تمشي ببطءٍ شديد.

وهنا صحت كاترينا من حالتها العصبيّة وعادت لعاطفتها لتندفع بقلق: هل يعني هذا أنّكما ستضحّيان بحياتكما لأجلي؟؟ لا أريد أن..

سرعان ما قاطعها جيوڤاني: دعك منّا يا كاتي.. عليك أن تبذلي جهدك أنت الأخرى، وإلّا فبذلك ستضيّعين حياتنا بلا فائدة.. وإن كنّا سنصير أرواحًا بعد الموت، فسنطاردك للأبد!!

ابتسم جيوڤاني رغم أنّ جبينه مقطّب، وللمرّة الأولى أحسّت كاترينا بشعورٍ غريب غمرها للأعماق، وجعلها تندفع لتعانق جيوڤاني بكلّ قوّتها وتبكي: لا أعرف كيف أشكرك.. أرجوك آمن بالرّبّ وانوِ التّوبة.. عساك تدخل السّماء..

لن أحتمل أن أكون سببًا في ذهابك إلى الجحيم!!

زفر جيوڤاني مستهجنًا: كاتي!! هل أنت نفسك منذ قليل؟؟ هل الجحيم على مزاجك؛ عندما تسخطين أستحقّها، وعندما ترضين تحاولين إنقاذي منها؟!

احمرّ وجه كاترينا وتعلّقت برقبته أكثر وهي لا تعرف أتضحك أم تبكي، وطالت اللّحظة قبل أن يمسح جيوڤاني شعرها ليفكّها عنه ويلتفت إلى جورفورس هاتفًا:

- هيّا!

ابتسم جورفورس بفخرٍ رافعًا عينيه: سأطرق الباب ثلاث طرقاتٍ مباشرةً قبل أن أبدأ بإشعال النّار الأولى.

- حسنًا، سنكون جاهزين بانتظارك.

وفي جنح الظّلام خرج جيوڤاني يسحب كاترينا من تلك النّافذة، وبدت النّار من الخارج على وشك أن تخرج عن السّيطرة في أحد أجزاء البناء الكبير، بينما كان الجميع طائشين؛ منهم من يحاول إطفاءها، ومنهم من يولول بكلامٍ مخبولٍ دون أن يفعل شيئًا، وآخرون أرتهم إيّاها البراندي جحيمًا يجب أن يهربوا منه بأيّ طريقة!

وبالفعل أحسنا استغلال الموقف وانسلّا بهدوءٍ نحو الممرّ الجبليّ، وحينا وصلا وقفا أمام التّحدّي الأكبر؛ فرغم وعورة الممرّ كان على جيوڤاني نقل كاترينا دون أن يؤلمها وبأقصى سرعةٍ ممكنة، دون أن يفكّر بالاعتماد على تجربتها في البيئة الوعرة؛ وهي الّتي قضت طفولتها في الدّير..

وفي إحدى اللّحظات الحرجة، وبينما كان جيوڤاني نصف حاملٍ لكاترينا على المنحدر، أجفله صوت رجلٍ من خلفه:

- ألست ويلياموني الصّغير؟ لماذا جئت من هذا الطّريق؟

بالكاد وضع جيوڤاني كاترينا من يديه قبل أن يلتفت ويقول وقد استلّ سيفه:

- ليس من شأنك!! حاول أن تنقذ حياتك!

استلّ الآخر سيفه وهو يخشى من تصعيد الموقف:

- هدّئ من روعك.. لم أقصد إزعاجك.. أنا مجرّد حارسٍ هنا حسب أوامر الزّعيم.

- وهذا حكم عليك بالموت!

مونتيس-فيروس

وانقضّ جيوڤاني عليه ينازله بالسّيف، وكاترينا تغطّي عينيها فيما جسدها يرقص رعبًا على صوت صليل الحسامَين، وقفزت أعصابها ذعرًا حين شدّت يدٌ كتفها:

- هيّا، يجب أن نسرع أكثر.. لقد صار هناك دليلٌ علينا؛ دمه صبغ المكان.. باتت السّرعة أضمن من أن أضيّع الوقت بإخفاء جثّته..

هرع جيوڤاني مسرعًا بها متجاوزين الجثّة، حتّى وصلا إلى طريقٍ أقرب للمستوي، فمسح جبينه ووقف أمامها يحاول أن يرفعها على ظهره حين ذبحته بصرختها: " بطني، لا أستطيع، آآه"، فانكسر وعاد بها للمشي يحثّها عل الإسراع، وهو يسبّ ويلعن هذا الحمل العنيد..

وبعد طول عناءٍ، وصلا لمفترق الطّرق المؤدّية إلى مونتيس-فيروس وبراتوس، فالتقط جيوڤاني أنفاسه خاتمًا ذلك بزفرةٍ طويلة:

- لنمشي قليلًا على طريق مونتيس-فيروس حتّى نجد عربةً ما..

ترنّحت مستندةً عليه: آسفةٌ لأنّي أتعبتك بمشيي البطيئ، إنّي مرهقةٌ جدًّا الآن..

أطرق متؤسّفًا: لا تتأسّفي.. إنّ الحمل كان خطئي أنا؛ كان من الواضح أنّ جوناثا لن يتركك، ومع ذلك أقدمت.

ثمّ زفر موعزًا بيأس: إن اكتمل الحمل بعد كلّ هذا، فلا تخبري الولد عنّي، ولا تسمّيه باسمي وكأنّي لم أوجد أبدًا..

لطمت كلماته كاترينا الّتي لم يخطر لها أن تسبق بفكرها اللّحظة، فتحشرج صوتها وهي تعانق ذراعه وقد لذعها الفراق: جيوڤاني.. حبيبي.. سأفتقدك!

طأطأ بصوتٍ بائس: أرجو أن تنجحي بالهرب لتفعلي.. أو إنّنا سنموت معًا.

وناداهما صوت عربةٍ من بعيد، فتركها راكضًا يصيح حتّى أوقفه، ثمّ جاء بكاترينا بسرعةٍ إلى عربة القشّ، وفتح الجزء الخلفيّ منها، ومدّ يده ليساعد كاترينا على الصّعود حين..

ارتمت في حضنه تعانقه بكلّ قوّتها وتبكي، وطبعت أخيرًا قبلةً حارقةً على خدّه الشّاحب، وهي تدرك أيّ صراعٍ يدور في روحٍ لطالما وسمت بالنّرجسيّة وحبّ التّملّك، فمسحت وجهه برقّةٍ وعيناها تذرفان وهمست: سأصلّي لك كلّ يومٍ يا جيوڤاني لينقذك الرّبّ..

وأنت أيضًا؛ تذكّر أنّ الرّبّ الّذي يعلم همس روحك، يسمعك!!

لم يبتسم، بل جعلها تصعد العربة، وأغلق الجزء الخلفيّ وعيناها لا تزالان معلّقتان بعينيه تكفكف دموعها وقد صرعها الشّعور بالذّنب..

وحين مشت العربة قال لها وسط ضجيجها: لست بحاجةٍ لأن أكلّم الرّبّ، لأن جوناثا سيرسلني إليه.

ومضت العربة، وكاترينا -بثياب جيوڤاني- ترسم في ذهن الأخير آخر صورة وداعٍ ملوّحةً لزوجها السّابق؛ الّذي رمقها بنظرةٍ أخيرةٍ قبل أن يركض راجعًا نحو قرية براتوس بأقصى سرعة..

سابق نفسه قبل أن تنتبه أنّ مفتاح نجاته من عذاب جوناثا يبتعد خلفه، عدا بأقصى قوّته وكأنّه يهرب من الأفكار السّوداء الّتي كانت تلاحقه؛ أكثر من عشرين عامًا عاشها وهو يرى جوناثا يقتل ويعذّب ويقهقه منتشيًا فوق الجثث، فهل سيكون التّالي؟؟

وبعد ساعةٍ من الجري، وصل جيوڤاني لاهثًا إلى بدايات براتوس وإلى نهايات عقله، فقد كان قد أوشك على الانفجار، ووقف بعد أن أعياه التّوتر وأرهقه الرّعب، ورفع رأسه بعد أن مسّه الجنون وصار يصرخ لا يعرف أين يذهب بنفسه؛ لا هو أسيرٌ ولا هو حرٌّ.

وعلى جذع شجرةٍ خشن، بدأ يضرب رأسه بضرباتٍ متلاحقة، عساه يخرس تلك الأصوات التي تضجّ في عقله ويسكّن نار الذّعر التي تأكل قلبه. وحين اختلط عرقُه بخدوشٍ داميةٍ بدأت تنبض بالألم، أدرك عبثيّة ما يفعل؛ فالشّجرة لا تعرف دواء الرّأس كما يفعل السّيف.

وبالفعل، سحب سيفه بِيَدٍ ترتجف، وأسنده إلى الجذع وهو يلهث، ناظراً إلى النصل الذي لطالما حصد به أرواح الآخرين، والآن حان دور روحه، وجاءت همسته بين لهاثه المتقطّع:

- هيّا، مجرّد ضربةٍ يا جيوڤاني.. أليست أهون من أن تسمع قهقهة جوليا؟!

أغمض عينيه وهو يظنّ أنّه وحيد حين جفلت أعصابه على صوتٍ غريب:

- لا، ليست أهون!

التفت بعنفٍ وصاح لاهثًا: من؟ من هناك؟ أيًّا كنت، لا شأن لك بي!

- أجبت على سؤالك فقط.. إن قتلت نفسك من أجل ألّا تسمع سخريّتها، فقد ساعدتها أن تبلغ غاية ما تريده منك!

ثار جيوڤاني ولوّح بسيفه: أنت لا تفهم الأمر، وتثرثر.. أظهر نفسك إن كنت شجاعًا!

وجاء الرّدّ هادئًا: أغمد سيفك أوّلًا.

حدّق جيوڤاني بنصله من بين قطرات الدّم الّتي على وجهه، ثمّ غالبه حتّى أغمده ويده لا

زالت محافظةً على مقبضه: حسنًا، أرني نفسك!

فلاحت لجيوڤاني يد رجلٍ تلوّح من خلف أحد الأشجار، فخطا نحوها خطواتٍ حتّى وقعت عيناه عليه، رجلٌ كهلٌ ضخم الحجم بسترةٍ جلديّة جالسٌ تحت الشّجرة؛ هذا ما استطاع تمييزه في تلك اللّيلة المظلمة.

ورأى وجهه ينظر نحوه وهو يقول بصوتٍ مستغرب:

- أنت شابٌّ صغير!! تريد الانتحار؟؟

زفر جيوڤاني وأشاح بوجهه مجيبًا بأسنانٍ متصادمة: لا مكان لي في الحياة.

- انظر، هذه الأرض الشّاسعة.. لا مكان لك فيها؟!

فردّ منفعلًا وقد فقد رشده:

- لي أبٌ متسلّطٌ لا مهرب لي منه.. سيكون رجاله هنا خلال دقائق!

هزّ الغريب رأسه: أُشكُه إلى من هو أقوى منه!

فزمجر جيوڤاني بكلّ قوّته: لا أقوى منه، له أتباعٌ لعينون في كلّ هذه القرى المحيطة!!

ولكن، محافظًا على بروده: أليس يمرض؟ هناك أقوى منه إذًا!

استأنست روح جيوڤاني عند سماع ملاحظته القديمة من غيره، فقال بصوتٍ أفضل:

- آآآ، أنت تؤمن بالرّبّ.. للأسف الرّبّ خاصّتكم لا يساعد أحدًا.. حتّى ابنه، لم يساعده، وتفرّج عليه وهو يصلب.

ضحك الكهل بخفّةٍ وقال: هذا ما يظنّه المسيحيّون، ولكنّ الرّبّ أنقذ المسيح ولم يسمح لهم أن يصلبوه حتّى الموت، يا صديقي.

ضرب جيوڤاني كفّيه متململًا: لا تبدأ بقصّةٍ جديدة!

سكت الغريب للحظات قبل أن يلتفت ويجيب: يبدو أنّك لست مؤمنًا بشيء؟

ثار جيوڤاني صائحًا: ليس عندي وقتٌ للأوهام الآن؛ عندما سأئنّ على دمّي، لن ينقذني ربّك ولا غيره..

واستدار جيوڤاني بنزقٍ تاركًا إيّاه بخطواتٍ غاضبة، وعاد إلى الشّجرة الّتي اصطفاها للانتحار، وسحب سيفه يستعدّ ليحصد روحه، حين رأى شبح ذلك الكهل يقترب منه:

- هناك امرأةٌ جميلةٌ جدًّا هناك.. هل ستنكر وجودها لكونها لن تنقذك؟

زفر جيوڤاني وهاجم: لم قد يؤمن أحدٌ بالرّبّ إلّا من أجل قوّته؟! ما دام لا يغني عنّي شيئًا فلا أريده.

- وما دمت كذلك فهو لا يريدك، لا أحد يضمّ إليه إلّا الأتباع المخلصين.

أنزل جيوڤاني سيفه ليصيح: رأيت من وهبوا حياتهم له ولم يعبأ لحظةً بعذابهم.

- هذا لأنّ العذاب الّذي رأيتهم فيه هو امتحان إخلاصهم.

ضاق جيوڤاني بمحدّثه ذرعًا وهزّ سيفه مهدّدًا: ما حاجتهم إليه إذا ماتوا؟!

لم يرمش الكهل متذرّعًا بثقته: الموت هو لحظة لقائهم به أيّها الأحمق!

شرّع جيوڤاني سيفه وعيناه تقذفان الشّرر:

- سأقصّ عمود رأسك لنختبر صحّة ما تقول!

وبعينين صارمتين: بهذا سأعرف أنا ولن تعرف أنت!

- بل سأبقى أنا وتتلاشى أنت!

أهوى جيوڤاني بسيفه والغريب يقول: كوني لا أستطيع التّواصل معك لا يعني أنّي تلاشيت.

توقّف سيف جيوڤاني بجوار رقبة الكهل وهو يهزأ بخفّة: ألم تر شخصًا ميّتًا من قبل؟!

أجاب الكهل باستخفاف: لقد عملت طيلة حياتي جلّادًا يا بنيّ.

تراجعت ملامح جيوڤاني عن السّخريّة: ما الّذي قصدّته إذًا بما قلته؟

- لنفترض أنّ سيفك كسر الآن ففقدتّ قدرتك على ذبحي، هل يعني هذا أنّك تلاشيت؟ أم أنّ أداتك قد تلاشت؟

أنزل جيوڤاني سيفه ببطءٍ وهو ينظر إلى محدّثه بريبة، ثمّ جاء تعليقه جافًّا: أنت تقصد أنّ جسدي أداتي.. وأين "أنا" إذًا؟؟

- أنت هو أنت.. ألا تحسّ بنفسك، بإرادتك، بشعورك.. هل سينقصك من هذا شيءٌ لو قطعت يدك مثلًا؟

نفى جيوڤاني برأسه: لا تهزأ بي، هذا عمل رأسي وصدري! ولهذا تؤثّر به الخمر.

ابتسم الغريب: ألا يقوم جسدك بأعمالٍ لا تريدها حين تشرب؟

تسلّلت يد جيوڤاني تتلمّس صدره وهو يهمس مذهولًا: إذًا أنا غير جسدي؟!

يعني أنّ الموت لا يعني بالضّرورة التّلاشي لي؟!

ثمّ نفض جيوڤاني رأسه واندفع: لا، عندما أنام لا أشعر بشيء!

- ألا تحلم؟

- إنّها أفكاري! وأحيانًا لا أحلم أساسًا.

- ومن الّذي يعيش الحلم إذا ما تشكّل؟ جسدك المخدّر؟

خمد جيوڤاني ثانيةً وقد شدهت ملامحه فيما أردف الكهل: أحد ضحاياي، ضربته حتّى مات من التّعذيب، ثمّ ذهبت إلى الحانة واعتديت هناك على امرأةٍ رأيتها لأوّل مرّة، وقد أعجبني خالٌ لها على شفتها.

وفي الصّباح التّالي، عدتّ لأتخلّص من جثّته؛ رفعته على كتفي فإذا بصوته يهمس "سنأخذ بقصاصنا منك، أنا وذات الخال البنيّ" فأجفلت ورميته عنّي، ثمّ قتلته وأنا عاجزٌ حتّى اللّحظة أن أفسّر كيف عرف بتلك المرأة؛ وقد وجدتّ جسده في الأغلال كما تركته تمامًا!

غرز جيوڤاني سيفه في التّراب وعلّق: لا أريد أن أموت إذًا.. لو علقت في كابوس فسيكون الأمر مريعًا.

ثمّ ترك السّيف وقبض يديه وقد احمرّ وجهه صارخًا: لا مفرّ لي.. لا الموت ولا الحياة!!

- أصلح علاقتك مع الرّبّ في عالم الوعي؛ كي تستطيع أن ترتاح بالموت.

ثقلت أنفاس جيوڤاني: أصلحها؟ كيف؟ أعلم أنّه موجود ولكنّي لا أعرف مكانه ولا كيف أكلّمه.

- لا يحتاج مكانًا.. المكان هو أحد خصال الضّعف والتّحدّد.. ربّنا أعظم!

بدأت الرّاحة تتسلّل إلى وجه جيوڤاني وهو يقترب من الرّجل: أنت أوّل شخصٍ يكلّمني عن الرّبّ بالطّريقة الّتي أحبّها.

ابتسم الغريب لامسًا كتف جيوڤاني: أنا أؤمن بربٍّ واحدٍ قويٍّ مسيطر، لا أب له ولا ولد ولا شبيه، لا يأكل ولا يشرب ولا يتعب.. عظيمٌ أعظم ممّا نظنّ.

ارتدّ جيوڤاني وقد تأثّر صوته: ياه!! هذا بالضّبط ما أعتقده، يجب أن يكون هكذا؛ ما دام لا شبيه له، فلا أقرباء له.. وما دام قويًّا فلن يَبغي الأكل والشّرب مثلنا!

- إذًا ما رأيك أن أعلّمك كيف تتواصل معه؟

شُدِه جيوڤاني وردّ بفضول: وهل فعلًا تعرف كيف؟

ثمّ استدرك وتمالك نفسه: أو اشرح لي؛ ما طبيعة علاقتك به أوّلًا؟

أخذ الغريب جيوڤاني ليجلسا ثمّ حدّق بالسّماء: كنت طيلة حياتي مجرمًا مثلك، وآذيت الكثيرين حتّى...

قاطعه جيوڤاني باستهجان: لحظة! كيف عرفت أنّي مجرم؟

- لتوّي قلت لك أنّي كنت مجرمًا، ولذا عرفت ذلك من طريقة كلامك.

استند جيوڤاني بخجل: آه، أجل، أكمل.

- وبعدها اشتريت أسيرًا غيّر حياتي..

رفع حاجبه: أعبدٌ يغيّر حياتك؟!!

- نعم.. بلا تفاصيل: هدوؤه الغريب وصبره ونظراته الهادئة رغم الجحيم الّتي كنت أصبّه عليه، كانت كفيلةً بأن تجعلني أدرك أنّني أنا الّذي في الجحيم وليس هو..

وسأل كبرياء جيوڤاني: وكيف استطعت أن تتنازل لعبدٍ في النّهاية؟؟

نظر الرّجل نحو جيوڤاني مشيرًا بيديه: أنا أغلي رغم الخمر، وهو هادئٌ كالصّخر..

وفقري يحول بيني وبين الانتقام من هدوءه إذ لا أملك أن أشتري غيره إن قتلته، وكنت أغلي من الغيظ منه هكذا كلّ يوم حتّى انفجر السّؤال من فمي أخيرًا.

أطلق جيوڤاني ضحكةً خفيفة، بينما استطرد الرّجل: قال أنّه مسلم، وأسر أثناء معارك الجنوب.

- مسلم؟ من أولئك الهمج الّذين الملك منصبٌّ على قتالهم في الجنوب؟

اهتزّ الغريب مبتسمًا: أنا كنت أظنّ أنّهم همجٌ أيضًا كما سمعت، ولكنّ فكرتي تغيّرت بتعرّفي على هذا الأسير.

- هذا غريبٌ جدًّا، إذًا أنت ملسم؟

قرّب الكهل وجهه: تقال "مسلم"؛ أؤمن بالرّبّ بالأساس وأؤمن أنّه أرسل رسولًا يدعى محمّد مثل الرّسول عيسى المسيح!

أومأ جيوڤاني برأسه: إذًا هؤلاء استطاعوا التّواصل مع الرّبّ فجعلهم رسله؟

لم ينتظر جيوڤاني الجواب بل انتفض فزعًا، واختبأ خلف الشّجرة هامسًا: لقد جاؤوا.. بسرعةٍ أخبرني كيف أتواصل مع الرّبّ.. لأجرّبها وأتأكّد فيما بعد.

ارتبك الكهل ووقف لا يدري ما ينبغي أن يفعل ثمّ قال مستعجلًا: اعتقد من أعماقك أنّك توجّه كلامك للرّبّ القويّ واشكره وامدحه، واعمل هذه الحركات..

وضع الكهل كفّيه على ركبتيه واقفًا؛ وظهره مع رأسه كخطٍّ مستقيم، ثمّ وقف، ثمّ جثا على الأرض على ركبتيه ووضع وجهه على الأرض تمامًا وبجواره كفيه مفتوحين على الأرض، ثم جلس على ركبتيه ويداه على فخذيه.. ثمّ التفت إلى جيوڤاني قائلًا: هذه هي.. تذلّل للقويّ يرتح قلبك.

ثمّ نهض منسلًّا وقال: حظًّا طيّبًا..

لكنّ جيوڤاني لحقه قائلًا: انتظر.. ما اسمك؟ أين أجدك في حال استطعت؟

- أنا 'ويليوس'.. أسكن في هذا الحيّ هنا.. وداعًا!

واختفى ويليوس متعجّلًا بين الأحياء على صوت سنابك الأحصنة الّتي بدأت تدور في القرية، فزفر جيوڤاني عائدًا لمخبئه وفكّر: هذه فرصتي الأخيرة للانتحار.. ولكن إن فعلتها، فستفوتوني تجربة التّواصل مع الرّبّ.. كما.. ماذا لو كان الرّبّ غاضبًا عليّ بالفعل لأنّني أفسد ما خلق؟لا بدّ أنّ غضبه سيكون أصعب من غضب جوناثا.

رفع عينيه وأردف: لا أصدّق أنّي تأثّرت بقصّتها في النّهاية.

فكرة؛ سأجرّب طريقة التّواصل مع الرّبّ الآن؛ فإن كانت خدعةً، انتحرت في مكاني قبل أن يمسكوني.

حدّق نحو السّماء وهمس لروحه: يجب أن أوجّه فكري نحو الرّبّ.. وأقدّم له رقبتي، ثمّ أسجد له.. لا أدري إن كان من السّهل عليّ فعل هذا.. ولكن..

هيّا، لطالما سجدتّ لجوناثا لأطفئ غضبه، ألا أستطيع فعل ذلك لمن يحكم على جوناثا ويجبره؟! أستطيع.

وسحب جيوڤاني نفسًا عميقًا مغلقًا عينيه وتمتم: أيّها القويّ الأقوى، يا من فرضتّ علينا الموت، إنّي أكلّمك!

وركع حسب ما علّمه ويليوس، ثمّ وقف وسجد..

وعلى الأرض تدفّقت في صدره راحةٌ غريبة، فارتخت أعصابه وتشبّثت أصابعه بالأرض، ومرّت دقائق قبل أن يحسّ جيوڤاني أحدًا يقترب منه وهو لا يزال على الأرض، ثمّ يسحبه بقوّةٍ من ذراعه لأعلى وهو يقول بصوته الأجشّ: هل رأيت شابًّا صغيرًا بشعرٍ أسود، مع شابّةٍ أصغر منه بشعرٍ بنّيٍّ، غريبين في الجوار؟

لم ينتظر الرّجل الإجابة بل سحب جيوڤاني بعيدًا عن الأشجار صائحًا: وجدت ويلياموني.. ها هو معي!!

وسرعان ما تجمّع الرّجال حولهما وهم يسألون جيوڤاني عن مكان كاترينا ولا يحصلون على إجابة، لم ينبس جيوڤاني بحرف ولم يكونوا مخوّلين بإيذائه، فأخذته فرقةٌ منهم عائدةً به إلى الجبل، بينما استمرّ الآخرون بالبحث..

وحين وصلوا، كانت النّار خامدةً والدّخان ينبعث من البناء، ولكنّه لم يكن متضرّرًا كثيرًا، ودخلوا به إلى الغرفة الرّئيسيّة حيث كان جوناثا يدور ويغلي من الغضب، أمّا ياكوبو فقد كان جاثمًا بكآبة على أحد الكراسي.

وحين دخل الرّجال ومعهم جيوڤاني وقف جوناثا مثبّتًا عينيه الشّيطانيّتين على فريسته، مستعدًّا للانقضاض، فتقدّم رافاييل الّذي وجده: وجدتّه نائمًا على الأرض بين شجر براتوس ووجهه دامٍ، ولم يبدِ أيّة مقاومة.

فزمجر جوناثا: والـ*** الثّالثة، أين هي؟؟ ألم تجدوها؟

خاف رافاييل ثمّ شحذ كلماته: حتّى اللّحظة الّتي غادرنا فيها لا، ولكنّهم كثّفوا البحث في براتوس.

همس جوناثا بغيظ: نائمٌ على الأرض؟؟ ماذا يفترض بهذا أن يعني؟!

وأومأ جوناثا لهم فرموا جيوڤاني عند قدمي جوناثا، الّذي أرسل قدمه يركله بكلّ قوّته وقد استشاط غضبًا: تحرق المكان وتعمل خطّةً عليّ، أنا سيّدك!! أنت يا من رأسك تحت قدمي!!

كيف تجرؤ أن تهرب بها أيّها الـ***؟! ألست تعلم أنّي أستطيع أن آتي بك ولو من 'بيلافار'؟! ألهذا الحدّ ذهبت بعقلك تلك الفأرة الحقيرة؟؟

لم يجب جيوڤاني، فيما انهال جوناثا ركلًا به:

- أين هي؟ أين خبّأتها؟ تكلّم وإلّا لوّنت أرض البناء بدمائك..

أقسم لك بقوّتي أنّك ستدفع الثّمن أضعافًا إن لم تتكلّم، حتّى لو وجدوها!

رغم عشرات الرّكلات، بقي جيوڤاني صامتًا، ولم ينبس بحرف، فالتهب جوناثا غيظًا وجذبه من ياقته عن الأرض برفعةٍ واحدةٍ وهو يزمجر: أتتحدّاني أيّها الـ***؟؟

ارتعش جيوڤاني من الفزع، وحرّك شفتيه المتورّمتين ليخرج صوته المبحوح:

- لا أتحدّاك، ولكنّي لا أعلم.. آخر مرّةٍ كانت معي في براتوس، وبعدها فقدتّ وعيي واستيقظت بيد رافاييل.. لا أدري ما الّذي حدث..

لطمه جوناثا بجانبي كفّه مزمجرًا: وتكذب عليّ أيضًا؟! هل تريدني أن أصدّق أنّك أحرقت المكان، وهربت بها حتّى براتوس لتتسكّعا فقط؟! أأنا غبيٌّ لأصدّق ترّهاتك؟؟

رماه على الأرض وهو يسعل دمًا، واستمرّ يضربه ويشتمه حتّى أشرقت شمس الصّباح، ودخل الرّجال خائبين دون أن يجدوا أثرًا لكاترينا، وجوناثا لا يزال ثائرًا من الغضب بعد

أن فشل هو الآخر في جعل جيوڤاني يتكلّم؛ هذا رغم أنّه صار في حالٍ صعبة، فوجّه أوامره الصّارمة ليعاودوا البحث في ضوء النّهار..

وجلس على كرسيّه مغتاظًا وقد بدأ يتقبّل أنّها معركةٌ خاسرة؛ فحتّى ذكور الحيوانات تتوحّش حين يتعلّق الأمر بحماية إناثها.. كما أنّ ليلةً كاملةً من اختفاء كاترينا، يعني أنّها صارت بعيدةً بالفعل، وفرص إيجادها تتضاءل مع كلّ ساعة..

التفت يحدّق بجيوڤاني الملقى في دائرةٍ من دمائه، ويتسلّى بوقع أنينه وبكائه، لقد قرّر أن يعوّض خسارته بأن ينتقم منه بكلّ وسيلةٍ حتّى يتغلغل الوجع إلى أعماق روحه ويعفّنها، فيستلذّ بتمزيقها إربًا بمخالبه؛ وهذا ما لن يمنح جيوڤاني أدنى فرصةٍ ليفرح بنجاح جرمه!

زفر جوناثا ولم يدرِ أنّ المعلومة الوحيدة الّتي كان يفتقدها هي أنّ كاترينا كانت ترتدي ثياب رجل؛ فكلّما في الأمر أنّ رجاله كانوا يمرّون حول عربتها ذهابًا وإيّابًا دون أن يعيروها انتباهًا؛ على أساس أنّهم يفتّشون عن امرأة..

أمّا هي فقد غطّت نصفها الأسفل بالقشّ، وشعرها القصير مختبئٌ تحت قبّعة جيوڤاني العريضة، وقد غرقت في صلاتها!

وبعد فترةٍ دخل أحد الرّجال الغرفة الرّئيسيّة: سيّدي، لقد عذّبنا الـ*** الأحمر طيلة اللّيل كما أمرت، ومع ذلك لا يزال مصرًّا أنّه لا يعلم شيئًا، هل نستمرّ بالتّعذيب المكثّف مع احتمال أن يموت؟

عضّ جوناثا على أسنانه وغرز مخالبه بفرش الكرسيّ قبل أن يتلفّظ: أيقترف كلّ ذلك ثمّ يموت في ليلةِ واحدة؟؟ لا!! عذّبوه وصبّروه حتّى يعيش أطول فترةٍ ممكنة!!

وصرخ في نفسه مغتاظًا: حتّى العبد يتستّر عليها!! ما الّذي جعلهما يبيعان روحهما لأجلها؟؟ هذا غريب!

أمّا جيوڤاني، فقد بقي أيّامًا غارقًا في عذابه حتّى السّكر، ومكانه بجوار كرسيّ الزّعيم الّذي كان يتشفّى بمراقبة أنينه؛ متى خفت يزيده من العذاب مكيالًا أو اثنين، وقد تمزّقت روحه وجفّ كبرياؤه تحت قدمي جوناثا، وهو يتعذّب أكثر ما يتعذّب بذكرى تضويعه لفرصة الانتحار..

الفصل الخامس

جيوڤاني الأسير

رُمي جيوڤاني أمام قدمي الزّعيم مجدّدًا، وقد ظهر عليه الأذى والوجع، بينما كان الزّعيم أكثر هدوءًا هذه المرّة بعد أن أفرغ عليه شحنةً كبيرةٍ من غضبه لثلاثة أيّامٍ متواصلة.

وهَمَّ أن يركله مجدّدًا حين تلمّس جيوڤاني قدميه منهارًا، وأخذ يستجدي بنحيبٍ منكسر، يمزّقه الذلّ قبل الوجع؛ وقد ذبحه الجوع والعطش وحُرم من النّوم حتّى أوشك على الهلاك.

كانت تلك اللحظات أمله الأخير، رغم يقينه بجفاء قلب جوناثا الذي لا يرقّ لقرابةٍ ولا يعرف للرّحمة سبيلاً، وحين لم يلقَ جوابًا عاود التّوسّل بنحيبٍ يقطّع أنياط القلب: أرجوك، أعطني فرصةً لأكفّر عن خطئي، سأخدمك بالشّكل الّذي يرضيك حتّى ترضى..

امنحني فرصةً أخيرة.. سأفعل أيّ شيء.. أنت أعظم من أن يغيظك شخصٌ حقيرٌ مثلي..

وفيما كان وجه جيوڤاني يكابد ليبكي أو حتّى يحكي؛ مع كلّ ذلك الورم الشّديد والكدمات الفظيعة الّتي تصبغه، كان وجه جوناثا متزيّنًا بنشوة السّاديّة وهو يستلذّ بتجبّره وقدرته على التّشفي بلا حدود.

ولكنّ أسف جوناثا هو أنّ حتّى هذه اللّحظات محدودة؛ فجسد جيوڤاني -المدلّل سابقًا- قد وصل إلى حدوده بجدارة، ولذا كان يُشبع كبرياءه من هذا؛ لينتقل إلى الجزء الثّاني من خطّة الانتقام الّتي ستجعل جيوڤاني يلعن لحظة نجاحه في الخيانة.

وبعد توسّلٍ طويل، أومأ جوناثا بقدمه على رأس جيوڤاني: حسنًا سأتفضّل عليك وأعطيك فرصةً لتكون أحد أذلّ عبيدي؛ الّذين يشقون في سبيل أن أتلذّذ أنا بحياتي، وأعيشها ملكًا!

ثمّ التفت إلى أحد رجاله، وبقلبٍ صلبٍ كالصّخر أمر: خذه إلى المنجم، ومُرهُم ألّا يرحموه وألّا يشفقوا عليه ولا يتسامحوا معه، وأن يعاملوه مثل العبيد الآخرين تمامًا!!

اقشعرّ جيوڤاني رغم أنّه لم يتفاجأ، ولكنّه أدرك أنّ ما كان خائفًا منه صار حقيقة، وأضف إلى عذابه صوت جوليا ساخرًا: لا أدري لماذا تنتابني رغبةٌ بالاطّلاع على سير العمل هناك هذا الأسبوع!

ضحكت بتشفٍّ بينما احتقنت الدّماء في عيني جيوڤاني المتورّمتين؛ فزادته حرقةً إلى حرقته وغامت رؤيته، ورفعوه أخيرًا ليرموا به في واقعه المرير وهو يلتذع من خزيه وذلّه، ولكنّه استدرك بهمسٍ مستسلم وعينين لا تبصران: على الأقلّ، أكرم وجهك الّذي في وجهي.

خمدت ملامح جوناثا عند سماعه لهذه الجملة، فأشاح وجهه موعزًا: ليضربوه على ظهره ورجليه فقط.

- هل نطعمه أوّلًا يا سيّدي؟ فهو منهارٌ تمامًا.

زفر جوناثا وهو يحدّق بحال جيوڤاني بجدّيّةٍ ذكّرته أنّ الإنسان لا يعيش بلا طعام:

- أطعمه وداوه ليومٍ واحدٍ فقط.. في مثل هذا الوقت من الغد يجب أن يكون قد انخرط في العمل.

وحمل الرّجال جيوڤاني ليسوقوه إلى مصيره، بينما لحقتهم جوليا بمرحٍ ملوّحةً بمنديلها:

- كلّما نظرت نحو غرفنا من الأسفل، سأكون هناك ألوّح لك بمنديلي من الأعلى!!

وفي اليوم التّالي، سار جيوڤاني ببطءٍ في الطّريق منحدرًا إلى القاع؛ يدوس الذّلّ الّذي يعتصره قلبه، لطالما نزل من هذا الطّريق سيّدًا، والآن انقلب العالم وتبدّل كلّ شيء، وكشّر كلّ منظرٍ معتادٍ عن وجه الظّلام الّذي طالما خفي عن ضميره المتلاشي.

فمن يدري الآن ماذا ستكون ردّة فعل العبيد عندما يجدون أحد ساداتهم بينهم؟! كان كلّ أمله من بين ألمه ألّا يعرفه أحد، ولكن ما فرصة ذلك على أيّة حال؟؟

وما إن نزلوا حتّى لفح البرد القارس جسده الواهن، واجتاح الرّعب أوصاله وهو يسمع

ضرب المعاول وصدى الجلد الذي كان يمرّ على أذنيه سابقاً كصوتٍ روتيني خلف النّافذة، والآن صار الحقيقة الّتي سيخضع لها كالبهائم.

وبالفعل دفعوه في حلقة السّخرة، وصار عليه أن يتحامل على وجعه ليدور حاملًا الفحم مع الآخرين بأقصى سرعة؛ ينقلونه من المنجم إلى العربات في الخارج.

كانت مجرّد ثلاث ساعاتٍ قبل أن ينقضي ذلك اليوم، لكنّ جيوڤاني أحسّها دهرًا، خصوصًا مع آلام جسده ووجهه الّتي لم تبرأ بعد، ونظره الضّيق بين جفونٍ تضجّ بالوجع، وحركته الضّعيفة بعدما جاع طويلًا.

ومضى مع الآخرين المنساقين إلى الزّريبة الكبيرة وهو يتعثّر من الخزي الّذي يزيد بصره عمًى، ولهيب ظهره ورجليه كان يبالغ في تعذيب كبريائه المنكوب، ولا يزال أكبر مخاوفه أن يعرفه أحدٌ من العبيد.

سكب الحرّاس صندوقي طعامٍ على أرض الزّريبة، وأوصدوا الباب خلفهم لتبدأ معركة الظّلام؛ انقضّ جميع العبيد الرّجال على الطّعام مستفرسين وقد هضمهم الجوع وأغوتهم غريزة البقاء، ولكنّها بطبيعة الحال لم تقوَ على إغراء جيوڤاني الّذي اختار أبعد زاوية وجلس يحاول أن يشاهدهم من بعيدٍ مشمئزًّا من حالهم، ولو كان في جوفه طعامٌ، لتقيّأه من رائحة الزّريبة المريعة؛ إذ كانت الفضلات في كلّ زاوية!

وبعد أن اكتفى الرّجال، انقضّت النّساء يتصارعن على بقايا الطّعام بين التّراب، والأطفال من خلفهم ينتظرون أن يحصلوا على فتات الشّفقة..

غاص جيوڤاني بوجهه المتورّم بين يديه وركبتيه، وقد عرف نعمة ما أكله في الصّباح، ولكن إلى متى؟ هل فعلًا سيصارع هؤلاء في الغد؟

في تلك اللّحظة، غلب قراره بالموت جوعًا على أن يبيع كبرياءه بشكلٍ بهيميٍّ هكذا!

وبين الفينة والأخرى، كان يرفع رأسه يشاهد من مكانه أشباحهم كيف يموجون ببعضهم، وكلّ بضعة عبيدٍ متجمّعون على بعضهم من البرد، فيما يحاول بعض المتلصّصين سرقة طعام الآخرين ويحشرونه بأفواههم بسرعةٍ قبل أن يُمسَكوا، وأصوات الأطفال تضجّ بالبكاء، والرّجال يتنازعون على مكانهم المفضّل، بينما النّساء يتشاجرن على الرّجال!

كان عالمًا جديدًا تمامًا على جيوڤاني الذي لم تكن الرّفاهيّة فارقاً بين أفضل لحظاته وأسوأها، والآن وجد نفسه في عالمٍ لا يعترف حتّى بآدميّته..

لقد تربّى أنّ هؤلاء العبيد حيوانات عمّه، وأنّه -بقربه من الزّعيم- له الفوقيّة على الجميع؛ حرّهم وعبدهم، ولكن أين يذهب بكلّ هذا الآن وقد حُكم عليه بهذا المصير الشّنيع؟!

أغمض عينيه منكسرًا، وهو يجلد نفسه بسياط النّدم على بيعه حياته لأجل كاترينا الّتي سرعان ما ستنساه؛ فيما هو سيبقى يشقى إلى الأبد، وأخذ الغضب يحتقن في قلبه وهو يتخيّل كاترينا بخير، بينما هو يتلظّى بجميع أنواع الهوان.

وفي تلك اللّحظات، شعر بصوت امرأةٍ تقترب منه من بين لجج الظّلام، فالتفّ على نفسه منقبضًا ليخفي أقصى ما يستطيع من رأسه، ووقفت بجواره قليلًا قبل أن تبدأ:

- كاترينا، هذا أنت أليس كذلك؟ لقد تطلّب منك الأمر أشهرًا قبل أن تصلي إلى هنا.. ماذا حدث هل تزوّجت جيوڤاني بالفعل أم ماذا؟

ولم تسمع المرأة جوابًا، فأردفت: هيّا، أعلم أنّ هذا المكان أسوأ بكثيرٍ من الزّنزانة، ويوجد فيه عشرات الرّجال عوضًا عن جورفورس فقط، ولكنّك ستعتادين مثل المرّة الماضية.. تعالي، لا تجلسي وتبكي هكذا، وكأنّها أوّل مرّة في حياتك!

وحين لم تجد ردًّا أيضًا، مدّت يدها إلى شبح رأس جيوڤاني، وما إن لمسته حتّى انتفضت: ياه، رجل!! لم لم تقل شيئًا؟ بإمكانك أن تهمهم فقط لأعرف أنّي مخطئة!

ولكن، لا فائدة؛ جيوڤاني لم يُسمعها شيئًا، فتململت وتركته لفترةٍ قبل أن تعود متلاطفةً أكثر: يبدو أنّك جديدٌ هنا.. أنا أيضًا صدمت أوّل مرّةٍ دخلت فيها هذا المكان..

حسنًا؛ إنّه مقزّزٌ بالفعل، وإن كنا قد تعوّدنا عليه، فالجميع يقضي حاجته هنا ولا يوجد ماءٌ كافٍ و....

وأثناء حديثها جلست بجواره مقتربة: أكيد أنت جائعٌ مثلي..

كما ترى، الرّجال هنا يسيطرون على الطّعام، والطّريقة الوحيدة لتحصل النّساء على طعامٍ جيّد هي أن تبيت مع أحدهم كي يعطيها خبزةً بالمقابل، و...

زفرت بأسى: فقدت شريكي منذ أيّامٍ بعد أن مات من شدّة الحمّى والإرهاق، ولم أستطع أبدًا أن أزاحم على غيره، فجميعهنّ مستفرسات..

وسكتت لوهلةٍ ثمّ التفتت إليه: وكنت أفكّر إن كان بإمكاننا أنا وأنت أن نتشارك.. ما رأيك؟

أيضًا لم يبدِ جيوڤاني استجابة، فعلّقت متفكّرة: أتدري؟ أحسّ رائحتك مألوفةً لي.. أين شممتها؟ أين..؟

ومدّت يدها تتحسّسه فدفعها عنه بساعده بعنفٍ لترتدّ وهي تزعق: مستحيييل!!

ورنّت زعقتها في الزّريبة، فنظر نحوها الجميع بينما أغلقت فمها بيديها الاثنتين وعيناها مصعوقتان، والتزمت الصّمت حتّى عاد الجميع إلى شغلهم، ثمّ اقتربت وهمست لجيوڤاني: غير معقول.. مـ.. مـ..ماذا جاء بك إلى هنا يا سيّدي؟

فهمس جيوڤاني مغتاظًا يعضّ على أسنانه: اخرسي، لا تناديني بسيّدي.. أتريدين قتلي؟!

- نعم، فهمت.. سأناديك باسمك.. إن لم يكن يزعجك..

وابتلعت ريقها: معك حقٌّ أن تشمئزّ من هذا المكان، إنّه بالتّأكيد لا يليق بك!

أنا روزا.. لا أدري إن كنت تذكر اسمي، أو تعرفه حتّى..

حسنًا، أنا الّتي عيناها زرقاوان وشعرها أسود.. الفتاة الثّالثة الّتي..

همس متململًا: تذكّرتك.

- يسرّني ذلك.. إن احتجت إلى مساعدة أو.. أعني خدمة، فما عليك سوى أن تأمرني، أنا رهن إشارتك!

وبعد فترة صمت: يبدو أنّك لا تريد أحدًا اليوم، لذلك..

أنا سأكون هناك، نادني، أو أشر لي وسأحضر من فوري!

ونهضت لتجلس أبعد قليلًا وجيوڤاني يتمتم لنفسه وهو يكاد يأكل يده:

- إنّها تظنّ أنّي لا زلت شخصًا مهمًّا، أو أنّ لديّ ميّزةٌ ما..

لا تعلم أنّي بتّ أشرّ الموجودين حالًا، سرعان ما ستتركني أو تنقلب عليّ حتّى..

وغرز فيه الألم نصله فتلوّى تحت انتقام كبرياءه، وحاول الهرب إلى النّوم، لكن ورغم تعبه لم يستطع؛ فقد جمّده برد الوادي الشّديد، فبات على شرّ حالٍ يترقّب لحظة انقضاء اللّيل الطّويل مع علمه أنّ غدًا سيكون أصعب..

وبمجرّد أن أضاءت الدّنيا فُتح باب الزّريبة، وعلى صوت صريره قفز الجميع من نومهم دون تفكيرٍ وانطلقوا متسابقين نحو الخارج، وجرّ جيوڤاني رجليه حتّى خرج في النّهاية مترنّحًا، فرفع الجلّاد سوطه قبل أن يقول: إنّك لا تعلم؛ آخر مَن يخرج يجلد..

سكت جيوڤاني ووقف بينما أضاف الجلّاد: سنبدأ من الغد..

فرمقه جيوڤاني ومشى وهو يفكّر: ظننت أنّ جوناثا أمرهم ألّا يتسامحوا معي؟! هل غيّر رأيه يا ترى؟ أم أنّهم يحسبون حسابي ويخشون انتقامي؟! ربّما عليّ أن أنسى ما قاله جوناثا وأستغلّ قوّته حتّى دون أن يعلم.. سأجرّب.

حاول أن يشدّ كتفيه والتفت إلى الجلّاد قائلًا بشيءٍ من ثقة: هل معك شيءٌ من طعام؟

ارتدّ وكأنّه تذكّر شيئًا وفتح حقيبته: امم، نعم.. هذه الشّطيرة.. ولكن كلها بسرعة.

فابتلع جيوڤاني شطيرته بسرعة، ولحق بالآخرين، حيث سأله جلّادٌ آخر:

- هل تفضّل أن تنقّب أم أن تنقل الفحم أم تجرّ العربة؟

ألقى جيوڤاني نظره نحو المنجم: امم.. سأجرّب التّنقيب.

- لكن يحتاج إلى خبرةٍ وتركيز، سأشرح لك..

نظر بوجهه المنتفخ نحو مكلّمه: يعني أنّي لن أستطيع فعلها بسرعة.. لا، سأعود إلى نقل الفحم إذًا..

ابتسم الجلّاد وقد فهم أنّ جيوڤاني يريد أن يسرع ليتجنّب السّياط، بينما وضع جلّادٌ ثالثٌ يده على كتف جيوڤاني قائلًا: لا تحقد علينا.. نحن ننفّذ الأوامر فقط.

زفر جيوڤاني بشدّةٍ وهرب بوجهه: أعلم.. لكن لا تبالغوا وخاصّةً في نهاية النّهار.. أقوى شخصٍ سيتعب.

وشرع جيوڤاني يحاول أن يعمل بكفاءةٍ وسرعةٍ؛ يقدح طاقته المتهالكة بهدف أن يبقى بخير، ولكنّها كانت فقط البداية، أمّا بعد أن أوشكت الشّمس على الغروب كان قد أعياه العمل حتّى الانهيار، ومع ذلك كان يخشى أن يأتي وقت الزّريبة، وكاد يختنق تحت ثقل صدره الّذي صار أضيق من أن يتحمّل هذه الحياة الّتي ليس فيها خيط أمل!

وقبل أن يدخل الزّريبة يتهاوى على ساقيه المنهكتين، ناوله الجلّاد شطيرةً هامسًا: أخفها.. وعلى عكس ما قلته لك في الصّباح؛ اخرج آخر واحد حتّى لا يروك.

واتّجه جيوڤاني إلى زاويته وهو يفكّر ورأسه يسبق رجليه في الحركة: على الأقلّ نجا آخر خارجٍ من الجلد.

وبعد تجنّب معارك الطّعام، صعق حين وجد رجلًا وامرأةً جالسين في تلك الزّاوية مكانه البارحة، فرمقهم شزرًا قبل أن يتمالك نفسه ويجول بباصرتيه يحاول أن يجد لنفسه مكانًا فارغًا بلا فائدة، فالمكان الوحيد الفارغ كان بجوار الوسخ..

ولم يعد يعرف ماذا يفعل وقد بدأ الإرهاق يتحوّل إلى غضبٍ عارم، وتسارعت أنفاسه وبات يثور مع دقّات قلبه وهو يدور حين سمع صوت روزا تنادي: هنا.. هنا!

اقترب ليأخذ مكانها بلا تردّد، وحين قعد أشار لها: يتّسع لكلينا.. تعالي.

فحشرت نفسها بجواره معلّقةً: لم أرد إزعاجك!

زفر بغضب: لا يوجد مكانٌ آخر.. تبدين مرهقة، ألم تأكلي شيئًا البارحة في النّهاية؟

همست تضغط بطنها الهزيل: أكلت التّراب الّذي كان الطّعام عليه.

التفت عنها وعضّ شطيرته ينهشها انتقامًا من الجوع الّذي ينهشه، وهو يحسّ بجسدها الملتصق به يرتعش ويتلوّى بجانبه، فثقلت اللّقمة الّتي في حلقه، وفكّر أنّ جوعها الشّديد سيذهب بشريكته الوحيدة في النّهاية، فخاض معركةً شرسةٍ مع طمعه قبل أن يقول أخيرًا بصوتٍ مختنق: حسنًا، شاركتني مكانك وسأشاركك..

وقسم شطيرته وهو يحسّ أنّه يقسم لحمه، وناولها إيّاها فشهقت من الفرح بينما قال بسرعة: هششش!

غصّت بريقها المندفع وهي تهمس: آسفة.. ولكن..تخيّل منذ متى لم أشمّ اللّحم! لا أعرف كيف أعبّر عن سعادتي!

اشمأزّ بصوته: سعادة؟! في هذا المكان؟!!

فهزّت كتفيها: هذه هي الحياة بالنّسبة إلينا، ويجب أن نستخرج منها السّعادة!

لم يستسغ جيوڤاني كلماتها ولم يشبع من نصف شطيرة، ولكنّه تثاءب بعد نهارٍ مرهقٍ كأشدّ ما يكون، وفجأةً وجد يد روزا تشدّه نحو صدرها الهزيل، وقبل أن يشتكي من رائحة عرقها المتراكم، أغمض عينيه ليضيع في نومٍ عميق؛ بعدما طال عليه ليل البارحة.

والمشكلة أنّه لم يحسّ ثانيةً إلّا على حركة روزا تنفضه: بسرعة!! انهض.. لقد خرج الجميع!

وتركته راكضةً نحو الخارج، فارتمى على الأرض وقد غُلّ بآلام جسده، وأغمضت عيناه بسهولةٍ، إذ لم يستطع إجبار نفسه على الخروج ومعاناة يومٍ آخر.

لكن بعد دقيقتين فتحهما وقد جفل على فرقعة صوت الجلّاد بجواره، فحاول أن يشدّ نفسه لأعلى لولا أنّه فشل، فقبض الجلّاد ذراعه وانتشله بضيق صبر: أرجوك، لا تجبرني على إيذائك.

ترنّح جيوڤاني وهو يحمّل وزنه لقدميه: أمهلني لحظات، سأخرج.. لا أفهم كيف جاء الصّباح بهذه السّرعة؟!

وابتلع شطيرته وهو يحاول أن يزيل العمش عن عينيه المنتفختين بأقلّ ألم، ثمّ دفع نفسه خارجًا وهو يحسّ بضيقٍ شديد يعلو روحه، إلّا أنّ ذلك لم يشفع له من أن يشقى يومًا آخر وهو يسترق نظراتٍ نحو البناء الشّامخ أعلى طرف الوادي، وتذكّر سخرية جوليا وفكّر مبتلعًا حزنه العميق: إن كان جوناثا أمسك كاتي بعد كلّ هذا، فسأُجَنّ..

ولكن لا؛ ما دام لم يأت بي ليغيظني برؤيتها بين يديه، فسأكون مرتاحًا ومتأكّدًا أنّه لم يمسكها.. لقد عشت معه سنواتٍ وأعرف كيف يفكّر.

وحين أوشكت الشّمس على الغروب، كان جيوڤاني مشتاقًا لانتهاء اليوم هذه المرّة؛ على الأقلّ كان هناك شخصٌ يضع رأسه على صدره، ويشاركه الأسى، ولكن ناداه فجأةً رئيس الجلّادين، فجاءه ببطءٍ وهو يلهث من التّعب، فأشاح الرّئيس نظره وقد استحيى من النّظر إليه على حاله المزريّة: جاءت الآنسة ويلياموني، وهي تريد رؤيتك.

انتفض جيوڤاني مشيرًا بقبضته: لا!! إن لمحتها فسأرجمها بالفحم!

- ربّما تريد أن تقول لك شيئًا مهمًّا.

صاح جيوڤاني وقد أقفل عائدًا: لن أراها إلّا من أجل أن أحشو فمها فحمًا.. وأشعله!

علّق الرّئيس بضحكةٍ قصيرة: أراك سيطر الفحم على أفكارك!

وفي اللّيل ذهب جيوڤاني ليجلس بجوار روزا لولا أنّ امرأتين أمسكتا بذراعيه من الجانبين، وكلّ واحدةٍ منهما تصرّ أنّها هي من ستبيت معه، فسيطر الاستغرب على جيوڤاني وانتزع يديه متخلّصًا منهما: ما خطبكما؟ ما الّذي تريدانه؟

- سيّدي.. أنا أليسيا، ألا تذكرني؟

وقاطعتها الأخرى: وأنا ماريا.. لقد كنت تحبّ شعري الأشقر..

أجاب جيوڤاني بنزقٍ مشيحًا بوجهه: أنتما هنا أيضًا.. كيف عرفتماني؟

- حسنًا، إنّ مشية السّيّد وكبرياءه لا يخفى!

- سلامة وجهك يا سيّدي.. من الواضح أنّك مررت بوقتٍ عصيب.

فأجابهما مقطّبًا: أليس لديكما شريك؟

- روزا ستبيت بدل إحدانا مع شريكها، وسيكون الجميع بخير.

- ما عليك سوى أن تختار من تريدها منّا.

وقف جيوڤاني حيران وقد صار لديه ثلاث خياراتٍ بدل واحدة، هذا ولم تكونا تعلمان باحتمال أن يقاسمها جيوڤاني شطيرة اللّحم خاصّته..

لكن المشكلة أنّ السّرّ استمرّ يذيع الشّخص تلو الآخر حتّى علم جميع العبيد -بعد مجرّد أيّامٍ- أنّ هذا الجديد ما هو إلّا ويلياموني الصّغير؛ الّذي كلّ منهم يحمّل عنه ذكرياتٍ من

مختلف التّجارب، وبالطّبع أغلبها مرّة وحاقدة.

وانقسموا إلى فريقين بين حاقدٍ ومتملّق، وصار أمره على كلّ لسان، وبعد أن كان جيوڤاني لا يجد مكانًا، صار يجلس في أفضل مكان، وجميع الرّجال المتملّقين يهدونه شيئًا من طعامهم، وكلّ المتملّقات يحرصن أن يبتن معه، وكلّهم لديهم أملٌ أن ينتشلهم من بؤسهم يومًا ما حين يهدئ الزّعيم ويتراجع عن عقابه له.

أمّا جيوڤاني فقد كان الوحيد الّذي يدرك تعقّد المشكلة، وهو يعلم أنّ جوناثا لا يتراجع عن كلمةٍ قالها حتّى تصيب مقتلًا، وبات خائفًا أن يسأم منه الجميع، أو ينقلبوا عليه..

فقضى أيّامًا وهو يفكّر ماذا بإمكانه أن يقدّم لهم ليبقوا ملتفّين حوله؛ إن لم يكن من أجل العزّ، فمن أجل حمايته من الفريق الآخر الّذين ينتظرون هفوته ليكيلوا له التّعذيب بالمكيال!

لكن في الحقيقة، الشّيء الوحيد الّذي كان يستطيع أن يقدّمه لهم كان شطيرة اللّحم الّذي بات يقايض نصفها لرجلٍ ونصفها لامرأةٍ بالدّور مقابل الطّعام الرّديء الّذي معهم، ويبدو أنّ هذا على شحّه كان كافيًا ليحافظوا على علاقةٍ جيّدةٍ معه.

وبعد طول شتاء قاسٍ؛ قضوه يلتمسون النّوم بالتّكتّل بجوار بعضهم، حلّ الرّبيع الجميل الّذي -على حسنه- ملأ قلب جيوڤاني كآبةً ويأسًا؛ وهو يرى العالم يرقص بألوانه الزّاهية وشمسه الدّافئة فوق جثث وعظام عبيدٍ بالغين وأطفال فتك بهم البرد والمرض حتّى انتزع منهم أنفاسهم الأخيرة.

كان يعمل ومعنوياته تتكسّر برؤية رفاتهم قد رمي على طرف الوادي تنهش منهم السّباع والطّيور، ممّا جعل رهبة الموت تزيد وجهه شحوبًا وروحه بؤسًا؛ لكونه يعلم أنّ الموت هو وسيلته الوحيدة ليخلص من غضب جوناثا اللّا متناهي.

ومن ناحيةٍ أخرى، تسلّلت إلى روحه مرارة الفقد لأوّل مرّة، وهو يتذكّر ملامحهم الباهتة وآمالهم البشريّة المكبوتة وكلماتهم الأخيرة.

ورقصت الفراشات في الوادي، ومرّت فوق رأسه، شاهدةً على هذا الّذي يعيش نفس اليوم التّعيس عشرات المرّات بلا راحةٍ ولا رحمة، ومع ذلك تجاهل جمالهنّ شاردًا في بحثه القديم عن الّذي هو أقوى من جوناثا؛ عساه يخلّصه من طغيان جوناثا.

وبهذا الصّدد، اتّخذ قراره ليمنح فرصةً أخرى لتلك الطّريقة الّتي حرمته من الانتحار، فأمسك عينيه مفتوحتين بأصابعه لينقذ وعيه من سطوة الإرهاق؛ منتظرًا أن هدأ المكان وغفلت شريكته كما نام الجميع، وتحامل زاحفًا على ركبتيه رغم تعبه؛ ليقوم بتلك الحركات الصّغيرة الّتي كادت الآلام أن تمحوها من ذاكرته.

وجّه روحه المنكسرة نحو السّيطرة الإلهيّة المطلقة؛ ومع كلّ سجدةٍ كان يلمس فيها التراب، لم يكن يجد الذلّ، بل كان يجد "الرّضا" الذي افتقده لسنوات.

وخلال دقيقتين أو ثلاث، عاد ليرتمي نائمًا، وأغلق عينيه ليرى جوناثا مريضًا يناديه ويناديه وكأنّه محتاجٌ إليه، لكنّ جيوڤاني في الحلم نظر إليه دون اكتراثٍ، وأغلق الباب وتركه لمصيره وغادر.

واستمرّ جيوڤاني على هذا كلّ ليلة، ورغم أنّ شيئًا لم يتغيّر وطعامه لم يزد لقمة وشقاؤه كان أحيانًا يزيد ولا ينقص، لكنّه مع ذلك أدرك ما هو الشّيء الوحيد الّذي زادته إيّاه محاولته أن يطلب مساعدة الرّبّ كلّ يوم..

لقد كان هو ذاته الشّيء الّذي حصل عليه ذلك الأسير الّذي عذّبه ويليوس؛

إنّه هدوء القلب حين تعصف الحياة!

ووصل إلى حالٍ صارت السّكينة هي مخدّره الوحيد، فأدمن عليه عساه يسكر عن غبار الفحم، ويسلو عن تقرّح أصابعه وألم ظهره، ويستطيع تجاهل صوت السّياط الرّتيب الّذي لا ينتهي..

ولهذا وأكثر، قرّر أن يصلّي في عقله طيلة الوقت؛ يسلّي روحه بتعظيم الرّبّ واستنباط أسرار خلقه، عن استصغار حظّه والاكتئاب بلحظات شقائه.

- مرحبًا يا ابن عمّي.. أقصد يا عبد عمّك.. خمّن ماذا!

مجبرًا وقف جيوڤاني أمام ابنة الزّعيم؛ وقد جمع إلى سواد شعره وعينيه اسوداد جلده من الفحم والقذر والهزال، ومع ذلك لم يثنها حاله القبيح من التّباهي وهي تغالب ضحكتها: آلمني جسدي النّاعم من كثرة الجلوس على ريش النّعام، فقرّرت أن أجول في نزهةٍ في هذا الوادي الجميل بمناسبة الرّبيع..

ولحسن حظّك أنّي اخترتك من بين الجميع لتحظى بشرف خدمتي!

انكمش رئيس الجلّادين من كلامها السّمج، ونظر متعاطفًا مع جيوڤاني الّذي كان يشغل نظره بالسّماء دون أن يبدي لها أيّ شعور، ثمّ نظر إليها وقال مبتسمًا: فرصةٌ جيّدةٌ لأطلعك على جمال الطّبيعة هنا.. هل سبق وشممت عبير زهور الجبل؟ إنّها جميلةٌ مثلك!

ظهرت الدّهشة على وجه رئيس الجلّادين الّذي أدار وجهه ببطءٍ ليرى وجه جوليا يتلوّن قبل أن تقول: حسنًا لنذهب، وأنت ستقوم بخدمتي!

- لا مانع ما دمت لا تخشين الجرب.

تراجعت إلى الوراء وقالت باشمئزاز: أنت جربان؟!

ابتسم جيوڤاني بسخريّة ورفع ساعده: أجل، انظري يحفر الجلد ويبيض في داخله، مقابل قطرات دمٍ ينتزعها كلّ قليل.. هل تحبّين أن تجرّبي؟

وبدأ جيوڤاني يركض نحوها، فزعقت وأخذت تحاول أن تهرب، لكنّها تعثّرت وسقطت على يديها بشدّة وزنها الثّقيل، وحين نهضت بمساعدة خادمها، تناهى إليها صوت جيوڤاني الضّاحك وقد أمسكه الجلّاد بلا جهد:

- أيّتها الجبانة! ألا تعرفين أنّي لا أستطيع الوصول إليك؟!

قطّبت حاجبيها ونظرت إليه بشكلٍ غريب، ثمّ استعادت وجهها السّاخر: سعيدةٌ أنّك وجدتّ المكان الّذي يناسبك كبهيمةٍ جربانة.. سأخبر أبي أنّك مستمتعٌ هنا.. وداعًا!!

وغادرت آخذةً معها ريحة عطرها الفوّاح بعيدًا عن رائحة عرق جيوڤاني، فيما ضحك رئيس الجلّادين: أتساءل بأيّ نقطةٍ من الحديث ستخبره!

ثمّ التفت إلى جيوڤاني: أعجبني كيف وظّفت معرفتك بها لتواجهها؛إنّ لك شخصيّةً قويّةً بالفعل!

زفر جيوڤاني: وماذا تتوقّع؟! لقد جاءت لتتلذّذ برؤية غضبي العاجز.

عاد جيوڤاني إلى عمله، وحين حانت منه نظرةٌ نحو البناء تمتم: أيّها القويّ الأقوى، أرجو منك أن تطبق بقوّتك على وعي جوناثا وتعصر غروره كما يعصرنا.. منحتَه أربعين سنةً من القدرة، ألا يكفي؟!

ومضى الزّمان حتّى توقّف عند يومٍ بدا مجرّد يومٍ روتينيّ، وبدت ليلته ليلةً طبيعيّةً على الجميع؛ تنازعوا الطّعام، اختاروا الشّركاء، تبادلوا الهمسات قبل أن يعلو الشّخير في كلّ زاويةٍ معلنًا فرصةً من الهدوء.

فانسلّ جيوڤاني كعادته ليقوم بصلاته الموجزة، وما إن سجد حتّى أحسّ بحركةً شديدةٍ من جانب الزّريبة البعيد، لم يعبأ بها لكن سرعان ما أحكمت قبضةٌ على فمّه وقد شدّته لأعلى دون توقّف، وتواجه بصره مع أشباحٍ لبضعة رجال يحاوطونه، ورعد همسٌ حاقدٌ في أذنه: لا أدري أيّ نوعٍ من غباءٍ بهيمٍ ضرب الـ*** جوناثا؛ ليحذفك إلى قبضة سيمون العجوز الّذي سيصبّ عليك غضبًا عمره أكثر من ثلاثين سنة!

ساد الذّعر جيوڤاني حين علم أنّ رأسه في قبضة زعيم فريق العبيد الّذي يعاديه، وقد عجز أن يجد طريقةً يخلّص بها نفسه أو يطلب المساعدة، فأردف سيمون متشفّيًا:

- اعذرنا لتأخّرنا عليك بالانتقام حتّى الآن؛ ولكن فرصة الانتقام تأتي مرّةً واحدة، ولذا نحتاج أن نكون لوحدنا لنحسن استغلالها..

أتمنّى فقط لو أرى وجه ذلك الـ*** حين يرى الحال الّتي ستكون عليها بقاياك، فقط حينها سيدرك ما نسي، ويتذكّر ما اقترف!

وغرز سيمون وجه جيوڤاني بالأرض بضربةٍ قويّةٍ وثّبته رجلٌ آخر، وانهالوا عليه ضربًا واعتداءً بأقصى صمتٍ ممكن، حتّى اللّحظة الّتي سمع الجميع فيها صوت روزا يصدح

مناديًا بفريق المتملّقين:

- ويليامونيي!! إنّهم يقتلونه.. أمسكوه؛ أمسكوا سيمون.....!

وبصوتها دبّت الحياة في تلك الأجساد الغافلة؛ لينتفضوا كما لو كانوا ينتظرون النّداء! ومن فورهم غاصوا في معركةٍ داميةٍ مع الفريق الآخر..

دوت أصوات الضّرب والسّباب، وهاجت الزّريبة في ذلك الظّلام، وزعقات النّساء تثقب الآذان، والأطفال يحاولون الهرب من معركةٍ عمياء لا يعرف المرأ فيها إن كان يضرب شريكه أم عدوّه!

وفجأةً فتح باب الزّريبة بقوّة، وانطلق الجلّادون يصفعون ويلهبون بسياطهم جلود المتصارعين الّذين لم يجدوا بدًّا من التّفرّق وهم يصرخون من الألم.

وحين سيطر الجلّادون على الموقف أخيرًا، انطلق رئيسهم يبحث عنه بين الأجساد المترامية هنا وهناك، وحين لم يجده، بدأ يبحث تحت الأجساد، وبالكاد وجده تحت اثنين فوقه، فرفعه صائحًا: أحضروا الطّبيب بسرعة!!

استعاد جيوڤاني سمعه على صوتٍ اشتاق إليه، كان صوتًا جافًّا ولكنّه يعرف على الأقلّ أنّه يحبّه، ففتح عينيه الذّابلتين ليرى نفسه في كوخ الجلّادين، ويد ياكوبو تمسح وجهه: أستيقظت أخيرًا؟ ها! لقد نجوت!

ردّ جيوڤاني بصوتٍ ذبحه الألم: لا يوجد شبرٌ من جسدي لا يؤلمني.. آآه..

تفاعل ياكوبو مطبقًا كفّيه: كان خبرًا صادمًا! حتّى جوناثا اشرأبّ من المفاجأة؛ لقد كان

يظنّ سيمون ميّتًا من زمان!

يبدو أنّ هناك سوء فهمٍ ما، جعلهم يحتفظون به بدل قتله.. لكنّه الآن سيتمنّى لو أنّه كان ميّتًا، بعد أن يستشعر لهيب شوق جوناثا إليه!!

ضحك ياكوبو متهكّمًا، بينما قالت إحداهنّ بصوتٍ ضاحك: لا تعلم مدى سعادتي بنجاتك يا ابن عمّي! وأنّ جوناثا أخيرًا سمح لنا بزيارتك!

قطّب جيوڤاني من فوره: ما الّذي جاء بك أيّتها السّمينة؟!

- أطمئنّ عليك أيّها الهزيل!

غريب؛ لم لا تعتني بصحّتك يا مسكين؟! خمّن الهديّة الّتي أحضرتها لك!

وتسابقت رائحة الكعك الشّهيّة إلى أنف جيوڤاني وجوليا تضع قطعة منه في فمه وهي تقول بصوتٍ لعوب: اكتشفت أنّي لا أحبّ رؤيتك هكذا! هيّا كل!

ابتلع جيوڤاني اللّقمة بصعوبةٍ وهو يستشعر غرابة نعومة جلد جوليا بعد أن اعتاد أيدي النّساء الخشنة، وقال بشيءٍ من سخرية: احذري أن تصابي بالجرب..

ارتدّت يد جوليا إلى الوراء وهي تقول: جرب!! أوه، لا! اللّعنة، لقد نسيت!

ونفضت يدها باشمئزازٍ وقد التوت شفتاها في تقزّز:

- سأضع الكعك هنا.. عندما تريد، خذ!

بالكاد بدت الابتسامة من وجه جيوڤاني المتورّم فيما ضحك ياكوبو ملء فمه، وخاض في حديثٍ قصير مع جيوڤاني قبل أن يسأله: أبي، من هو سيمون أساسًا؟

دلك ياكوبو وجهه: هذا كان شريكًا لنا في العمل، كنّا نخرج للسّلب سويّةً لعدّة سنوات.

وعندما استطعنا إحكام سيطرتنا على الجبل وصرنا عشرين رجلًا تقريبًا، قرر جوناثا أن يصير زعيم العصابة، ولذا جمع الرّجال وأغراهم بخلع سيمون من الزّعامة. وبعدها صفّاهم واحدًا واحدًا، كلّ رجلٍ بموقفٍ مناسب!

ضحك ياكوبو بخفّةٍ وأردف: يبدو أنّي الأخير بينهم!

همس جيوڤاني وقد توسّعت عيناه: ثلاثين سنةً ينتظر فرصة الانتقام حتّى جئته على طبقٍ من ذهب..

- ههه.. لكنّي لا أظنّ جوناثا أحسّ بانتقامه المزعوم أصلًا؛ فبالكاد سمح لك أن تستريح خمسة أيّامٍ قبل أن تعود للسّخرة.

وزفر يهزّ رأسه واستطرد: أيّها الغبيّ، كيف خطر لك أن تتحدّاه هكذا؟! ألم تر كيف يبطش بالقريب والبعيد؟! أيًّا كانت تلك المرأة، أتستحقّ أن تضيّع شبابك لأجلها؟!

أغمض جيوڤاني عينيه بلا جوابٍ بينما قالت جوليا:

- إن كنت تعرف مكانها، فأخبرنا؛ علّه بهذا يقبل أن يراك، وتسترضيه.

- لقد قلت له كلّ شيء.. وأملي ليس أن يصفح عنّي أساسًا.

عقدت يديها مائلةً بخصرها: وما هو أملك؟ أن تبقى مع العبيد إلى الأبد؟!

نظر نحو النّافذة: لن يعيش جوناثا إلى الأبد.

انتفضت وقد فرغ صبرها: حقًّا؟! وهل يوجد احتمالٌ أن ينقذك الّذي بعده، أيّها المجنون؟! على العكس، يجب أن تستغلّ وجوده، وإلّا فسيصير وضعك ميؤوسًا منه نهائيًّا!!

ظهر البؤس على ملامح جيوڤاني بينما قالت جوليا بحزم:

- اسمع، سأحاول أن أتشفّع لك.. وسأقول له عنك أشياءً لم تقلها.. ولكن إيّاك أن تضيّع مجهودي سدىً.. أتّفقنا؟؟

وجّه إليها عينيه وهو يفكّر بما قالته:

- يبدو أنّني أهلوس؛ أفعلًا هذا الكلام يخرج منك أنت؟!

ضحك ياكوبو وجوليا، ولم يطل الحديث إذ انتهت زيارتهما المسموحة، فغادرا وعيناه تلاحقهما حتّى غابا، فأنصتت أذناه لصوت خطواتهما حتّى تلاشى.

وبعد ساعة، حين ضاق جيوڤاني من أفكاره، بذل كلّ جهده حتّى استطاع أن يجلس وهو يلهث، وحين التقطت عيناه صورة كعكاته اللّاتي كنّ هناك ينتظرنه، تسارعت العبرات في عينيه؛

ففي تلك اللّحظات، لم يكن مذاق الكعك هو ما يحرق حلقه، بل مرارة الشّوق لكرامةٍ مهدورة، واحتمالٌ موجعٌ بأنّ خلاصه بات معلّقاً بكلمةٍ من جوليا.

الفصل السّادس

الملحد يتنصّر

كالعادة، تهرع الأيّام الجيّدة لتنقضي بسرعة، معطيةً الدّور لنقيضتها لتسيطر، فعلى الرّغم من كلّ الألم والوجع الشّديد الّذي كان جيوڤاني يشتكي منه إلّا أنّه ودّع مهلته بعيني

التّعلّق وهو ينهض من فراشه أمام الجلّاد؛ يجرّ جسده المُعيى نحو المنجم منصاعًا لأمر جوناثا.

وما إن وصلا حتّى بدت عليه الدّهشة: ما هذا؟.. وجوهٌ لا أعرفها!

- صحيح، لقد استبدلناهم جميعًا؛ قرّر الزّعيم أن يعيد ترتيب الأمور بعدما حدث.

نظر جيوڤاني إلى وجه الجلّاد وقد اتّسعت عيناه وقال بصوتٍ مصدوم:

- وأين ذهب أولئك؟

- عملوا بلا طعامٍ حتّى انهاروا ورميناهم للحيوانات..

ردّ جيوڤاني منفعلًا: ولكنّ كثيرًا منهم قاتلوا المهاجِمين؛ لينقذوني على أمل أن..

غصّ صوت جيوڤاني بينما لمس الجلّاد كتفه قائلًا: هذا واجبهم! كان عليك أن تخبرنا منذ البداية أنّ هناك من يعاديك حتّى نؤدّب به الآخرين.

أطرق جيوڤاني برأسه، وقد تيبّست ملامحه خلف قناعٍ من الوجوم، بينما كانت كفّ الجلاد تدفعه نحو العمل. كانت روحه ساحةً لمعركةٍ طاحنة؛ بين سياط الجلّادين الذي يروّض العبيد الجدد، وبين أطياف رفاقه الرّاحلين الّذين غادروا الدنيا ببطونٍ خاوية وآمالٍ مطفأة.

لم يكن ضجيج الفحم لِيُخمد صرخة روزا -التي أنقذته- فقد ظلّ صداها يتردّد في أعماقه كصوت صخرٍ يهوي في الوادي. كما استقرّ المشهد الأخير في ذاكرته كجرحٍ غائر، يكويه بلهيب الخذلان كلّما تنفّس. هكذا مضى يغالب يومه، يتجرّع صدمته كما يُتجرّع العلقم،

بجسدٍ هدّه النصب، وروحٍ ذبيحةٍ لا تجدُ خلاصاً.

وبعد أن أضناه ذلك اليوم العصيب، جلس في اللّيل ممسكًا بشطيرته وهو يتنهّد، ويدرس بحزنٍ تحرّكات زملائه الجدد، وشدّ نظره كيف يقوم ثلاثةٌ منهم بتقسيم الطّعام على الجميع بشكلٍ عادل، فاستغرب بشدّةٍ كيف لم يتصارع أحد، ولم يبدِ أحدٌ أنّه ساخطٌ من زميله، بل كانت آهاتهم ضدّ سجّانيهم.

لم يكن خفيًّا أنّهم جميعًا اختطفوا من القرى منذ أيّام، فثيابهم القرويّة كانت لا زالت محافظةً على شكلها لولا أنّها قد بدأت تتمزّق تحت نحت السّياط، أمّا حديثهم فكان بداية القنوط من الهرب بعدما بدؤوا يدركون أيّ سجنٍ هم فيه..

كان لا يزال يحدّق بشطيرته -مفتاح علاقاته السّابقة- حين تداخل صوت همسٍ يائسٍ مع أفكاره، فالتفت ليميّز في الظّلام أمًّا تعانق ولدين يبكيان ويتلوّيان من الجوع وتحاول تهدئتهما بيأس.. هربًا من وحدته، اتّخذ جيوڤاني قرارًا غريبًا عليه؛ فرمق شطيرته للمرّة الأخيرة قبل أن يقدّمها للأمّ مقترحًا: ربّما تساعدك هذه!

أشرق صوت الأمّ وأمسكت يده وقبّلتها بفرح: أنت شابٌّ طيّب.. في مثل هذه الظّروف الصّعبة تظهر معادن النّاس!

وعضت الشّطيرة، ثمّ قسمتها بالنّصف، وأعطت الولدين اللّذان هلّلا من الفرح وكأنّهما الدّموع لم تكن على خدّيهما، وقال أكبرهما لمّاحًا: عرفت أنّك كنت تخفين طعامًا يا أمّي..

عرفت!

- لا يا بنيّ.. الشّابّ اللّطيف هنا هو من أعطانا إيّاها.. هيّا عانقاه واشكراه!

أسرع الولدان ليفاجئا جيوڤاني بضمّةٍ ملؤها شعورٌ دافئ؛ فيما تخلّص منهما مشمئزًّا، وبدآ يلتهمان شطيرتهما وهما يتراقصان. تصنّع جيوڤاني الضّحك مع الأمّ الفرحة، وأخذ يجاملها ليقترب منها بسرعة، ولكن وبشكلٍ مفاجئ.. خيّم السّكون على الجميع قبل أن ينطلق صوت رجلٍ وقف خطيبًا:

- يا أحبّاء المسيح، يا إخوتي، اعلموا أن الظّلام الذي يحيط بكم ليس هو الكلمة الأخيرة، فالمسيح نفسه سار في طريق الألم قبلنا، وحوّل الصليب من أداة عذابٍ إلى باب حياة. أنتم اليوم عاجزون، لكن قلوبكم لا يقدر أحد أن يستعبدها إن هي تشبّثت بالرجاء.

لا تنظروا إلى جراحكم كعقوبة، بل كوسيلة يطهّر بها المخلّص نفوسكم ويقوّي إيمانكم. كما يُنقّى الذّهب في النّار، هكذا تُنقّى أرواحكم في هذه التجربة. وكل دمعةٍ تسقط منكم محفوظةٌ عند الرّبّ، وكل تنهيدةٍ تتحوّل صلاةً ترتفع إلى السّماء.

تذكّروا أنّ المسيح قال: "في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا، أنا قد غلبت العالم". فأنتم لستم وحدكم، بل أنتم شركاء في آلامه، وشركاء أيضًا في مجده الآتي...

أنصت جيوڤاني لكلامه مستغربًا، فقد كانت أوّل مرّة يعيش هذا الجوّ ويسمع أحدًا يخطب هكذا، وأخيرًا قال الرّجل:

- دعونا نصرخ إلى الآب من أعماق قلوبنا، ونبتعد عن الشرّ والفاحشة في هذا الظّلام

عسى الإله أن يستجيب لأنيننا ويحوّل أحزاننا إلى رجاء..

في لحظةٍ واحدة، غرق الجميع في لجّة الخشوع، وعلت همهمات الاستغاثة ممزوجةً بزفرات البكاء الصّادق. كان جيوڤاني الشّاهد الوحيد الصّامت، تتنازعه ذكرى كاترينا وصلاتها الّتي لم يعرها يوماً أدنى اهتمام، فقد كان يرى إيمانها مجرّد حكايةٍ خرافيّة. لكنّ رؤية هذا الحشد المتنوّع، الّذي لم تجمع بينه قربى سوى هذا الإيمان المشترك، خلقت في نفسه تساؤلاً لم يعهده من قبل.

وبعد قليل، انتهت أمّ الولدين من الصّلاة والتفتت إلى جيوڤاني: لم أسمعك تصلّي معنا؟

هزّ كتفيه: أنا لست مسيحيًّا.

- لست.. ماذا؟! هل أنت يهوديّ؟

التفت مرتدًّا: يهوديّ؟! ما هذا أيضًا؟

بدا الاستهجان على صوتها: ماذا تقصد بـ'ما هذا'؟ يهوديّ من اليهوديّة!

- لا أعرفها.. أقصّةٌ أخرى؟! بم يؤمنون؟

- لا يؤمنون بالمسيح، لكنّهم يؤمنون بالرّبّ..

همس: هذا مثيرٌ للاهتمام.

زفرت مستنكرة: ولم؟! لم لا تحبّ المسيح بالذّات؟

- لا أعرفه، ولكن أيًّا كان، لا أصدّق أنّه ابن الرّبّ.

- هذا مؤسف؛ رأيتك لطيفًا وتمنّيت أن تكون ممّن يخلّصهم المسيح..

واستدركت باستصغار: ولكن ممّن أنت، إن لم تكن مسيحيًّا ولا يهوديًّا؟

- مجرّد أنّي أؤمن بالرّبّ المسيطر، وأحاول التّواصل معه وأشعر به بقلبي، لا أدري ماذا تسمّون هذه الحالة..

فرسمت المرأة إشارة صليبٍ بالقرب منه وتمتمت: أدعو الرّبّ أن يهديك..

رمقها شزرًا: لو كنتُ أنا المسيح لكرهتكم!

ارتدّت منزعجة: فليسامحك المسيح! لم تقول هذا الكلام؟!

- لأنّكم تنشرون أبشع لحظات حياته طيلة الوقت.. هل تعرفين كيف يبدو الإنسان مصلوبًا؟؟

أجابت بتحفّز: طبعًا، نراهم حين الإعدام، وحتّى لدينا تماثيل في الكنيسة..

- نعم، هذا بشعٌ جدًّا ليقوم أحدٌ بأخذه شعارًا!! إلّا إن كان حاقدًا مثلًا..

فثارت نبرتها وهي تصيح: يا يسوع!!

لا! هناك سوء فهمٍ واضحٍ لديك؛ نحن لا نحبّ لحظة صلبه، إنّما نتّخذها شعارًا لتذكّرنا بتضحيّته لأجلنا.. ألم تسمعه يقول للتوّ: "تحوّل الصّليب من أداة عذابٍ إلى باب حياة"؟ نحن نتعلّم منه كيف نحوّل الألم إلى فرحةٍ مع الرّبّ!

تثاءب جيوڤاني وقال مغيّرًا الموضوع: لم تتجمّع النّساء هناك؟

- ليبتعدوا عن الرّجال قدر الإمكان..

فعلّق على سجيّته: الجميع هنا غريبون! هذه أغرب ليلةٍ أعيشها في حياتي..

والتفت مقترحًا: هل تنامين معي؟

لكنّها انتفضت في وجهه كعاصفةٍ مباغتة:

- كيف تجرؤ أن تقول لي هذا؟؟ ألهذا السّبب أعطيتني الشّطيرة أيّها الـ....؟؟

تراجع جيوڤاني منكمشًا: بإمكانك أن ترفضي دون أن تتكلّمي بهذا الشّكل.

- هل أنت عاقلٌ حتّى؟ ابحث عن مثلك يا هذا!

وجرّت المرأة طفليها، وأسرعت مبتعدةً نحو تجمّع النّساء وسط ذهول جيوڤاني الّذي لم يفهم سبب الغضب من الأساس، فتمتم وهو يستلقي:

- لقد بتّ أتمنّى أن أفهم من جوناثا لماذا أخفى عنّي هذا العالم مع أنّه يعرفه؟!

ونظر لأعلى وهو يفكّر: ضحّى المسيح لأجلهم؛ لكن لِمَ يحتاج إلى التّضحية إن كان أبوه يستطيع فعل كلّ شيء؟!

ثمّ فتح عينيه فجأة: ترى هل أغضب المسيح أباه كما فعلت مع أبي؟؟

من ناحيةٍ أخرى، ينبغي أن تضع كاترينا شعارًا يمثّل تضحيتي لأجلها بدل الصّليب!

ضحك واستطرد: لكنّها ستبقى تقدّس الصّليب، وربّما عادت راهبة!

يا تُرى هل ولدت الآن، أم لم يستمرّ الحمل؟

آمل ألّا تكون قد انتحرت بسبب فكرة أنّها قتلت تلك الخادمة أو جُنّت.

ثمّ نهض يتمطّى: لن أعرف أبدًا.. على أيٍّ، أنا أيضًا سأصلّي.

ثمّ وقف ليوجّه قلبه، وقال بنبرةٍ خائبةٍ وقد نال منه الجوع:

- أيّها القويّ الأقوى، أنت لم تحمني حتّى وأنا أصلّي..أعلم أنّي حقيرٌ ولا أهمّك، ولكن أعطني علامةً على وجودك؛ لا تجعلني أحسّ أنّي مجنون.

ونام جيوڤاني وحده لأوّل ليلةٍ هنا، وهو يتميّز غيظًا من تصرّف كلّ القرويات اللّواتي رفضنه بشكلٍ عنيفٍ وشتمنه، وتمنّى لو يستعيد سلطته؛ ليريهنّ جميعًا أيّ شيءٍ قد خسرن برفضه، وتحسّر متذكّرًا كيف كانت روزا وأليسا والأخريات يتنازعن عليه، فامتلأ حُنقًا من تصرّفات جوناثا الغير مبالية الّتي زادت الأمر عليه سوءًا.

واستمرّت الصّعوبات في اليوم التّالي، لقد كاد جيوڤاني يجنّ من ألم رأسه، وقد قضى طيلة يومه يعمل على إيقاع لسع السّياط وصراخ النّساء والبكاء والتّوسّل، والأطفال ينتحبون، والجلّادون ثائرون يقيّمون الخطأ بأضعاف العقوبة، وركلٌ وإهانةٌ وشتائم، غير مشكلته مع الّذين يقفون ويعطّلونه عن عمله..

كانت الحال مريعة، لقد اكتشف أنّ العبيد المروّضين كانوا نعمةً لم يفطن إليها!

وفي النّهاية وقف في نهاية الطّابور إلى الزّريبة، وأخذ شطيرته من الجلّاد بحركةٍ غاضبة، فقال له الجلّاد: كان يومًا صعبًا؛ كنّا إذا جاء عبدٌ جديد نحمل همّه حتّى يتروّض، فكيف الآن بأربعين جديدٍ مع بعضهم؟؟

ردّ بنزق: رأسي مثل الطّبل.. على الأقلّ أنت ستنام في مكانٍ هادئ.

- أليس هناك أملٌ بعودتك إلى مكانك قريبًا؟؟ نحن جميعًا نتوق إلى ذلك بفارغ الصّبر..

تنهّد جيوڤاني ومضى خطوتين قبل أن يسأله الجلّاد: هل كلّ شيءٍ بخيرٍ عندك؟ يفضّل

أن تبقى قريبًا من الباب؛ كي تنادينا إن حدث أيّ طارئ.

تحوّل بعينيه ودخل على صوت البكاء المتخامد، ووقف يشاهد كيف يقومون بتقسيم الطّعام بين الجميع بعدل، وفجأةً وجدهم يملؤون يده بحصّةٍ من الطّعام أيضًا، فنظر إليها وأضافها إلى الشّطيرة في جيب ثوبه الجديد الّذي حصل عليه بعد الحادثة.

وبعد انتهاء التّوزيع، مضى جيوڤاني ليبحث عن مكان حين أحسّ بأصابع على كتفه، فالتفت ليرى شبح رجلٍ خلفه: هل يمكنني أن أكلّمك قليلًا؟

سأل مقطّبًا: أأنت الّذي كنت تتحدّث عن المسيح البارحة؛ كما يبدو من صوتك؟

- نعم، أنا شمّاسٌ في كنيسة العذراء الـ...

ردّ بنزق: وما الّذي تريده منّي؟

- لأكون صريحًا، رأيت البارحة حلمًا غريبًا عن شابٍّ منّا هنا، لكنّه ابن شخصٍ قائد.. أو مهمّ.. ويقال لي في الحلم أنّ هذا الشّاب لديه أسئلة دينيّة مهمّة.

جفّ ريق جيوڤاني وجمدت عيناه لوهلةٍ قبل أن يشيح وجهه: أحلامًا سعيدة.

وهمّ بالمغادرة قبل أن يمسك الشّمّاس كتفه: انتظر لحظة..

الجلّادون يتحاشونك، وحتّى سمعتك تتكلّم مع أحدهم للتّو، واثقٌ أنّ الرّؤيا تقصدك.

خفت صوته وهو يهزّ كتفيه: وإن كنت لا أجد سببًا مقنعًا ليعمل شخصٌ مهمٌّ السّخرة، ويبيت في مكانٍ منتنٍ كهذا..

أطرق جيوڤاني، بينما أردف الشّمّاس: هل لديك أيّ إشكالٍ دينيٍّ، أو تحتاج أيّة مساعدة...؟

انفجر جيوڤاني قائلًا: ألا يكفيني كلّما ألاقيه؛ حتّى لا أستطيع أن أبيت مع امرأةٍ قذرة؟!

وكلّ هذا بسبب مسيحكم ودينكم الـ....

وضع كفّه على كتف جيوڤاني مبادرًا: اهدأ، اهدأ يا أخي!

- كيف أهدأ وأنا هنا مع أكثر من خمسة عشر امرأةٍ؛ ولا أستطيع الاقتراب من إحداهنّ دون أن تصرخ في وجهي؟؟!

وضع الشّماس يده الأخرى على كتف جيوڤاني مهدّئًا: فهمت مشكلتك.. تعال لنجلس ونتحدّث.

فجلس جيوڤاني يلتهم شطيرته مقطّبًا، بينما جلس الشّمّاس بجواره وأخذ نفسًا:

- أفهم غضبك؛ لأنّي بطبيعة الحال مثلك.. ولكن انظر، المرأة أيضًا لها حقّ أن تكون كريمة وتكون لها مساحتها الخاصّة الّتي لا تُدخل فيها إلّا من يكرمها!

- هذه هي المشكلة الّتي افتعلتموها حين وزّعتم الطّعام بالعدل!

سأل مصدومًا: وهل توزيع الطّعام مشكلة؟؟!

- نعم، لقد كان الرّجال يجدون شيئًا يغرون به النّساء، ولذلك كان كلّ شيءٍ على ما يرام.

- ماذا تقصد بـ كان؟؟ فالكلّ هنا قد اختطف منذ أيّام و....

قاطعه جيوڤاني بلهجةٍ سريعة: كان هناك سبعًا وثلاثين قبلكم، وقتلوا جميعًا.. أنا الوحيد

الّذي..

صمت جيوڤاني بغصّة، بينما ردّ الشّمّاس بفزع: قـ..قـ..قتلوا؟!

ثمّ تمالك نفسه وسأل: و هل كانت النّساء سعيدات؟ أم مضطرّات؟

- سعيـ.. أو قل راضيات.

- راضياتٌ مثلما نحن الآن راضون أن نأخذ حفنة طعامٍ مقابل شقاء نهارٍ كامل؟!

ظهرت بسمةٌ ساخرةٌ لجيوڤاني بين ملامحه الغاضبة، بينما أردف الشّمّاس:

- إنّ العدل هو أن تتولّى العناية بالمرأة الّتي تريدها دائمًا وتكفيها حاجتها وتتحمّل أمر الحمل إن حدث، هكذا يرضى الرّبّ عن طهارة الفراش.

- لا تحتجّ بالرّبّ؛ فهو الّذي جعلها ضعيفة، وهو الّذي جعلني أرغبها شئت أم أبيت، وخمّن بعد هذا التّرتيب كيف تكون النّتيجة!

أخذ الشّمّاس نفسًا: أنت لديك أسنانٌ حادّة مصنوعةٌ لتعضّ، أليس كذلك؟

إذًا هل تعضّ كلّ ما تراه، أم تختار؟

فأجابه مستهجنًا: ما علاقة هذا؟؟

لمس يدَ جيوڤاني: الأمر نفسه؛ صحيح لديك القدرة أن تبيت مع أيّ امرأة، ولكن يجب أن تختار وتقتصر؛ كي لا تؤذي نفسك ولا الّذين حولك.

أمّا أن تتّخذ حاجتك مبرّرًا لاستغلال ضعف النّساء، فهو تمامًا كما يفعل سيّد هذا المكان باستغلال ضعفنا.. فهل تعتقد أنّه غير مخطئ؟!

واستطرد الشّمّاس بعد صمتِ جيوڤاني:

- على فكرة، أن تعتقد زوجتك أنّك رَجُلها الوحيد هي متعةٌ نفسيّة لوحدها، ونفس الشّيء بالنّسبة لأولادك.. فأنت خلقت قويًّا لتكون عمود العائلة!

فلاح لـ جيوڤاني شعوره حين كانت كاترينا تنكمش من غيره، أجل؛ لأنّه كان مستلذًّا بأن تعتبره رَجُلَها، هان عليه أن يضحّي بكلّ شيءٍ لينقذها!

أضاف الشّمّاس: كيف نريد للرّبّ أن ينظر إلينا بعين الرّحمة وينصرنا على هذا الظّالم، إن كنّا نحن نظلم من هنّ أضعف منّا؟؟

يجب أن نكون عادلين حتّى بطلبنا من الرّبّ؛ مثل كفتَي الميزان!

وأشار الشّمّاس موازنًا بكفّيه، بينما أصدر جيوڤاني همسًا خافتًا: العدل.. شيءٌ لم أسمعه إلّا في سخرية جوناثا.

- أنت تدعى جوناثا؟

- لا، أنا جيوڤاني..

حسنًا، ما دام الرّبّ يحبّ العدل كما تقولون، فلم يجعل الحيوانات تفترس بعضها؛ على قانون الغاب؟

- وهذا فيه عدل؛ كما تَفتَرِس الحيوانات غيرها؛ تُفتَرس من قبل غيرها، إنّها في نفس الخطر الّتي تشكلّه على الآخرين.

وسكت بنبرةٍ هادئة قبل أن يوضّح:

- ولكن إن لم يكن هناك افتراس؛ فستتناثر جثث كلّ تلك الحيوانات الّتي تتكاثر كلّ يومٍ في كلّ مكان، و...

قاطعه جيوڤاني بصوتٍ مستهتر:

- الأمر ذاته ينطبق على البشر؛ أيٌّ منّا قد يغلِب وقد يُغلب.

أدار الشّمّاس وجهه ليلتقط الفكرة ثمّ عاد:

- كيف شعورك تجاه سيّد هذا المكان الّذي يجري قانون الغاب؟

أطلق جيوڤاني زفرةً تحكي الأسى، فردّ الشّمّاس مبتسمًا:

- لهذا وضع الرّبّ العدل، لأنّه لا يريدك أن تزفر هذه الزّفرة!

عدّل جيوڤاني جلسته يحدّق بالشمّاس بعينين ضيّقتين ثمّ قال:

- لو كانت هذه إرادته فعلًا، لما ترك النّاس يكسرونها.

- وإن أجبر الرّبّ النّاس على تنفيذ إرادته، فأين تجربته لهم؟

أومأ جيوڤاني بكفّه مستبعدًا:

- الرّبّ ليس بحاجةٍ إلى تجربتنا.. فهو يعلم كلّ شيءٍ عنّا.

- لكن نحن لا نعرف أنفسنا، لذا نحتاج إلى سببٍ لمصيرنا.

تخيّل لو أنّك فتحت عينينك لتجد نفسك في الجحيم دون سبب، كيف ستشعر؟

- نفس شعوري الآن.. لقد ولدتّ مسلوب الإرادة.

وفجأةً اهتزّ جيوڤاني بمخلوقٍ ضئيلٍ اندفع عليه حتّى استقرّ بين ساقيه، ووسط دهشته خرج نحيب الصّغير بالكاد يفهم: طعام.. أعطني طعام.. أرجوك.

عرف جيوڤاني أنّ هذا هو عينه الطّفل الّذي أطعمه البارحة، لقد تشبّث برجليه وأخذ يتوسّل بصوتٍ يقطّع القلوب، لكنّ حقد جيوڤاني على أمّ الطّفل طفا على عقله؛ فركله متخلّصًا منه: ابتعد عنّي، لن تحاصل على طعامي إلّا بالمقابل.

لمّ الطّفل نفسه وأجاب ببراءة: لكن ليس لديّ شيءٌ لأعطيك إيّاه يا عمّ.

- بلى يوجد....

أجابه جيوڤاني بخبث، فيما اندفع الشّمّاس كالصّقر ليسحب الطّفل منه واضعًا في يده حصّته من الطّعام: خذ، إيّاك وأن تطلب من هذا الرّجل ثانيةً يا بنيّ.

وما إن لامس الطّعام يد الصّغير حتّى أطلق ضحكةً من قلبه، وعانق الشّمّاس ممتنًّا، ثمّ ركض عائدًا إلى أمّه، فيما سمع الشّمّاس صوت جيوڤاني الغاضب:

- ما علاقتك بما أفعل أيّها الـ.....؟!

لم يتلكّأ صوت الشّمّاس قبل أن يندفع:

- ها أنت أردتّ الشّرّ؛ أنت لست مسلوب الإرادة كما تزعم.

أنت فشلت في تجربتك لتوّك. أنانيّتك لم تختلف عن أنانيّة سيّد هذا المكان.

أطلق جيوڤاني ضحكةً شيطانيّةً، ثمّ سكت يستلذّ بصدمة الشّمّاس قبل أن يقول بأنيابٍ بارزة: أحسنت، إنّه أبي وأفتخر!

ارتدّ الشّمّاس، وقد تقطّعت الكلمات في فمه، ثمّ نفض رأسه وقال مستنكرًا:

- أفهم أنّه أبوك.. لكن أن تفتخر به؟! على الأقلّ ليس وأنت هنا!

التهم جيوڤاني ما بقي من شطيرته وهزّ كتفيه: في الواقع.. إنّه أبي ولا أفتخر.

ونهض جيوڤاني على صوت الشّمّاس:

- تذكّر أنّ الرّبّ يمهلك لأنّك في تجربة، لكن عندما ينتهي...

تلكّأ جيوڤاني لوهلةٍ يسمعه ثمّ مضى، وحين وقف ليصلّي كعادته، لم يكن يستطيع أن يتوجّه إلى الرّبّ هذه المرّة؛ لأنّ كلمات الشّمّاس كانت ترنّ في خلده كزنبورٍ حيّ، فنفض رأسه وهمس بغيظ:

- من الّذي قال أساسًا أنّ الرّبّ كان يريد منّي أن أطعم الولد؟!

ربّما الرّبّ يحبّ أساسًا قانون الغاب، ويستلذّ بقوّته حين يرى الضّعفاء يتعذّبون.

فترك الصّلاة بنزق "يكفيني جوناثا يتلذّذ بعذابي"، واستلقى لينام يعضّ على أسنانه، وتقلّب بمزاجٍ حادٍّ وزفر مستلقيًا على ظهره وصدى روحه:

- أنا وحدي في هذا العالم.. كلّهم أعدائي.. لا أحد يكترث لشعوري حتّى.

بدأ جيوڤاني نهاره التّالي بمعنويّاتٍ محطّمة؛ وقد سيطرت عليه فكرة النّبذ، وزاد الأمر سوءًا أنّ ذراع وعاء الفحم انكسرت؛ فوقع وسقطت أحجار الفحم على قدميه، لحظتها صرخ وسقط على الأرض يتلوّى ويلعن في قمّة غضبه.

ومسح قدمه يحاول أن يتفحّص عظامه، حين أجفله الجلّاد يفرقع بالسّوط بجواره، فصرخ عليه مكشّرًا: ابتعد من هنا، ألا ترى ما بي؟؟!

أجاب الجلّاد بأنفاسٍ متسارعة: هذا ليس كيف أعمل، انهض وإلّا!

فعضّ جيوڤاني على شفته وحاول أن ينهض لولا أنّ قدمه صعقته، فانطوى على الأرض يغبّ ألمه، لكن فات أوان المهلة وانهال السّوط عليه بلا رحمة..

صبر وصبر ثمّ تحرّك وزمجر: توقّف! ستندم إن لم تتوقّف!!

رفع سياطه: لا أستطيع أن أتسامح معك.

- اذهب ونادِ رئيسك.. أنا سأكلّمه.

- لا يمكنني ترك مكاني.. أليس أسهل أن تنهض؟

- أخشى أنّي كسرت رجلي و..

- ليس من شأني.. كلّم الزّعيم في ذلك.

وعاد يجلده كالمطر، فانهار تحت وطأة العذاب ملتفًّا على نفسه؛ يحاول تقليل الخسائر عاجزًا وقد خانته قدمه، مرّت الدّقائق سنين عليه وهو يتجرّع مرارة الذّلّ والهوان، وأخيرًا توقّف الجلّاد صائحًا: سأعطيك فرصة، وسأعود.

رفع جيوڤاني رأسه ودموع الألم في عينيه؛ تحاول أن تطفئ اللّهيب الحارق في كامل ظهره، فمسحهم وبدأ يحاول النّهوض قبل أن يعود إليه، ولكنّ الوجع كان صاعقًا لدرجة أنّه لم يعد يجرؤ أن يجرّب..

فأخذ يستغلّ الوقت بجمع الفحم المتناثر في الوعاء، ثمّ جثا يجالد ألمه ويترقّب الجلّاد.

ورفع رأسه يرمق نافذة غرفته القديمة ويحلم بفراشه لولا أن شوشّت عبراته رؤيته.."إلى متى؟ ألا نهاية لغضبك يا أبي؟!"

واستند على التّراب بيديه، وأجهش باكيًا وهو يعلم أنّ كسر القدم يعني حكمًا بالنّهاية، واستثمن لحظات هدوئه وهو يراقب الجلّاد يضرب أحدهم في طريق عودته إليه، فزعق قلبه فزعًا، ولجأ نظره إلى السّماء، ثمّ انكبّ ساجدًا:

- أرجوك.. ساعدني هذه المرّة، وسأكفّ عن إفساد خلقك.. أقسم لك بكلّ عزيزٍ عليّ أنّي سأعمل على إرضائك.. أنقذني!

وصل الجلّاد مزمجرًا: أعطيتك فرصةً طويلة.. لم لم تنهض؟؟ ها أنت ترغمني على إيذائك.

سحب جيوڤاني نفسًا، ثمّ مدّ يده إليه آمرًا:

- اسحبني.. ربّما أستطيع أن أعرج عليها إذا وقفت.

تلكّأ قليلًا، ثمّ ساعده على الوقوف -على قدمه الأخرى- معلّقًا:

- أرأيت؟! إنّ المشكلة في رأسك وليس في قدمك!

صوّب جيوڤاني نظره إليه وقال بغيظٍ مكبوت:

- تذكّر هذه اللّحظة؛ لأنّي سأجعلك تدفع ثمنها غاليًا.

بهتت ملامح الجلّاد، فهرع ليلتقط الوعاء ويناوله إيّاه معتذرًا:

- الأمر ليس شخصيًّا، سأعاقب إن تجاوزت الأوامر.

قدحه جيوڤاني بنظراته الملتهبة وهو يعانق الوعاء المكسور اليد. ثمّ جاءت اللّحظة الأصعب؛ وحاول أن يخطو على قدمه، وصعقته الدّهشة هذه المرّة حين لم يجد صاعقة الألم الّتي كان يعاني منها، وخطا ثانيةً وثالثةً وقد ساورته الغرابة حتّى كاد يكذّب نفسه. وبينما كان الجلّاد يسأله عنها، نظر نحو السّماء ممتنًّا ومضى.

بعد هذا، تغيّر جيوڤاني، وقرّر أن ينظر في أمر الدّين بجدّيّةٍ أكبر، فبحث عن الشّمّاس حتّى وجده بصعوبة، ووقف حيرانًا يراقب شبحه وهو يراه يتلوّى في أحد الزّوايا، ثمّ حين ناداه، تمالك نفسه وجلس، فبادره جيوڤاني بالسّؤال:

- ما الّذي يجعلك تظنّ أنّ الرّبّ يحبّ أسلوب الضّعف وليس القوّة؟

انبرى الشّمّاس مدافعًا: العطف والرّحمة هما دليل القوّة، وليس ضعفًا!!

ابتسم جيوڤاني بعناد: لا، القويّ يفعل ما يريده هو، ولا ينحني لإرادة الآخرين.

توقّف الشّمّاس عن الأنين لوهلة، ونظر إلى جيوڤاني بعينين غائرتين:

- بل العكس يا جيوڤاني.. العطف هو ذروة القوة. لا يمكن لأحد أن يعطي إلا إذا كان يملك فائضاً من القوة يتجاوز حاجته.

حكّ جيوڤاني ذقنه وهو يناضل للخروج من كلام جوناثا: حسنًا، فيها وجهة نظر.

- ولذلك الرّبّ يستطيع أن يعطينا جميعًا؛ لأنّه الأقوى.

ولو كان يحبّ أسلوب القوّة والتّجبّر، لخلقنا على أشكالٍ مؤذيةٍ، أو مشوّهة، أو مع ألمٍ دائم، أو..

قاطعه جيوڤاني متحمّسًا: أنت على حقّ! كيف لم ألحظ ذلك؟!

ثمّ علّق على سؤال نفسه هامسًا: أظنّ خطئي هو أنّي أعرّف القوّة بـ جوناثا.

لكن فجأةً نهش الجوع الشّمّاس ثانيةٍ فارتمى يتلوّى فاقدًا السّيطرة على نفسه، فأحسّ جيوڤاني بالذّنب؛ وهو يشتمّ رائحة اللّحم تفوح من بين أسنانه، ففكّر بحلٍّ ثمّ قال: ماذا تعمل؛ تُنقّب أم تحمل أم تجرّ؟

- أ..أجرّ..

- اسمع، صباحًا سنحاول أن نلتقي حين أضع الفحم في العربة، وسأمرّر لك طعامًا.

- ليسـ...ـعدك الـ..ـمسيح..

علّق جيوڤاني بانزعاج: أنا أريد أن يسعدني الرّبّ وليس المسيح!

بالكاد تمالك الشّمّاس نفسه من الجوع، وهو يقول:

- وهل يسعدك النّور بغير شعاعه؟ المسيح هو كلمة الرّبّ المنطوقة في عالمنا.

<u>[[إن كنت غير مهتمٍّ بتفاصيل النّقاش الدّيني، فاذهب حتّى نهاية الأقواس (((</u>

لكنّ جيوڤاني ردّ فورًا بنبرةٍ واثقة:

- يكفيك هذا، هل أنا نفس أبي مثلًا؟ أبي الآن يشرب مع الغانيات في نشوته، وأنا هنا أُصَبّر بطني الجائعة، وأبحث عن أقلّ مكانٍ وسخٍ لأنام فيه..

هل بإمكانك أن تقول أنّي وهو واحد؟؟ رغم أنّي أشبهه واسمي ويلياموني مثله...

شحذ الشّمّاس صوته الضّعيف:

- أنت لا تعلم، الأمر ليس وحدة جسديّة كالابن والأب في البشر؛ بل وحدةٌ في الجوهر الإلهيّ؛ فعندما أراد الرّبّ أن يظهر محبّته للبشر، جعل المسيح أقنومه الثّاني يشاركهم ضعفهم ليخلّصهم، فعندما ترى المسيح، أنت ترى الرّبّ!

أشار جيوڤاني إلى صدره منفعلًا:

- وأنت عندما تراني الآن فكأنّك ترى أبي؛ لنفس جوهرنا كرَجُلَي عصابات، هل هذا يعني أنّي أنا وأبي واحد؟!

أبي الآن أقوى إنسانٍ هنا، وأنا الآن من أضعف النّاس هنا.. كيف يمكن أن تقول عنّا واحد؟

رسم الشّمّاس صليبًا وهمس بنفسٍ ثقيل:الملك يلبس ثياب الفقراء ليزورهم في السّجن؛ هل ينفي فقره هويّته الملكيّة؟ الرّبّ لبس عجزك ليشاركك ألمك، لا ليفقد عظمته.

- انظر إلى حالي المزري، أيّها الشّمّاس، وأنا معكم في سجنكم؛ هل أبدو لك مهيبًا ولون الفحم يصبغ جلدي المتأزّم؟! أو هل خفّف تشاركي الجوع معكم من سطوة جوعكم؟

لقد كان الأحرى بالملك القويّ المحبّ أن يغني الفقراء، لا أن يزيدهم واحدًا!

- لا!

الملك الذي يُغني الفقراء بالمال يظلّ غريباً عنهم، أما الملك الّذي أحبّ الفقراء حتّى جاع معهم فقد صار أخاً لهم. المسيح لم يأتِ ليلغي الفقر، بل ليعطيك كرامةً لا يكسرها الجوع.

عقد جيوڤاني يديه: بالنّسبة إليّ، أن أكلّم أبي وأنا عند رجليه وأحصل على القوّة

والكفاية بعدها، أحبّ إليّ من أن نتلوّى بجوار بعضنا من الجوع كما هؤلاء أمامنا.

هجم جيوڤاني نحو الشّمّاس:

- القويّ الّذي يشاركني قوّته حبًّا بي؛ هو من أبحث عنه!

وقبض قبضته بقوّةٍ: لا إنسانًا مجبرٌ على الأكل والحاجة مثلي.. هذا لن يكون ربّي الّذي خلقني، وإلّا فإن أبي وأمّي أحقّ بهذا المقام!

عاد الشّمّاس ليشرح بقوّة: لا، المسيح لم يكن إنسانًا عاديًّا مثل أبيك وأمّك، بل هو كصدور نورٍ من نار؛ الرب "آب" لأنه ينبوع الحبّ، والمسيح "ابن" لأنّه صورة هذا الحبّ المتجسّدة.

ومسح ظهر جيوڤاني بلطف: مشكلتك أنّك ترى العالم من ثقب القوّة والمصلحة؛ ولا تدرك لذّة الحبّ اللّامتناهيّ!

ضغط جيوڤاني على قدمه في حركةٍ عفويّة، ثمّ صدرت كلمّاته معبّرة: على العكس اليوم أدركت قيمة أن يحبّك القوي؛ ولهذا ظمئت إلى مزيدٍ من حبّه..

- جميل! لقد اعترفت بظمئك إلى الحبّ، بقي أن تتوجّه إلى النّبع؛

كان المسيح يستعمل قوّته ليغدقنا بحبّه؛ يحيي الموتى، ويشفي المرضى، و يهدّئ العاصفة، ويمشي على الماء، و...

تحوّل جيوڤاني بعينيه وبصوتٍ منزعج: لا أحياني، ولا شفاني، ولا رأيته يمشي على ماء.. لم أرى وجهه حتّى.. فعلى أيّ أساسٍ سأعبده؛ ولا يوجد دليلٌ حقيقيٌّ واحدٌ على

وجوده أو كونه مجرّد قصّةٍ من تأليف متلاعب؟!

أجاب بحلاوة صوت: لا نحتاج إلى رؤية المعجزات، فقيامته من الموت هي معجزتنا، أتستطيع أن تتصوّر أنّ مصلوبًا لأكثر من يومٍ ينهض من بين الأموات ويمشي؟! المسيح غلب الموت والعذاب ليمنحنا الأمل، ولذا فهو ابن الرّبّ الحيّ!

بنصف بسمةٍ ساخرة: عندما يأتي لزيارة البلاد أخبرني حتّى أصدّق أنّه قام من الموت.. أمّا ما لم ترني شيئًا، أو تستشهد بشيءٍ أراه، فأنا لا أعتبر كلامك دليلًا!

خمدت نبرة الشّمّاس: أوأنت بالمقابل ترى الرّبّ؟!

ضرب جيوڤاني صدره قائلًا: أجل، أراه!

أجاب الشّمّاس متهكّمًا: حقًّا؟! دلّني كيف؟

فتحمّس جيوڤاني وانطلق يحكي تأمّلاته:

- منذ صغري وأنا مبهورٌ برؤيته يحوّل ماء رجلٍ وامرأةٍ حمقاء مثلي، إلى إنسانٍ يحسّ ويعقل!

أراه يحكم كلّ النّاس حتّى أقواهم، فيميتهم رغم أنوفهم، ويسيّر حياتهم وفق خطّته الأزليّة، فتراهم يتغنّون بشهواتهم؛ لينسوا بنشوتها أنّهم مجبرون عليها!

وسكت لوهلةٍ قبل أن يستطرد وقد كاد يلصق أنفه بأنف محدّثه:

- أهذا يحدث لوحده؟ لا! يوجد قويّ يسيطر على كلّ شيءٍ، مهمّما سمّيناه؛ الرّبّ، الإله، المسيطر.. إنّه هنا؛ يحكم كلّ شيء!!

أبعد الشّمّاس وجهه وقال وهو يمسحه:

- نعم، أحسنت.. إنّما كنت أقصد أنّك لا تستطيع رؤية المسيح؛ تمامًا مثلما لا ترى الرّبّ بعينيك.. ولذا لا يمكنك أن تنفي وجود المسيح ومعجزاته وقيامته العظيمة، فقط لأنّك لا تراهم!

احتدّ صوت جيوڤاني:

- أنت لم تفهمني؛ الرّب كان ولا زال يحيي ويميت قبل أن أوجد وبعد أن أموت.. أمّا المسيح فأنت تقول بالماضي: أحيى الموتى، شفى المرضى، مشى على الماء.. هل هذا ربّ؟؟ لا ينفع ربًّا، ولا لتلك العاصفة الّتي بدأت دون إذنٍ منه!

تحوّل الشّمّاس مستنكرًا:

- هه، وما الّذي ينفي لك أنّه لا يزال يستطيع فعل ذلك الآن؟!

- بل اسأل: ما الّذي يثبت لي ذلك؟؟ ها هو الكون بدقّته ووسعه، أعطني دليلًا واحدًا يقول أنّ هذا الحدث يحدث، وسيستمرّ يحدث، بواسطة شخصٍ بهذه المواصفات يدعى المسيح، وليس الرّبّ.. أعطني، أنا أسمعك!

ضاقت عينا الشّمّاس: أقول لك أنّ المسيح هو نفسه الرّبّ في جوهره الإلهيّ الأزليّ، فكيف تقول أعطني شيئًا فعله الآب ولم يفعله الابن؟؟!

مثل الفكرة في العقل؛ لقد قال المسيح: "أنا والآب واحد، فمن رآني فقد رأى الآب"!

وجم جيوڤاني يشحذ أفكاره ثمّ أجاب: أإن جاء ذلك الطّفل هناك وقال لك: " أبي وأمّي واحد، فمن رأى أبي فقد رأى أمّي"، ماذا تفهم من كلامه؟

لم يجب الشّمّاس بل أخذ نفسًا عميقًا، وقد بدأ جيوڤاني يوضّح: إنّك تفهم أنّهما متحابّيبن ومنسجمين لحدٍّ بعيد، ويمثّلان بعضهما لدرجة أنّ رؤية أحدهما تمثّل رؤية الآخر لتوافقهما الشّديد وعدم تخالفهما..

ولا تفهم طبعًا أنّهما نفس الشّخص أو أنّ لهما نفس الطّبيعة كأن يكونا رجلين أو امرأتين، صحيح؟

وأردف ويداه تعبّران بقوّة: ومن قول المسيح نفهم نفس الشّيء؛ أنّه يحبّ الرّبّ ويمثّل تعاليمه بحذافيرها..

فقاطعه صارمًا: أنت تبحث عن معنًى يخدم هدفك!

- هذا لأنّي أنطلق من مبدأ عظمة الرّبّ المطلقة، فلا أرضى له أن يقال عن أحد "أقانيمه" أنّه ابنٌ يولد ويصلب ويقتل و...

انظر إلى كلّ هذه العظمة والقدرة في كلّ مكان، كيف تقبلون أن تختزلوها في شكلٍ ضعيفٍ من أشكال الحياة؟!

حدّق الشّمّاس بطفلٍ ينتحب من الجوع، وهو يجيب: على العكس، الهدف من هذا هو أن يرحم الرّبّ ضعفنا، ويعلّمنا كيف نسمو فوق صور العذاب إلى رحمته!

[[إلى هنا]]]

أدار جيوڤاني وجهه مطلقًا زفرة، حين وقعت عيناه على شبح شابٍّ يسند أباه العجوز الّذي أضناه لسع السّياط، فعاد بسؤالٍ قاصم:

- هل لك أن تخبرني لم خلق الرّبّ الأبوّة والبنوّة في كلّ المخلوقات؟

- لأجل أن يستمرّ نسلهم وتستمرّ الحياة.

- فهل الرّبّ الأزليّ الأبديّ يحتاج ابنًا ليستمرّ في الحياة؟ أم هو يعبث؟ أم أحسّ بالغيرة من مخلوقاته؟! أيّ واحدةٍ من هؤلاء ترضاها للرّبّ؟! أيّ واحدة؟!

تعثّرت الكلمات في فم الشّمّاس ثمّ آثر السّكوت لوهلة، وأخذ فجأةً يتلفّت حوله بقلقٍ؛ متأكّدًا أنّ أحدًا لا يستمع إليه، ثمّ أسرّ لجيوڤاني أخيرًا: لأكون صادقًا معك.. هناك تيّارٌ مسيحيٌّ يعتقد أنّ المسيح كان رسولًا من الرّبّ، وليس هو الرّبّ نفسه، وتسمية "ابن الرّبّ" هي تشبيهٌ لمحبّته له.

صاح جيوڤاني متهلّلًا: الآن قلت الحقّ!!

أمسكه الشّمّاس بسرعة: أخفض صوتك رجاءً..!

لم يفهم جيوڤاني سبب هذا التكتّم، لكنّه أخفض صوته واستطرد:

- ..الرّبّ هو من أعطى المسيح بعض القدرة على إحياء الموتى وشفاء المرضى أو حتّى أحياه حين قيامته؛ تمامًا مثلما كان أبي يعطيني بعضًا من قوّته أيّام عزّي، قبل أن يحرمني الآن.

سعل الشّمّاس وقال مطأطئًا: أدركت الآن أنّي هنا.. لأنّ الرّبّ أراد أن يلقنني درسًا؛ كيف

أنّه قادرٌ أن يعطي الحكمة حتّى للمجرمين، وبأمثلةٍ من بيئتهم!

ضحك جيوڤاني من قلبه:

- وأنا أيضًا لا أخفيك؛ كان درسي أنّ الحكمة توجد حتّى عند العبيد.

- انتظر لحظة، أنا لست عبدًا! كلّ حياتي وأنا حرّ، وعصابتك هي الّتي خطفتني!

انفجر جيوڤاني ضاحكًا وقال: نعم، لا يمكنني تذكّر ذلك دائمًا.

ومشى جيوڤاني خطواتٍ مبتعدًا قبل أن يلتفت ثانيةً:

- ما رأيك أن تصلّي معي اليوم؟ جرّب ذلك؛ يبدو غريبًا في البداية، لكنّه يجعل صدرك مرتاحًا!

- ماذا تقصد بـ جرّب ذلك؟ ألم ترنا نصلّي جميعًا البارحة؟!

- لا، ليس بالخشوع أو عقد اليدين فقط.. يمكنك أن تركع وتسجد وأنت توجّه تعظيمك للرّبّ!

- تقصد كما كان يفعل المسيح؛ كان يضع وجهه على الأرض وهو يكلّم الآب.

أجاب جيوڤاني كالمصدوم: وتقول لي -بعد هذا -أنّه نفسه الرّبّ؟! هل كان يسجد لنفسه مثلًا؟! تخيّل أبي يسجد لصورته؛ سيكون هذا هستيريًّا!

ابتسم ثمّ أردف بمرح: إذًا هيّا تعال لنصلّي مثل المسيح!

ردّ الشّمّاس وهو ينهض مستندًا على يد جيوڤاني:

- أراك أصبحت تؤمن بوجوده الآن!!

- لا أمانع كونه معلّمًا؛ لأنّ وجوده هكذا لم يعد يتعارض مع عظمة الرّبّ..

على العكس، أتمنّى لو يرسل الرّبّ إليّ معلّمًا مثله!

استغلّ الشّمّاس الفرصة وقد تهلّل وجهه:

- آها.. هذا بيت القصيد؛ المسيح هو رسول الآب إليك ليعلّمك ما يريده الآب منك؛ دون أن يتحتّم على كلّ إنسانٍ أن يتفكّر ويستنتج كما تفعل أنت الآن!

حكّ جيوڤاني رأسه: أستطيع أن أقبل ذلك ما دامت رسالته تثبت من خلال التّفكّر.

- نعم، ولكن عليك بعد قَبوله كمعلّم أن تُسلّم لرسالته حتّى لو لم تثبتها بالتّفكّر، فليس بإمكانك أن تحيط بحكمة الرّبّ أو أن تستدلّ عليها دائمًا.

جاء ردّ جيوڤاني خافتًا: حسنًا، لا بأس.

- إذًا، هل ستأتي للكنيسة لتتعلّم تعاليم الرّبّ لو أتيح لك؟

ابتسم جيوڤاني لمّاحًا وقال مضيّقًا عينيه:

- إن كانت الكنيسة تعتقد بجبروت الرّبّ، وبشريّة المسيح، فنعم!!

تبادلا ضحكةً قصيرة قبل أن يعقّب الشّمّاس:

- استنادًا على أنّك "تنصر" رسالة المسيح الّتي جاء بها من الرّبّ، فأنت الآن "نصرانيّ"

يا جيوڤاني.

لم يعلّق جيوڤاني، بل بدأ يري الشّمّاس كيف يركع ويسجد على طريقته، وبالفعل قاما بذلك سويّةً متجاورين، وبعد الانتهاء، كانا جالسين على ركبهما على الأرض، وفخذيهما متلامسين، فمدّ الشّمّاس يده ممسكًا يد جيوڤاني وقال:

- شعورٌ طيّب؛ تحسّ أنّ الرّبّ بقربك.

- أما قلت لك؟! لهذا فعلها المسيح!

لكن أجاب بصوتٍ جادٍّ ضعيف، وهو يضغط بطنه بشدّة محنيّ الظّهر:

- نعم.. اسمعني.. أحسّ أنّها ليلتي الأخيرة، وإذا كان الرّبّ قد كلّفني بتعليمك، فدعنا نضع النّوم جانبًا اللّيلة ونتذاكر تعاليم المسيح؛ فربّما يغيّر أبوك رأيه قريبًا، ولا تتاح لك فرصةٌ أخرى لسماع الحقّ.. ثانية..

- أتستطيع؟ تبدو متعذّبًا.

- لن أستطيع النّوم في كلّ الأحوال.. ويسعدني أن أزداد عمل خيرٍ أخيرٍ قبل أن أموت.

وبالفعل قضى جيوڤاني ليلته يستمع للشّمّاس المتلوّي بأنفاسه الصّعبة، وهو يعضّ على شفته متمنّيًا لو أعطاه شطيرته كلّها وما صار إلى هذه الحالة المزرية الّتي تعكّر الحديث كلّه.

وصباحًا، بذل جيوڤاني كلّ وسعه، حتّى أنّه نال عدّة جلدات، ليؤخّر دورته في حمل الفحم فتلتقي دورته بنوبة الشّمّاس الّذي يجرّ العربة. وبالفعل، وصل إلى الشّمّاس الّذي كان يجرّ رجليه قبل العربة محنيّ الظّهر من الجوع، وقد زاده الجلّاد عذابًا، وكم برقت

عيناه حين حصل على شطيرة اللّحم سرًّا، فدسّها في فمه دفعةً واحدةً خوفَ أن يكتشفه أحد الجلّادين، لكن ما إن أدار جيوڤاني ظهره حتّى طعنه صوت سعالٍ خلفه..

كان الشمّاس يسعل بشدّةٍ حتّى كاد يختنق، وسقط على الأرض يحاول إنقاذ أنفاسه، إلّا أنّه لم يستعد أنفاسه إلّا والشّطيرة مبصوقةٌ على الأرض وهو لا يزال يسعل بشدّة، وبلمح البصر وصل الجلّاد ليرفع سوطه عليه قبل أن يهمس: ما هذا؟ لحم؟!

وصوّب بصره نحو جيوڤاني: ألهذا كنت تماطل بالعمل على غير عادتك؟! وأنا كنت أتساءل ما الّذي دهاك؟!

نظر جيوڤاني إليه مرتبكًا، ثمّ قال بخجل: استر عليّ.

- أنت تعرف القوانين، وتعرف كيف ستكون ردّة فعل عمّك لو عرف أنّك تطعم العبيد.

بهت وجه جيوڤاني وسيطر عليه العجز، فيما شرع الجلّاد بلسع الشّمّاس موعزًا لجيوڤاني: عد إلى عملك.

- اجلدني أو سأعمل زيادة، وانسَ ما رأيت.

صاح الجلّاد: قلت عد إلى عملك!!

أسرع جيوڤاني في عمله وهو يغلي خوفًا من ردّة فعل جوناثا، وقد كان سبب نزوله إلى الوادي هو شفقته على كاترينا، والآن أيّ أملٍ بعفوه بعد اقتراف ذنبٍ جديد؟!

واستمرّ يعمل بخائنة عينيه يبحث عن صديقه الشّمّاس دون أن يجده بين الوقوف، ولا استطاع أن يميّز صوته بين المتأوّهين..

كانت الشّمس قد توسّطت السّماء حين أخذه أحد الجلّادين إلى رئيسهم الّذي أقعده وقال وهو يدور حوله متوتّرًا:

- إن كان الطّعام زيادةً على حاجتك، فلستَ مضطرًّا لأخذه.

اندفع جيوڤاني: أيّ زيادة؟! لو تعطيني عشرةً لأكلتهم كلّهم.

- إذًا لماذا أعطيت العبد؟!

سكت جيوڤاني مبهوتًا؛ ولا توجد حجّةٌ ولا كذبةٌ قد تعذره، فأردف الرّئيس:

- كيف تعتريك الشّفقة وأنت هزيلٌ هكذا؟! أأنت فعلًا من عائلة ويلياموني؟؟!

بالكاد خرج صوته وهو يجيب محرجًا: استر عليّ، يكفيني ما أنا فيه.

- كل شطيرتك أمامي، وإيّاك أن يظهر منك فعل شفقةٍ ثانية، وإلّا فسأخبره بكلّ شيء.

قضم جيوڤاني شطيرته مستريحًا قبل أن يسأل:

- لكن، هل الزّعيم هو من أمركم بالتّسامح معي؟

رمق الرّئيس جيوڤاني قبل أن يقول:

- ولمَ تظنّنا نفعل ذلك إذًا؟ هل ترانا مجانين لنخالف أوامره؟!

ابتسم جيوڤاني وقد خالطه الأمل بينما أردف الرّئيس:

- لتكون بالصّورة؛ أنت هنا على أعصابنا جميعًا..

وحتّى أنّي الآن لا أعرف مدى مخاطرتي بالتّستّر عليك.

- هل يسألك عنّي باستمرار؟

- لا يسأل، ولكنّي أعرف أنّه ينصت حين أتكلّم عنك.

- حسنًا، لا تتستّر عليّ..

سأل الرّئيس مستبشرًا: أأنت واثق؟!

- لن يرحمك إن قام أحدهم بالوشي بك.. لكن على الأقلّ هناك أملٌ أن يرحمني.

ابتسم الرّئيس قائلًا: ها لقد أرحتني! ولكن لا تلمني إن كان العقاب قاسيًا.

وحين دخل جيوڤاني الزّريبة، أخذ يبحث عن الشّمّاس حتّى يأس، وأخيرًا سأل الّذين يقسمون الطّعام، فجاءه الجواب بصوت امرأةٍ متأسٍّ:

- ألم ترهم حين قتلوه، هو وأليساندرا وابنها الصّغير؟؟

ردّ مستنكرًا: قتلوه؟؟.. لا!!

- وأليساندرا؛ جُنّت حين قتلوا ابنها، فألحقوها به.. والآن ها هو ابنها الكبير، يقطّع القلوب، يبكي لوحده ويرفض الاقتراب من أحد..

أخذت العبرات المرأة بينما وقف جيوڤاني مشدوهًا، وقد كان صباح اليوم فكّر بالعديد من الأفكار مؤمّلًا أن يكملا حديثهما اللّيلة..

ولكنّ كلّ شيءٍ قد انتهى الآن، وبات صديق الأمس -المضطرّ إلى طعام- طعامًا عابرًا لسباع الأرض والجوّ، بات من الماضي قبل أن يتهنّئ جيوڤاني بكونه من الحاضر.

وزفر جيوڤاني وهو يتذكّر تلوّي الشّمّاس من الجوع البارحة، وتمتم خائبًا: مات جائعًا هو الآخر.. أكان عليه أن يشفق على الصّغار؟ أهذا ما يرضي الرّبّ؟

وفي ظلام الوحدة، وعلى صدى كلمات أنيسه الرّاحل، ساقته قدماه نحو ذلك الطّفل البائس الّذي كان حاشرًا نفسه في الزّاوية ممسكًا جسده من آلام الضّرب المبرّح، ويرجف وقد بحّ صوته من اليأس والعجز، بينما النّساء حوله يحاولن أن يخفّفن عنه بلا أيّة استجابة.

وقف جيوڤاني يناظره وقد تمثّلت له لحظة ركله إيّاه، زفر وهو يحاول أن يضغط على نفسه ليوفي بوعده للرّبّ، وأخيرًا دفع بقدميه قبله ووجهه ساحةٌ للصّراع، وحين اقترب منه ابتعدت إحداهنّ هربًا من زفرته الغاضبة، وبقي دقيقةً يرمقه وهو واقفٌ كعمودٍ يأبى الانحناء، ثمّ كسر ذلك العمود.

وصل إلى القرفصاء، وصارع كفّه ليهزّ الصّبيّ -ليعطيه- وهو يعضّ على شفته وقد ذكّره هذا بطيف كاترينا المتعاطف، فبصق في داخله على هذا الوهن الّذي خاف أن يسري في عروقه. وحين وصلت كفّه على ظهره، التفت الولد فجأةً ليرتمي في حضنه وهو يهمس باكيًا: أبي.. سأموت من الجوع!!

وأمسك بقميصه بشدّة وهو يشكو إليه ألمه بعناقٍ دامٍ، فيما كادت ملامح جيوڤاني تنفجر تقزّزًا من هذا الموقف؛ وضحكة جوناثا القديمة ترنّ في أذنه: بطّةٌ تعانق وسخ غيرها!!
غصّ وجهه وقد احمرّ ضيقًا، وأراد أن يهرب أو يختبئ من نفسه، امتدّت يداه لتقتلعا الولد عن جسده، لكنّ تشبّث الصّبيّ به ساد وهو يهمس بصوتٍ ساذج:
- دعني هنا قليلًا.. الرّبّ سيأخذني إلى السّماء، مثلما أخذ جونيور.

تشنّجت حركة جيوڤاني وزفر: حسنًا، على الأقلّ المكان مظلمٌ ولا أحد هنا سينقل لجوناثا أو للآخرين. نزل على ركبتيه يحاول التّأقلّم مع وجود الطّفل بين يديه، ينفث أنفاثًا متوتّرة. ومجدّدًا صدر همس الطّفل يهزّ ثيابه:

- أشمّ رائحة طعام.. أرجوك، أنا جائعٌ جدًّا.. أرجوك..

اهتزّ جيوڤاني وقد تذكّر قطعة اللّحم الّتي خبّأها على حين غفلةٍ من الرّئيس، ولحظة أخرجها انقضّ عليها الطّفل حتّى كاد يعضّ أصابعه، نفض جيوڤاني يده وهو يتنهّد فقاطع صوت الطّفل امتعاضه: عندما ألتقي بالرّبّ في السّماء سأخبره أنّك ساعدتّني وسيساعدك بالتّأكيد.

فسكت جيوڤاني، وحاول أن يهدّئ بالإيمان أعصابه. وبعد طول ضجّة، هدأ المكان أخيرًا وأخلد الجميع إلى النّوم، وجيوڤاني ناله التّعب وهو لا يعرف كيف يخلّص نفسه من الصّبي الّذي يخدّر قسوته كلّ قليلٍ بهمسةٍ عن الرّبّ، وجيوڤاني يتحامل على نفسه إكرامًا لوعده الّذي قطعه منذ يومين.

وبعد طول عناء، نجح أخيرًا بإقناع الفتى أن يستلقي لينام، واستطاع أن يرتاح هو الآخر، وتقلّب بأفكاره قبل أن يهمس لنفسه وهو يحدّق بالصّبيّ المنكمش: يحبّ الرّبّ حتّى ولو أسلمه إلى العذاب..

لكن.. لماذا أستغرب؟! أنا أيضًا لا أفكّر بالانتقام من جوناثا، بل ومستعدٌّ لأستعيد علاقتي معه رغم أنّه يعذّبني.. والسّبب.. "

أنزل رأسه موضّحًا لنفسه: "السّبب أنّي أعرف أنّه أنعم عليّ طويلًا قبل أن يعذّبني". ونظر للطّفل ساخرًا: "سيجنّ جوناثا نهائيًا لو علم أنّه يتسبّب بدخول الكثيرين إلى السّماء!"

وفي الصّباح، استيقظ جيوڤاني على يدي الصّغير تهزّانه بصوتٍ راجف: يا عمّ استيقظ، الجلّاد هنا!!

ارتدّ جيوڤاني ناهضًا وعيناه بالكاد تفتحان، وحين استقرّت رؤيته رأى الجلّاد أمامه ينتظره حتّى انتصب واقفًا، ولحظتها أحسّ بالكفّين الصّغيرتين تتشبّثان بساقيه وقد سرت قشعريرة الخوف فيهما..

فانتفض جيوڤاني يحاول التّخلّص منه مذعورًا أن يراه أحدٌ معه فتصل إلى جوناثا والآخرين، لكنّ الطّفل المفزوع همس وقد أدرك ببراءته كلمة السّرّ منذ البارحة:

- أريد أن أخبره أنّك كنت لطيفًا معي!

خمدت نفضات جيوڤاني مستذكرًا وعده ثانيةً، لكن ضربه تعليق الجلّاد في الصّميم:

- يبدو أنّ الأمر أكثر من مجرّد شطيرة؟!

جفّت عروق جيوڤاني وحسم كبرياؤه الأمر؛ فخطف الطّفل بسرعةٍ وقذفه إلى الجلّاد بكلّ قوّته مزمجرًا: تثرثر بدل أن تقوم بعملك؟!

لم يفكّر الجلّاد قبل أن يسحب يد الصّغير بكلّ قوّته حتّى سُمع صوت الكتف وهو يخلع، ثمّ رماه أرضًا يضربه حتّى سكت صوته، وحين تركه فتح الطّفل عينيه للمرّة الأخيرة ليستقرّ بهما على جيوڤاني بنظرةٍ غريبةٍ جمدت إلى الأبد.

تسمّرت ملامح جيوڤاني عندما أصاب سهم تلك النّظرة قلبه، وانتابته القشعريرة وهو يتذكّر ما كان الولد يقوله عن لقائه بالرّبّ، فأطرق مكشّرًا وقد أحسّ أنّ كلّ شيءٍ بينه وبين الرّبّ قد انتهى..

- لن يزعجك ثانيةً يا سيّدي، أرجو أن تأتي لتناول فطورك الآن.

اقترب الجلّاد منه بشكلٍ عفويّ، فيما رفع جيوڤاني نظره إليه يرمقه بنظراتٍ فارغة، ارتبك الجلّاد وأخذت ابتسامته تخبو وهو يطالع الملامح الجامدة الّتي أمامه، فبدأ يتراجع بخطواته متوجّسًا..

وبالفعل طفح الكيل في قلب جيوڤاني، ووجد أمامه الجلّاد كنقطة تفريغٍ مناسبة، فانقضّ عليه بكلّ ما أوتي من قوّة، يهاجمه بشراسةٍ شديدةٍ ويحاول خنقه بمرارة روحٍ؛ عسى يجعل منه كبش الفداء لوعده المكسور.

لم يعرف الجلّاد أيدافع عن نفسه أم لا، فصار يصرخ طالبًا النّجدة، وبالفعل، سرعان ما حضر زملاؤه، وأخذوا يحاولون نزع جيوڤاني عنه بكلّ الطّرق حتّى أفلحوا أخيرًا. وحين نهض الجلّاد يسعل، أرخى جيوڤاني أطرافه مبهوتًا، وقد علم أنّه رسم في أذهانهم الصّورة الّتي كان خائفًا منها.

قضى نهاره مقيّدًا على الكرسيّ، وملامح وجهه تكاد تنفجر من الضّيق؛ لقد نكث بوعده بعد كلّ ذاك الجهد، وأوصل صورته مشوّهةً إلى عيني جوناثا؛ لقد كفت تلك النّظرة من الصّبيّ لتجعله يحطّم كبرياءه بيديه الاثنتين.. والآن أين سيصوّب سهم أمله بعد أن

خيّب الطّريقين؟!

كان جسده يتململ هاربًا من النّظر إلى السّماء، وهو يترقّب عودة رئيس الجلّادين بقلق، وحين رجع أخيرًا كان قلبه يدقّ مثل الطّبل.

اقترب الرّئيس منه وهو مقطّب الحاجبين، وكانت لحظةً قبل أن يقول: لا أظنّك خمّنت حكمه.

لم يبد جيوڤاني اكتراثًا بينما أردف الرّئيس: اكتفى بتغيير موقعك إلى جلّاد..ضع تلك الشّفقة التّافهة جانبًا، وفكّر بنفسك.

ازورّ جيوڤاني في اشمئزازٍ شديدٍ انطبع على ملامحه، فعلّق الرّئيس بشيءٍ من الغيظ: ستحصل على طعامٍ أفضل، وسريرٍ وثياب.. ما الّذي يجعلك تتقزّز هكذا؟!

تقزّز من الحال المزرية الّتي كنت فيها هذه الشّهور الثّلاثة!

قدحه جيوڤاني بنظراتٍ تشتعل، فأطفأ الرّئيس غيظ نفسه بنفسٍ عميق ثمّ قال بهدوئه المعتاد: قصدتّ أنّه يسعدني أنّك تخلّصت من تلك الحال يا سيّدي.. هيّا دعني أفكّ قيدك لتغتسل ونبدأ بعلاج الجرب.

وفكّه الرّئيس، ليجده مرتخيًا على الكرسيّ لا يفكّر بالحراك، فتنهّد الرّئيس للحظةٍ يحاول أن يحدّد المشكلة، ثمّ أمسك كتف جيوڤاني: إنّ شفقتك عليهم لا تفعل سوى أنّها تزيد المعذّبين واحدًا.

في تلك اللّحظة أحسّ جيوڤاني نفسه يسمع كلماته اللّا مبالية الّتي قالها لكاترينا عندما أراد أن يقنعها أن تشنق إيزابيلا، فشهق وقد فهم أخيرًا أنّ خوف كاترينا لم يكن من تلك

الجثّة الهامدة، فسرت الشعريرة الباردة في أوصاله وهو يحاول أن يخبّئ روحه من سطوة من في السّماء.

الفصل السّابع

بجوار الوحش

دخل جيوڤاني فراشه في كوخ الجلّادين وهو يرتعش من الغضب، إنّه نفس الفراش الّذي قضى عليه أيام نقاهته الخمسة، ولكنّ هذه الأيّام الأربعة ردّته بقلبٍ آخر غير ذلك الّذي خرج به.

فخلال هذه أيّام، صُدم بموت قرابة أربعين شخصًا عاش مشاعرهم، وبعدها تعرّف على أربعة أشخاصٍ ضاعت ملامحهم قبل أن يحفظها، وبنى نوعًا من التّعاطف مع كلّ القرويين المأسورين وأحسّ أنّه منهم، وفجأةً.. يفرض عليه أن يرمي كلّ ذلك جانبًا، وينضمّ لفريق معذّبيهم.

دَسَّ رأسَهُ تحت الغِطاء، وأحكمَ سَدَّ أذنيه بأصبعيه؛ لئلا تقتحمه القهقهات الآتية من الغرفة الأخرى، حيث يجتمع جلّادوه حول موائدهم، يشربون ويلعبون الورق بلامبالاةٍ موحشة، وكأنّ صنيعهم بأبناء جلدتهم -الذين يقتاتون على الجوع بجوارهم- كان من باب الإحسان لا الطّغيان.

لم يرغب أن ينام فيصير الصّبح سريعًا، ولا أن يستيقظ فيتلظّى بمشاعره المتهيّجة، وبات يتلوّى بين العذابين ليلًا مؤرِّقًا حتّى حلّ الضّيف الّذي لا مفرّ منه؛ ألا وهو الصّبح.

انجلت خيوط الصّباح عن هيئةٍ مغايرةٍ لـ 'جيوڤاني'؛ فقد توارى شحوبه خلف وجهٍ نظيفٍ أبيض وهندامٍ مرتب، وغابت آثار الكدح ورائحة العرق المرّة. لكنّ هذا المظهر

المستحدث لم يمنحه الجرأة على النّظر إلى السّماء ثانيةً بعدما حدث، ووقف الرّئيس ينبّهه بصوتٍ غليظٍ يخدش صمت الفجر:

- آمل ألّا تبدي أيّة تعاطف أو أدنى تسامح.. ضع في ذهنك أنّ هؤلاء بهائم وليسوا بشرًا..

أجاب جيوڤاني بوجوم ملامح: ألفت نظرك إلى أنّنا نعامل البهائم بصورة أرقى من هذه الّتي نعامل بها أبناء جلدتنا.

هزّ كتفيه بلا مبالاة: ربّما، ولكن إن أنت لنت مع أحدهم؛ فسيظنّ نفسه في بيت أمّه.. اسمع من مجرّب؛ مضى عليّ عشرة سنواتٍ على رأس عملي، وأعرف ما أقوله لك.

وسكت لوهلةٍ قبل أن يضيف:

- تذكّر قوانين الزّعيم؛ أنت تريد أن تعود لمكانتك، صحيح؟!

ومضى الرّئيس، بينما بدأ العبيد يتوافدون راكضين إلى المنجم، وطأطأ جيوڤاني حين رأى المشهد من الأمام هذه المرّة بعد أن كان دائمًا آخر من يصل.

أحسّ بثقل بطنه الشّبعة حين استحضر لحظة عناقه لشطيرته الصّباحيّة المعتادة أثناء الخروج!

فرقع سياطه وجلده لا يزال يقشعرّ من صوته، وراقبهم يحملون الفحم وظهره لا يزال يئنّ من ثقله، ووقف في مكانه ورجلاه تنغزانه ليتحرّك بجهده المعتاد. فأخذ يسلّي نفسه أخيرًا بمراقبة طريقة استخدام المعاول، وقد التزم الصّمت تمامًا كي لا يميّز أحدٌ صوته، أو يدرك انقلابه الغريب.

وعلى العشاء، جلس جيوڤاني على رأس المائدة مع الجلّادين الّذين بدوا نهمين وقد انقضّت أيديهم لتختطف الطّعام، بينما جيوڤاني بالكاد يأكل ونظراته تحكي قصصًا من ضيق روحه، فخاطبه رئيس الجلّادين عن يمينه:

- لقد أبليت بلاءً حسنًا اليوم.. لست رقيق القلب كما أقلقتنا البارحة.

التزم جيوڤاني الصّمت بينما علّق أحدهم:

- لقد قلت لكم؛ الجوع يتسبّب بتصرّفاتٍ غريبة!

فردّ آخر ساخرًا: لكنّ أليكس هو من دفع ثمن جوع ويلياموني.

فردّ أليكس يتلمّس رقبته: لا زالت تؤلمني حتّى اليوم..

وتبادلوا ضحكةً بترها جيوڤاني بضربةً شديدةٍ على المنضدة بكلتا كفّيه واقفًا، وحين وجمت وجوههم، تركهم بعينين تقذفان شررًا إلى غرفة النّوم، وما إن صفق الباب حتّى همس الرّئيس:

- كنت أحاول تغيير نظرته إلى نفسه أيّها الحمقى، أعلى الفور بدأتم بالضّحك؟!

وقبل أن يقولوا شيئًا، اقتحم جيوڤاني الباب ثانيةً بعنفٍ وخطف سوطه من العلّاقة مزمجرًا: أنت جميعًا مدينون لي بالجلد، وسأنتزع كلّ جلدةٍ من صحّتكم الآن!

بهت الجلّادون فيما انتفض الرّئيس عن كرسيه بخطواتٍ متراجعة: لم ألمس منك شعرةً يا سيّدي!

واندفع أحدهم واقفًا: كنّا ننفّذ الأوامر فقط، أنت تعلم أنّنا....

وقبل أن يكمل كلامه كان جيوڤاني قد انهال عليه لسعًا وضربًا يفرغ عليه جرعةً من حقده

حتّى شبع من عذابه، وانطلق بعدها يصبّ غضبه على التّالي، وانفجر كالبركان على أليكس، وانتقل إليهم واحدًا واحدًا يذيقهم من كأس العلقم الّذي سقوه منه لأشهر!

وبعد ساعةٍ كاملةٍ من التّشفّي المجنون، فرغت الغرفة بعد أن سحب الجلّادون المجلودون أقدامهم إلى فراشهم واحدًا تلو الآخر، وبقي الطّعام على المنضدة رمزًا لعشائهم الدّامي، ووقف جيوڤاني يلهث غاضبًا وهو ينظر إلى ما فعله..

فهمس الرّئيس من خلفه: أعتقد أنّ هذا كان ضروريًا.

التفت جيوڤاني إليه بملامح شيطانيّة: أكرهكم جميعًا!!

حافظ الرّئيس على هدوئه: والآن أفرغت مشاعرك يا سيّدي، دعنا نبدأ من جديد.

لسعه جيوڤاني بعينيه النّاريّتين، واندفع إلى الغرفة حين أضاف الرّئيس: إنّهم لم يقاوموك لأنّهم يعلمون أنّك سيّدهم، ونحن نتصرّف على أساس احترامك منذ البداية يا سيّدي، وأظنّك لاحظت ذلك.

سمع الرّئيس نفخة جيوڤاني الشّديدة فأردف:

- نحن جميعًا نتوق إلى خلاصك من هذه الحال.. نحن رجالك، وعزّنا من عزّك!

وآخر ما سمعه جيوڤاني وهو يغلق الباب: ننتظرك غدًا على لعبة الورق!

هدأت تلك اللّيلة بشكلٍ حارق على كلّ الجلّادين، أمّا جيوڤاني فكان في فراشه يتقلّب ويفكّر، الحقيقة هي أنّ رئيس الجلّادين كان حكيمًا في دوره؛ فقد رتّب الأمور منذ البداية وأعطى تعليماته ليكون كلّ شيءٍ مقنعًا لجيوڤاني في هذه اللّحظة الحرجة حين يفكّر بالانتقام لنفسه.. وبعد ساعاتٍ تمطّى وزفر مقرًّا في نفسه أنّه كان انتقامًا جيّدًا؛ يفي

بغرض إعادة اعتباره!

ونهض يذرع الغرفة متململًا وقد ضاقت روحه من نظرة ذاك الصّبيّ الّتي تلاحقه، وحين لم يجد بدًّا من مواجهة فعلته؛ وقف ليصلّي رغم أنّ صدره كان أثقل من الفحم، وسجد طويلًا يعتذر للرّبّ ويؤكّد له أنّ قتله للولد كان مجرّد 'هفوة'، وأنّه سيحتاج وقتًا ليستطيع أن يكره القسوة.. وهكذا استمرّ يبرّر لنفسه؛ مفرغًا كلّ مشاعره الملتهبة على الأرض حتّى هدأ.

فيما بعد، لم يكن جيوڤاني وهو يقضي سهراته مع الجلّادين الّذين قتلوا أصدقاءه هو نفسه جيوڤاني الّذي تنصّر مع الشّمّاس، ولم يكن في الحالتين نفسه جيوڤاني الّذي تزوّج كاترينا، وفي كلّ الأحوال لم يكن جيوڤاني الأوّل الماجن الّذي كاد ينتحر في غرفته..

باختصارٍ كان جوناثا يقلّبه بين أصابعه ويشكّله كقطعة عجين بين أنامله المتلاعبة، ولكن أغاظ جوناثا أنّ ابنك -ولو كان نسخةً منك- فهو ليس أنت.

مرّت شهور عملٍ ثلاثة، تعتبر مريحةً مقارنةً بالثّلاثة الّتي سبقتها. دخل جيوڤاني ذلك اليوم ليستريح أثناء النّهار، حين فاجأه الرّئيس بوجهٍ مبتسمٍ لدرجة أن دفع جيوڤاني للتساؤل بملامح مترقّبة: يبدو أنّ لديك شيئًا مهمًّا؟

حكّ الرّئيس أنفه وسكت يلعب بصبر جيوڤاني قبل أن يعلّق أخيرًا: ماذا ستعطيني لو أخبرتك؟

أشرق جيوڤاني: أهو هو؟! أهو الخبر الّذي أنتظره؟!

أطلق الرّئيس ضحكةً قصيرة: أقنعه أن تبقى معنا!

رمى جيوڤاني سوطه عاليًا من الفرح وانفجر ضاحكًا؛ وأخيرًا سيخرج من الوادي!

نعم، لقد كلّفه هروب كاترينا أكثر من ستّة أشهرٍ متعبةٍ من حياته، ولكنّه على الأقلّ لم يحلّ محلّها تمامًا كما كان يخشى.

وعلى الفور، غسل جيوڤاني وجهه وحلق ذقنه وانطلق يجري صاعدًا من الوادي لا يلتفت وراءه، يطوي صفحة سوداء من كبريائه المكلوم وهو يخطو على نفس الحجر الّذي داسه -قبل ستّة أشهرٍ- نازلًا في ظلام خزيه!

واستقبل الباب الرّئيسيّ بصدره، وهو ينظر نحو السّماء قبل نحو البناء، ويتمتم في نفسه: أيّها الرّب، هذه المرّة سأدخله غير جيوڤاني الّذي عرفته سابقًا!

ودخل جيوڤاني بقوّة شخصيّةٍ رافعًا رأسه ومتجاهلًا نظرات من حوله، واستأذن على الزّعيم، وانتظر ونظرات الحرس تفحصه بحذر، ثمّ دخل ليركع جاثيًا أمام جوناثا الّذي قال متهكّمًا:

- انظري يا جوليا من جاء لزيارتي..

أين كنتَ كلّ هذه الأيّام؟ لقد أطلت الغياب يا... ما كان اسمك؟!

ضحك بخفّةٍ وأردف بصوتٍ جادّ: هل تعرف لماذا طلبتك؟

- لا يا سيّدي..

- أردتّ فقط أن أفرحك بخبرٍ سعيد.. البارحة خطف رجالي خمسة نساء، وخمّن من كانت من بينهم!

تلكّأ جيوڤاني لوهلةٍ: ليست لديّ فكرة.. فبالتّأكيد ليست كاترينا.

خمدت ضحكة جوناثا السّاخرة: ولم بالتّأكيد؟!

- لأنّه لو كانت هنا؛ كنت ستفضّل أن تصدمني برؤيتها في حالةٍ أكرهها، بدل أن تباشر بالكلام.

سكت جوناثا لوهلةٍ قبل أن يهمس كالمواسي لنفسه:

- حسنًا، لا يمكنني أن أتوقّع من ابني أن يكون غبيًّا.

تلك الكلمات كانت كدلو ماءٍ باردٍ سقط على رأس جيوڤاني، دقّ قلبه عندما أشرقت الحقيقة أمامه بعد طول ظنون. نعم، لقد أصابت كاترينا بملاحظاتها وإن رفضها بالكامل لحظتها، هذه هي المرّة الأولى الّتي يعترف الزّعيم به ويقول أنّه ابنه.

- ابنك يا أبي؟؟ يبدو أنّك اشتقت إليه كثيرًا!

رفع جوناثا نظراته السّاخرة إلى جوليا وقال ببسمته الباردة: كونك بدينةً على عكسه، لا ينفي أنّه أخوك، أيّتها البلهاء!

نظرت جوليا نحو جيوڤاني بنظراتٍ مذهولة، وقالت: لا أراه مصدومًا! هل أنا الوحيدة الّتي كانت خارج اللّعبة؟!

- بل أنت الوحيدة الّتي خارج العقلاء!

والتفت إلى جيوڤاني قائلًا: بقيت جملتك الأخيرة ترنّ في أذني بقيّة ذلك اليوم، حتّى لاح لي ما كنت 'تعني'، ولأجلهـا..

سكت جوناثا يسمع ردّ جيوڤاني وهو يقبّل الأرض:

- أشكرك لأنّك تنازلت وتسامحت معي، يا سيّدي وأبي.. أدركت خطئي تجاهك منذ أوّل ليلة.. أعدك أنّني لن أخون ثقتك ثانية.

ساد الصّمت للحظات قبل أن يأخذ جوناثا نفسًا عميقًا ويبتسم بخبث:

- نعم، أستحقّ كلّ شكر لأنّي أكرم نفسي دائمًا!

ثمّ استعاد صوته الغاضب: ولكن "لن تخون ثقتي ثانية"؟!

ومن الّذي استغلّ غياب العيون وأطعم العبيد؟ وذلك الجرو؟!

وإن سألتك الآن لم فعلت ذلك، فستجيبني ببساطة: أشفقت عليهم!

وكأنّك ذهبت إلى الوادي لتتسكّع، وليس لتفهم أين جرّتك الشّفقة.

أجاب بخضوع: وقد فهمتها عمليًّا؛ الشّفقة كالخمر تذهب العقل؛ وأحيانًا لا يسهل تركها.

وغيّر نبرة صوته: إنّما وعدتّك أن أقدّمك عليها؛ والسّبب أنّي أدركت من هذه التّجربة الشّاقّة أنّي مدينٌ لك بكلّ شيء، فأنت عزّي وكرامتي، وأنا دونك لست أنا!

تغيّر وجه جوناثا نحو بسمة رضًا وقال لجوليا: تلك الكلمات الّتي سمعتيها احتاجت ثلاثة أشهرٍ من التّفكير..

ابتسم جيوڤاني وهو يتذكّر كم من نهارٍ قضى وهو يرتّب جوابه، لكن قطع جوناثا ذلك بقوله: انهض!

فنهض وما يزال نظره مكسورًا، فيما حدّقت جوليا بوجهه وسألت مغتاظة: وأنت كيف خطر لك أن تشكّك أنّك ابن ياكوبو؟

سكت جيوڤاني يستطلع وضعه ثمّ أجاب: لأكون صريحًا؛ إنّها كاترينا.

رفع جوناثا حواجبه مضيّقًا عينيه ومعلّقًا بإعجاب: اللّعينة!!

فصاحت جوليا: لا!! امرأةٌ اكتشفت ذلك، وأنا كالعمياء.. تبًّا!!

بدا صوت جوناثا مستمتعًا: هذا الّذي جعلني أمشي ضدّ المجتمع منذ صغري؛ لأنّي أدركت أنّ كلّ القوانين من حولي، ما هي إلّا أوهامٌ تسكن دماغي، ولا تمتّ للحقيقة بصلة.

عقدت جوليا يديها عاضّةً على شفتها: ولم كنتما تكذبان علينا أساسًا؟؟!

أجاب جوناثا بصوتٍ ضاحك: كانت مجرّد هديّةٍ لياكوبو العقيم.. ولكن.. لأكون صريحًا؛ (وضحك) استرجعت الهديّة بعد قرابة سبع سنوات!.

ثمّ خمد وجهه وهو يقول: لكنّك حملت اسم جدّك بسببه.

أمسكت جوليا بذراع أبيها بدلع: وماذا كنت لتسمّيه أنت؟

هزّ جوناثا كتفيه بلا مبالاة: لم آبه لذلك؛ لأنّي لم أكن أريد الاحتفاظ به أساسًا.

ثمّ وجّه نظرة الخبث إلى جيوڤاني: أنت محظوظٌ لأنّي معجبٌ بوجهي!

ارتدّ جيوڤاني لحظتها وقد لاح له أنّ جوناثا كان يحاول -بركله على وجهه- طمس ملامحه؛ ليستطيع قتله.. فبدا مصعوقًا بفكرة أنّه عاش كلّ هذه الأيّام بفضل الشّبه الّذي مقته. أمّا جوناثا فقد ابتسم له بخبثٍ يقرأ أفكاره، وقطع ذلك صوت جوليا المختنق:

- والحقّ أنّك لا تشبه ياكوبو، بينما أرى ملامح أبي فيك.. اللّعنة، لا أقبلك أخًا!!

فعلّق جوناثا وهو ينهض: ربّما تقبلينه سيّدًا أيضًا.

صدم جيوڤاني وجوليا لهذا الجواب، فيما حوّل الزّعيم باصرتيه إلى جيوڤاني آمرًا: حدودك حدود البناء، وأنت غير مطاع.. واعلم أنّ أيّ شفقةٍ ستكلّفك مخصّصاتك على الأقلّ.

سارع جيوڤاني يقبّل رجل أبيه شكرًا على إعادته، أمّا جوليا فبادرت بالسّؤال: ما الّذي يجب أن أفهمه ممّا قلته لي؟؟

رمقها جوناثا شزرًا وخرج لا يأبه لها، فضربت الأرض بزفرةٍ قويّة، ثمّ التفتت من فورها نحو جيوڤاني سائلةً بغيظٍ يقطر من وجهها: ماذا لديك أيضًا؟!

أخرج جيوڤاني نفسه من حالته بصعوبةٍ ليجيبها: أنا كنت في الوادي، وعدتّ لتوّي.. أنت الّتي يجب أن تخبريني ماذا حصل في غيابي.

تنهّدت جوليا تفكّر، ثمّ ازورّت بعينين ضيّقتين: هل يكفي أنّ جوناثا معلول..؟

انفجرت الدّهشة على وجه جيوڤاني وهو يعيد: معلول؟! أراه بخير!

- يحــاول أن يبدو بخير.. يجب ألّا يعلم أحدٌ من الرّجال بذلك؛ فالمتربّصون كُثُر.

أطرق جيوڤاني: نعم.. هذا صادم.. الآن فهمت لم سامحني بهذه السّهولة على غير عادته.. هل عجز الطّبيب؟

- نعم.. بل وأخبره أنّ المرض سيذهب به خلال أشهرٍ قليلة.

توسّعت عينا جيوڤاني ووضع كفّه على وجهه قبل أن يقول مذهولًا: طالما فكّرت أنّه سيموت، ولكن الآن.. عندما صار واقعًا.. أصبحت أريد أن أهرب منه.

- وأنا أيضًا.

عاد جيوڤاني إلى غرفته القديمة، ودخل يتذكّر كيف خرج منها ذلك اليوم المشؤوم ولم يكن يتخيّل أيّ قدرٍ ينتظره، وها هو الآن يدخلها وهو يعاني من صدمة ما قد سمع..

لقد كان دائمًا يرى الحياة من خلال جوناثا، حتّى عندما آمن بالرّبّ، آمن بسبب جوناثا، والآن.. أيّ فراغٍ سيتركه غيابه؟ بل هل سيعرف كيف يعيش دونه؟!

فتح النّافذة وأخذ يحدّق بمسيره السّابق في حمل الفحم، وهو يتذكّر كيف كان يسترق النّظرات إلى هذه النّافذة ويحلم بالعودة إليها. ها قد عاد الآن وهو يحمل مئات الطّعنات في قلبه، كلّ شيءٍ هنا لم يعد كما كان حين كان ينظر إليه من خلال غروره، الأشهر السّابقة أرته الحياة من منظورٍ حادٍّ وزاويةٍ كان يظنّها محرّمةً على كبريائه.

وفجأةً خرّ جيوڤاني على وجهه ساجدًا يتمتم: عاطفة أبوّة ياكوبو ووجه جوناثا؛ بحثت عنك لتحميني وأنا في حمايتك!

وابتسم بملامح ممتنّة: أنت لست الأقوى فقط، بل أنت 'أبي' الحقيقيّ.

ورفع رأسه: ولكن سؤالي، لم كان يجب أن تخلقني من هذا الرّجل بالذّات؟

مع طول تأمّلٍ في كلّ شيءٍ في المكان، وتضارب أفكارٍ عنيف، وبسبب مقارناتٍ للماضي مع الحاضر، دار في الغرفة ودار حتّى لف اللّيل بسواده فسارع يشعل ضوءًا؛ حتّى لا يذكّره الظّلام بظلمة الزّريبة وتلك الأشباح القابعة هناك تستقي من دموعها لتحتمل لهيب القهر والحرمان.

طرقت معدنه التّساؤلات حتّى فرغ صبره في النّهاية، فانطلق يحثّ الخطا نحو غرفة

جوناثا. وحين أذن له بالدّخول، رأى هناك جاريةً حسناء راكعةً تعتني بأظافر جوناثا، وداعبت أنفه رائحة عطرٍ فاخرة تملأ غرفته الّتي ذخرت بأفخر أثاثٍ وقعت عليه عيناه في حياته، ولفت نظره وجود قرابة عشر مصابيح في الغرفة قد قلبت اللّيل نهار..

ومع أنّ كلّ هذا هو مشهدٌ مألوفٌ له لسنين عمره كلّها، لكنّه برز هذه المرّة موحشًا بشكلٍ مزعجٍ وغريب.

وبعد دقائق قضاها محتقنًا بمقارنة بذخ الزّعيم بحال نفسه الفظيع في الزّريبة، رفع جوناثا عينيه إليه أخيرًا وهو يستند على قبضته الأخرى:

- هذه المرّة، زيارتك مفاجئةٌ بالفعل.

- منذ ستّة أشهر وأنا أريد رؤيتك.. فحفنةٌ من الدّقائق لم تكفني.

أجاب متهكّمًا: امم، هل مرّت ستّة أشهرٍ بالفعل؟! بدت لي ستّة أيّام.. كلّها شربٌ ولعبٌ وراحةٌ (وتثاءَبَ) ونـــوم!

لعب جيوڤاني بملامحه ليبدو قويًا وقد أدرك أنّ سلاحه في وجهه: غريب! حتّى النّغز يشتاق إليه الإنسان!

تبادلا النّظرات قبل أن يحدّق جوناثا بأظافر يده ويومئ للجارية بالخروج، ثمّ التفت إلى جيوڤاني متهكّمًا: يبدو عليك أنّك استمتعت بالكدح في الأسفل.. نمت عضلاتك واحتدّت ملامحك، صار بإمكاني وصفك برجلٍ الآن!

وضحك واستند: لقد كنت أصغر منك حينما بدأت الكفاح لأصل إلى هنا.

بدا الشّكّ في صوت جيوڤاني: كأنّني أفهم أنّ الأمر لم يكن انتقامًا؟

- بلى، انتقامٌ من ضعفك المفرط؛ عساك تفهم أنّ الحياة للأقوياء.

وزفر مردفًا: لكنّي يئست منك أخيرًا.. ولهذا أعدتّك بعد أن علمت أنّ العبيد يتقصّدون أن يسقطوا عند قدميك "لسببٍ ما".

وصوّب نظرةً حادّةً إلى ابنه الّذي بهتت ملامحه: إذًا، قلت لي أنّك تقدّم طاعتي على الإشفاق، أليس كذلك؟

ذاب جيوڤاني من الإحراج حتّى صدر صوته متخدّجًا: اصفح عنّي.. ولكنّ الحال الّتي وضعتني فيها هي ما جعلني أدرك منطق أنّ هذا الطّعام لا يساوي هذا العمل.

فانفجر عليه: طبعًا لا يساويه!

أنا أريدهم أن أمصّهم حتّى الموت كي أستبدلهم دوريًّا أيّها الغبيّ!

استكانت ملامح جيوڤاني، فعقّب أبوه وقد عاد إلى وقاره:

- كان يفترض بك أن تتعلّم كيف تدافع عن حياتك، لا عن حياة الآخرين.

مسح عرقه: حسنًا، أعترف لك أنّ نظرتي للحياة تغيّرت جذريًّا، ولست نفسه الّذي ذهب. ولكن ألا تعتقد أنّك بالغت بطريقة التّعليم 'قليلًا'؟!

صدر صوت الضّحك من فم جوناثا المغلق ثمّ برزت أنيابه وقد مال بظهره متهكّمًا: هذا الجزء هو ما فعلته بك كاترينا.. قل لي هل لا زلت تحبّها يا طفلي؟

لمع الحزن في عيني جيوڤاني وهو يشيح بوجهه متنهّدًا، فاستند أبوه صافًّا أصابع كفّيه على بعضها البعض: دعني أخمّن.. نظرة عينيك وزيارتك المفاجأة تعني أنّ جوليا أخبرتك؟

- نعم.

مدّ رجليه يحدّق بهزّاتهما: طيلة حياتي كنت حذرًا أن يقتلني ابني كما قتلت أبي، والآن أراني سأموت في نفس عمر أبي دون أن يقتلني أحد..

لكن لهذا تقصدتّ أن أغرقك بالمجون؛ لتكون ضعيفًا ولا تشكّل عليّ خطرًا.

سكت جوناثا يقرأ ملامح جيوڤاني قبل أن يضيف بهدوء: والآن.. فات الأوان، وها أنت شخصٌ عاطفيٌّ وجاهلٌ وغير مستقلّ.

وليس لديّ إلّا بضعة شهور لأصلح ما فعلته، ولن أنجح.

لم يبد جيوڤاني تأثّرًا فاسترسل أبوه: أنا لن أنجح.. لكن أنت تستطيع أن تنجح، إنّه قرارك؛ مثلما قرّرت أنا فبإمكانك أن تقرّر أنت.

لكنّك يستحيل أن تحلّ محلّي في أشهرٍ لو مهما حدث؛ لتوّك وصلت إلى لحظة الفقر؛ الّتي بدأت أنا منها.

وإن أغمضتّ عينيّ عن ذلك، فسأكون قد وهبتهم إيّاك عبدًا أو ذبيحًا.

أخذ جيوڤاني نفسًا عميقًا ثمّ أجاب مبتسمًا: أنا أشكرك لأنّك فعلت بي ذلك!

أرسل جوناثا عينيه ليستفهما بينما هرب جيوڤاني بعينيه: الآن أعرف أنّي أستطيع أن أترك هذا المكان؛ دون أن أحسّ أنّي خسرت شيئًا.

ابتسم جوناثا لمّاحًا وقال بهدوء: أنت تؤمن بالرّبّ، أليس كذلك؟

صدم جيوڤاني لهذا الموقف المفاجئ وتعثّرت الكلمات في فمه وتاهت ملامحه، فيما انفجر جوناثا ضاحكًا منه: أنت لا تكلّم أحمقًا.. صدّق أو لا؛ عيناك أخبرتاني!

كان جيوڤاني قد فكّر ألف مرّةٍ بهذا الموقف سابقًا، ولكن عندما جاءه فجأةً هكذا؛ بدا محرجًا ولم يعرف من أين يبدأ أو ماذا يقول..

وعلى العكس، شجّعه أبوه: لا تتردّد هكذا! عبّر عن قراراتك بقوّةٍ مهما كانت.

رمقه جيوڤاني بنظراتٍ مذهولةٍ فيما أجابها جوناثا: حياتك شيءٌ يخصّك أنت، إن أردتّ أن تضع في عالمك الخاصّ ربًّا، فأنت حرّ! عش بالطّريقة الّتي تجعلك سعيدًا.

استند جوناثا وأكمل وهو ينظر نظرةً بعيدة: بالنّسبة إليّ، حاولت في حياتي أن أجرّب كلّ الحقيقة، وأحطتّ نفسي بكلّ شيءٍ يجلب السّعادة، وعشت ملكًا؛ في حين مات آبائي فلّاحين، أشقياء.

والآن دورك؛ أتحبّ أن تكون عبدًا مثل أجدادك؟ لو لم يكن ذلك أسهل شيء، لما فعله الجميع!

ضحك هازئًا وهو يرمق جيوڤاني بطرف عينيه، وقد رفع جيوڤاني أخيرًا رأسه بصوتٍ رجف رغمًا عنه: أنت ملكتني طيلة حياتي، قرابة اثنين وعشرين سنة، كنت لي فيهم سيّدًا، تفعل بي ما يحلو لك..

فهل.. فهل يمكن لي الآن أن أطلب منك أن تستمع لي هذه الأيّام الأخيرة من عمرك؟

لفّ جوناثا ساقًا فوق الأخرى، وفتح عينين ستقفزان من الضّحك: جيوڤاني أيّها المجنون! ألا ترى ما الّذي فعلتُه؟!

لقد أمعنت في عصيان الرّبّ في كلّ ثانيةٍ من حياتي، وتلذّذت بذلك وتفاخرت!

لو أرى المسيح أمامي بأمّ عينيّ، فسأسارع لأقتله!!

- لكن حتّى لو قتلت المسيح، فلن ينجيك ذلك من الّذي لا يموت!

وضع جوناثا جانب سبابته وإبهامه على ثغره السّاخر: ههه، لماذا تجرّ نفسك إلى أن أجعل منك أضحوكة؟! قلت لك اعتقد بالّذي تريده.. أنا، سعادتي، شربتها كلّها؛ أنت افعل بسعادتك ما يحلو لك.

ونهض جوناثا وهو يتمطّى: عندما تريد أن تكون سخيفًا، فلا تجادل العقلاء؛ ليس لسببٍ سوى لكي لا يفسدوا لحظتك.

وفحص جيوڤاني بباصرتيه قبل أن يستدير: لعلمك، إنّي أمسك لساني بصعوبة.. اذهب إلى النّوم وأنقذ مزاجك.

استجمع جيوڤاني كلماته وقال بنبرةٍ جريئة: أتعلم أنّ من سيقتلك هو 'جوناثا'؟

نعم، "أنت" من جعلت الرّبّ يحكم عليك بالموت في نفس عمر أبيك حين قتلته!

التفت جوناثا إلى جيوڤاني مستهزئًا: ها، أصبحت من أهل ربّ الصُّدف أيضًا.. انتظر أوّلًا حتّى يتأكّد موتي قبل أن تتبجّح؛ فماذا سيكون شعورك لو لم أمت لأيّ سبب؟! كيف ستفسّرها حينها؟!

ضحك بخفّةٍ أمام نظرات ابنه الحائرة، ثمّ قال: أتعلم لم أنت مرتبكٌ هكذا؟ ليس فقط لأنّك خائف، بل أيضًا لأنّك جاهل.. سأستغلّ الموقف لأعلّمك حكمة: لا تدافع عن شيءٍ قبل أن تحيط علمًا به؛أنت آمنت بدينٍ لا تعرف ما هو.

أجاب مدافعًا: لا، لقد تعلّمت و...

قاطعه: هل عُمِّدت؟

همس جيوڤاني متراجعًا بنفسٍ مقطوع: ماذا تعني؟

ابتسم مستخفًّا وردّ: أرأيت؟ التّعميد أوّل شيءٍ تفعله لتتنصّر!

أنا نفسي عمّدني أبي، وكنت أذهب إلى الكنيسة كلّ يوم أحد.. حتّى جدّك الفلّاح كان سيغلبك بالنّقاش، فكيف وأنا فاجرٌ منذ أربعين عامًا؟؟

أطرق جيوڤاني محرجًا بينما فتح أبوه ساعديه: ومع ذلك، لا أريد أن أغلبك بالنّقاش.. ها أنا أفتح لك الباب، اذهب وتعلّم وافهم بنفسك.

خمّن ماذا؛ غدًا هو الأحد، اذهب باكرًا إلى كنيسة 'ميرفيان' واحضر القدّاس.

- وهل هذه الكنيسة تؤمن أنّ المسيح معلّم، وليس هو الرّبّ؟

هزّ جوناثا كتفيه مستهجنًا: عمّ تتكلّم يا جيوڤاني؟ لا يوجد كنيسةٌ كهذه..

الربّ والمسيح والرّوح القدس، والثّلاثة واحد؛ هذا هو الثّالوث المقدّس.

رفع جيوڤاني رأسه: هناك شمّاسٌ أخبرني أنّ هناك نصرانيين يؤمنون بأنّ المسيح رسول من الرّبّ، و..

رفع حاجبه وأنفه: ومن أين جئت بهذا الشّمّاس الغريب؟!

- كان من العبيد في المنجم، لكنّه مات.

ابتسم ساخرًا: لا تستمع لهذه الهرطقة، وإلّا ضاع إيمانك يا جيوڤاني!

على أيّة حال، اذهب وابحث، قد يكون أحدهم ألّف قصّةً جديدة!

وفتح جوناثا باب غرفة نومه الدّاخليّ متثائبًا: عندما تجد نفسك جاهزًا تعال إليّ لنتناقش.. لا تنسَ، أنا أنتظرك!

وابتعد الصّوت إلى داخل الغرفة: حتّى لو كنتُ مشغولًا بتعذيب أسقفٍ ما، فسأنهي وآتي

من فوري!

أطلق ضحكةً سمِجة، وأغلق الحارس الباب تاركًا جيوڤاني يغلي غضبًا من نفسه، وقد ضوّع فرصًا في النّقاش بسبب الخوف الّذي عقد لسانه، فلم يستطع حتّى أن يشرح لجوناثا بم يؤمن.

كيف يتخلّص من هيبة جوناثا الّتي ترعرعت في قلبه منذ رهاب الطّفولة؟

هذا السّؤال الّذي لم يعلم له جوابًا.

مشى جيوڤاني لا يدرك أين يمشي ودماغه يدور في حلقة أفكاره، وأخيرًا دخل غرفته ليجدها مضاءةً بالشّموع، وعشاءٌ فاخرٌ ينتظره على المنضدة، وخادمة فاتنةٌ ترحّب به، حدّق بكلّ شيءٍ متفاجئًا ولفحه حنينٌ إلى أيّامٍ لم يكن يعرف فيها إلّا هذه الحياة.

جلس على كرسيّه يشتمّ رائحة اللّحم الزّكية، وصورٌ مناقضةٌ للمشهد تتردّد في خلده، لقد اقشعرّ بدنه وهو يتذكّر تلك اللّيلة الرّهيبة الأخيرة في حياة ذلك الشّمّاس المتلوّي جوعًا، ثمّ زفر ومدّ يده إلى طعامه نافضًا ضميره الّذي كان يأبى إلّا أن يستحضر له صور الجَوعى الّذين كان مجبرًا على جلدهم في الصّباح.

وبقلبٍ يعتصر خزيًا -بسبب إمعانه في نكث وعده للرّبّ طيلة الأشهر الثّلاثة الماضية- شدّ قبضته على ملعقته، وقد ثبّت نظره على كيس الفحم بجوار المدفأة يهمس: لأجل ذلك الوعد يجب أن أقنع جوناثا عساه يتركني أستعيد ثقة الرّبّ بي؛ لا يوجد سوى الرّبّ ليردعه أساسًا.

وأمضى جيوڤاني ليلةً طويلةً من التّفكير المكثّف، قبل أن ينطلق صباحًا عبر الممرّات الجبليّة على حصانه يقصد ميرفيان ليستكشف بنفسه، وقد عزم أمره على اثنتين؛ الأولى أن يتعلّم حتّى لا يدع لجوناثا عليه حجّة، والثّانية أن يجالس جوناثا في المساء ليدرس أفكاره، ويتخلّص من رهاب الطّفولة ولو ببطء.

"الشّيء الوحيد المبشّر أنّ جوناثا لا يرفض النّقاش" هذا ما دار في ذهنه وهو يدخل باب الكنيسة ليرى الصّليب الكبير يستقبله كما يستقبل العشرات من حوله، واقترب يتملّى بتفاصيل نقش المصلوب؛ يحاول استنباط ملامح ذاك الرّجل الّذي غيّر العالم.

وبعد فترةٍ دخل القسّيس رافعًا كفّه محيّيًا الحضور بجملةٍ غير مفهومة، وكذلك فعل الحضور، وانتظم الجميع، فأخذ جيوڤاني مكانًا على أحد الكراسي يتعرّف على هذه البيئة الغريبة عليه.

وهناك وقف القسّيس حاملًا كتابًا مزخرفًا وهو يتكلّم كلامًا غير مفهومٍ له، ولكن بمجرّد أن بدأ وقف الجميع، ومع أنّه وقف معهم ليستطيع الرّؤية، إلّا أنّه جلس بعد أن ملّ، وأخذ يفكّر وهو يتأمّل زخارف وصور المكان: هل كلّ هؤلاء يفهمون ما يقوله؟! هذه أوّل مرّةٍ أسمع شخصًا يتكلّم بلغةٍ أخرى!

وهكذا تفرّج على القدّاس، ووجد أخيرًا شيئًا يفهمه في العظة الّتي ذكّرته بكلام الشّمّاس، وحين رأى الجميع يتقدّمون لنيل قطعةٍ صغيرةٍ من الخبز بقدسيّةٍ شديدة، مدّ يده كبقيّة المصطفّين، لكنّ نظرة القسّيس الفاحصة جعلته يتراجع، وهو لا يفهم لم تحتاج قطعة خبزٍ كلّ ذلك الخشوع.

فجأة، اهتزّت جدران الكنيسة بصوتٍ ضخمٍ لم يسمعه من قبل؛ إنّه الأرغن. أحسّ جيوڤاني بصدى الموسيقى يرتجّ في صدره، ثمّ ارتفعت أصوات الجوقة بغناءٍ استغرب لحنه، لا يشبه معازفهم ولا أهازيج الحانات. فتجمّد في مكانه بملامح واجمةٍ وهو يراقب الجوقة بكلّ تفاصيلها، ويحاول جاهدًا أن يلتقط كلمةً مفهومةً بلا نتيجة.

وفي النّهاية وقف عند باب الخروج يراقب الخارجين وهو يهمس لنفسه:

- إمّا أن يشرح لي القسّيس بقناعةٍ كاملة، أو يفعل جوناثا بسخريةٍ كاملة.

وزفر عائدًا أدراجه إلى القسّ؛ ليبقى أكثر من ساعتين وهو يشرح له من الصّفر، واقترح القسّ عليه أن يعمّده ولكنّ جيوڤاني رفض، وأخيرًا خرج من الكنيسة ومشى خطواتٍ قبل أن يلتفت إليها ليأخذ نظرةً عن بعد وينفجر ضاحكًا بلا توقّف، وعندما بدأت الأنظار تخزه من جميع الجهات؛ تمالك نفسه وأخذ حصانه ومضى نحو البيت مبتسمًا ووجهه أحمر.

وعندما رآه جوناثا في جلسة الشّرب، ابتسم بسخريته المعتادة: أهلًا بالقدّيس يوحنّا* المعمدان!

(* اسم 'يوحنّا' هو نفسه 'جيوڤاني' و 'يحيى'، ومعناهم 'حنان الرّبّ')

ابتسم جيوڤاني: أإذا حضرتُ قدّاسًا صرتُ كبير القدّيسين؟!

- أما عضضتَ المسيح؟ صار الرّوح القدس معك!

أجاب جيوڤاني مستهجنًا: لم يعطوني لأنّي غير معمّد، لكن أحقًّا يصدّقون أنّ الخبز يصير

جزءًا من المسيح؟!

فأطلق جوناثا ضحكةً: وهل جرّبت الرّقص على دعسات أنابيب الأرغن؟

قطّب جيوڤاني ممتعضًا: دعك من الأرغن.. اشتهيت أن أفهم كلمة!

لوّح بكفّه: آه، أنسى أنّ ليس الكلّ يفهم اللّاتينيّة.. نسيت أن أخبرك بذلك البارحة.

ومدّ يده فانكبّ جيوڤاني يقبّلها كما العادة، فأمسك بناصيته يزهو بنظرات الانتصار:

- أرأيت لو نقاشتك البارحة كم كنت ستكون أحمقًا!!

- أعترف لك؛ إن لم يكن المسيح معلمًا فقط، فلن أؤمن به يا سيّدي.

وفي اليوم التّالي أخذ جيوڤاني يدور بين كنائس القرى باحثًا عن كنيسةٍ تؤمن بالطّبيعة البشريّة للمسيح، ولكن باءت كلّ محاولاته بالفشل. وعند غروب الشّمس كان عائدًا ببطءٍ على صهوة حصانه حين مرّ من مفرق مونتيس-فيروس، فوقف مستذكرًا تلك اللّيلة الّتي كان فيها يقامر بمصيره والذّعر يملأ روحه، وها هو الآن وقد انتهى كلّ شيء.

تمتم مبتسمًا: ترى أين أنت يا كاتي؟ ماذا كنت ستقولين لو عرفت أنّي تنصّرت؟!

وتداعت ذكريات تلك اللّيلة في خلده؛ حتّى وصل إلى الحدث الّذي جعله ينتفض فجأةً، ونغزت قدماه الحصان، فنشب وهاج وبالكاد استطاع السّيطرة عليه وتوجيهه، وانطلق بأقصى سرعةٍ نحو براتوس وقد ارتفعت معنويّاته، وكانت المفارقة أنّ الطّريق الّذي استنفد طاقته راكضًا منذ أشهر، لم يحسّ به على حوافر الحصان!

ووصل الشّجر حين غربت الشّمس وبدأ الظّلام يسيطر، فترجّل عن حصانه متّجهًا من

نفس المسلك الّذي سلكه ويليوس حين انسلّ هاربًا ليلتها، وهناك وجد أطفالًا يتراكضون بين الأحياء، وخلال ثوانٍ توقّفوا جميعًا أمامه يحدّقون بوجه ذلك الغريب، فبادر بسؤالهم: هل تعرفون أين أجد رجلًا باسم ويليوس؟

- ذلك العجوز! من هنا!

وركض الأولاد أمامه يقودونه إلى بيتٍ قديمٍ في الحيّ، ووقف متأمّلًا تهالك ذلك الباب القديم قبل أن يمدّ يده ليطرقه، لكنّه من الطّرقة الأولى فتح على مصراعيه مصدرًا ذاك الصّرير ليتركه ينظر في بيتٍ خالٍ.

فأطلق قدميه ليجول الدّار مستكشفًا، وهو يطبع آثار نعله في طبقة الغبار الّتي غطّت كلّ شيء. ودخل الغرفة الأخرى ليجد رجلًا مستلقيًا في الفراش كالهالك، فاقترب منه يحاول أن يتفرّس في وجهه النّائم، لولا أنّه أدرك حينها أنّه في تلك اللّيلة المظلمة لم يلتقط ملامح ويليوس أساسًا حتّى يعرفه الآن، فلم يكن أمامه سوى أن يناديه: ويليوس!

ففتح الرّجل عينيه الذّابلتين دفعةً واحدة، ونظر نحوه قائلًا: من أنت؟

- هل أنت ويليوس؟

- نعم.. ومن أنت؟

شدّ ويليوس نفسه ليجلس مسندًا ظهره على وسادة الفراش، بينما يجيبه جيوڤاني:

- أنا الشّابّ الّذي كلّمته عن دينك حينما كان سينتحر.. عند الشّجر.

مسح ويليوس وجهه: آه، نعم.. أتذكّرك. هذا وجهك إذًا! .. تشبه.. ويليامونى الزّعيم.. نعم، هذا!

ردّ متفاجئًا: أنت تعرف أبي إذًا!

فرك ويليوس وجهه النّعس، وقال: لقد انسحبت من عصابته منذ عشر سنوات.. ومع أنّه لم يعد لديّ ما أخسره.. ولكن أرجو أن يبقى هذا سرًّا، رجاءً.

- لا تقلق، لن أخبره.. جئت لنكمل حديثنا عن دينك.. ما كان اسمه؟؟

- 'الإسلام'، والّذي يتّبعه يدعى 'مسلم'.

- آه، نعم! أتدري أنّي لا زلت أصلّي حتّى الآن؟

بدا الاستغراب على ملامحه: لكنّك لم تتّعلم الصّلاة؛ أريتك الشّكل العامّ فقط.

تجعّد جبينه من الصّدمة: ماذا؟ لكنّها هكذا تجعلني أحسّ الرّبّ، ما هو الخطأ؟

كشف ويليوس غطاءه، وحرّك رجليه نحو الأرض بثقلٍ يسمع تعليق جيوڤاني: لم تبدُ لي عجوزًا هكذا قبل أشهر.

- نعم، سمّمني أحدهم منذ سنة، والسّمّ يحطّم جسدي كلّ يومٍ كما ترى.

صاح جيوڤاني منقبضًا: هذا مريع! تبدو لي كبرت عشر أو عشرين سنة!

- لهذا شعرت بالضّيق حين رأيتك تستهتر بجسدك الشّابّ.. على فكرة أنت أيضًا تغيّرت لكن بالعكس؛ يبدو هيكلك أكثر رجولة، وكلماتك أكثر قوّة!

سكت جيوڤاني ينظر جانبًا مستذكّرًا كلمات أبيه، فيما أردف ويليوس: هلّا تقرّب إليّ الماء رجاءً؟

تلكّأ جيوڤاني ثمّ تحرّك ببطءٍ حتّى قرّب إليه وعاءً كبيرًا فيه إبريق ماء، فأمسك ويليوس الإبريق: هكذا يجب أن تفعل قبل أن تصلّي.

وبدأ ويليوس ينظّف فمه وأنفه، وغسل وجهه ويديه، ومسح وجهه، ثمّ غسل قدميه أخيرًا.. وعلّق:

' هذا يدعى "وضوءًا"، والهدف منه هو التّطهّر من 'قضاء الحاجة'.

أجاب جيوڤاني بوجوم: أهذا ماءٌ وزيتٌ مقدّس؟

- لا، ماءٌ من النّهر.. أيّ ماءٍ نظيفٍ ينفع.

هزّ كتفيه: صلّيت كثيرًا ولم أفعل ذلك.

- كنت تجرّب الصّلاة، والآن سأعلّمك الصّلاة.

- انتظر لحظة، أنا لن أدخل دينك قبل أن أعلم كلّ شيءٍ عنه، وأتأكّد! هل لديكم كنيسة؟

تراجعت ملامح ويليوس الهزيلة: فهمت، ظننتك تطلب منّي أن أعلّمك الصّلاة..

لا، المسلمين لديهم 'مسجد' وليس كنيسة.. ولا يوجد منه هنا طبعًا.

سكت ويليوس لوهلةٍ قبل أن يردف: لكن بإمكاني أن أقول لك أنّ أيّة غرفة يقوم بها جمعٌ بالصّلاة، يمكن تسميتها مسجدًا.

حكّ جيوڤاني رأسه يحاول لَيَّ صور الكنائس ليتخيّل، ثمّ سأل: ألا تفعلون في المسجد شيئًا غير الصّلاة؟

- يمكن أن يقوم قائد الصّلاة بخطبةٍ صغيرة للحثّ على الإيمان وفعل الخير.

فرك عينه، ثمّ عاد ببصره نحو ويليوس، وجلس على أحد الأشياء ليسأل سؤاله للمرّة العاشرة هذا اليوم:

- قبل الصّلاة، اشرح لي ماذا تؤمنون في البداية، هل تؤمنون أنّ المسيح معلّم؟

- طبعًا.. ولكنّه ليس الأخير.. بسبب قدم رسالة المسيح، أرسل الله رسولًا جديدًا ليجدّد الرّسالة فينتفي الخطأ، ويسهل إيجاد الدّين.

أشرق جيوڤاني لسماع كلمة 'طبعًا' الّتي كان ينتظرها طيلة النّهار، فهرع يسأل متحمّسًا: ماذا تقصد بـ الله؟ وأين الرّسول؟ هل هو حيّ؟

- الله هو ذاته الرّبّ في لغتنا.. أمّا الرّسول فقد توفّي.. منذ أكثر من ألف سنة.

صفَق جيوڤاني كفّيه وعلا صوته في امتعاض: منذ ألف سنةٍ وهو رسولٌ جديد؟؟!

- لكنّ رسالة المسيح عمرها أكثر من ألفي سنة!

أجاب جيوڤاني متهكّمًا: آها، إذًا ألف سنةٍ هي جديدةٌ هكذا!

ضحك ويليوس: ذكّرتني بنفسي حين كنت أهزأ بخادمي وهو يجيبني، ثمّ بُهِتُّ مثل الأحمق!

هجم جيوڤاني: هذا ما أحتاجه؛ شيءٌ يبهت الآخرين!

وأتبعها جيوڤاني بضحكةٍ خجلةٍ وقال: حسنًا، سأتوقّف عن السّخرية، وأستمع إليك، وبعدها أحكم.

أخذ ويليوس نفسًا مبتسمًا ثمّ قال: "الإسلام" هي كلمةٌ عربيّةٌ تعني أن 'تسلم' نفسك وأمورك لله فقط؛ معتقدًا أنّه لا يوجد إلهٌ غيره...

قاطعه جيوڤاني بثقة: هذا الأمر الوحيد الّذي أنا متأكّدٌ منه!

- والأمر الثّاني أن تؤمن أنّه أرسل رسلًا لهداية البشر...

- لا أجد مشكلةً في ذلك.

- مِن هؤلاء الرّسل: موسى وعيسى المسيح و محمّد...

أشار بأصبعه: لا أعرف إلّا المسيح، ويسعدني أن يكون رسول.

- موسى هو رسول اليهوديّة...

استنفرت ملامح جيوڤاني: سمعت بهذا الدّين، بم يؤمنون؟

- مهما كانوا يؤمنون، فهم لا يرحّبون بالمنتسبين الجدد.. نسمّيه دين عرقيّ.

ارتاحت ملامح جيوڤاني: دعنا منه إذًا.. بقي الرّسول الأخير؟

- نعم، وهذا رسول الإسلام، محمّد...

وهكذا استمرّ جيوڤاني يقاطع ويليوس وهو يحكي له قصّة الرّسول 'محمّد'، يحاول شخص المجرم فيه أن ينتقدها مثلما كان ينتقد قصّة المسيح، وهو متحفّزٌ ليجد أسطورةً تؤكّد حدسه في تكذيب قصص الأديان والاقتناع برأيه الخاصّ.. فشبح هواه يحنّ في أعماقه إلى ما علّمه جوناثا طيلة حياته، وخائفٌ أن يضطرّ إلى تغيير نمط حياته المعتاد، ومع ذلك سطوة جوناثا نفسها هي الّتي خلقت في قلبه منذ البداية القوّة المضادّة ليعانق شغفه في البحث عن القويّ الحقيقي.

وعند منتصف اللّيل، عاد جيوڤاني إلى الجبل وعقله لا يزال يدور في ما سمعه، ولكن حين كانت قدماه تسوقه نحو غرفته، نبّهه صوت المعازف الّتي كانت ينبعث عاليًا من احتفال الغنائم الّذي كانت تقيمه العصابة اليوم.

وهنا اصفرّ وجه جيوڤاني واختلجت تعابيره؛ حين تذكّر أنّه نسي أمر الحفل تمامًا،

وانسلّ بينهم بهدوءٍ وهو يرجو بيأسٍ ألّا يكون جوناثا قد انتبه لغيابه.

لكن ما إن رفع عينيه نحو الزّعيم حتّى رأى باصرتيه مصوّبتين إليه كالسّهام. قرع قلبه بشدّةٍ، لكنّه أخذ نفسًا عميقًا ليهدأ ويتجاهل مخاوفه، وقليلًا قليلًا غاص معهم في الحفل حتّى كاد ينسى نفسه.

وحين تسلّل ضوء الصّبح غادر الجميع مترنّحين، وحينها فقط أحسّ جيوڤاني بأصابع تطرق كتفه، فالتفت ليجد أحد حرس أبيه يشير إليه ليأتي معه.

اقترب جيوڤاني من جوناثا الّذي كان من الواضح من نظراته أنّه ثملٌ تمامًا، وجسده مرتخٍ رغم أنّ الكأس ما يزال محافظًا على يده. فرفع جوناثا رأسه وصوّب إليه عينيه الحمراوين بلهجةٍ آمرة:

- أين كنت يا ابن الـ***ـة؟؟ لماذا تأخّرت في العودة؟ ألم أشرط عليك البارحة أن تعود عند اللّيل؟

جثا جيوڤاني وأجاب بخضوعٍ وخُلده يستحضر مدى العنف الّذي يصل إليه جوناثا عندما يثمل: اغفر لي، كنت في بيلافار ، وضللت الطّريق، وتطلّب منّي الأمر جهدًا حتّى عدتّ؛ فاللّيلة غائمة.

وسجد جيوڤاني وقلبه يرتعش؛ فهو يعلم أنّ الخطأ مع جوناثا أثناء ثمله غالبًا يعني التّعذيب حتّى الموت؛ فالكلمة التّالية الّتي سيسمعها ستحدّد مصيره وتنهي كلّ شيء، وأحسّ اللّحظات دهرًا حتّى صدر صوت جوناثا أخيرًا: لن تخرج من غرفتك أسبوعًا!

- أمرك! سأنفّذ العقاب من فوري.

ونهض جيوڤاني بحذر، وأسرع خارجًا بترقّب، ثمّ راكضًا حتّى دخل غرفته وأغلق الباب خلفه لاهثًا من الخوف، ومرّت دقيقةٌ قبل أن يستبعد الخطر ويحسّ بدفء الأمان، فتمالك نفسه وزفر مطلقًا ذعره إلى الهواء، ثمّ اندسّ في فراشه، وهو يهمس لنفسه: ممتنٌّ للسّجود، يرضي غروره بطريقةٍ مسالمة!

وقضى اليوم التّاليين في غرفته يقلّب كلام ويليوس ويقارنه بكلام القسّيسين وكلام جوناثا أوّلًا، ويجرّب أيضًا بالطّريقة الأفضل أن يصلّي خمس مرّاتٍ في اليوم، رغم أنّ الكلمات العربيّة -الّتي لم يستطع حفظها- كانت تحول به وبين التّجربة الكاملة؛ فكان يكتفي بتذكّر معناها وهو متذمّرٌ من ارتباط الأديان باللّغات.

وفي اللّيلة الثّانية، جاءه حارس جوناثا يستدعيه، وما إن دخل على جوناثا، حتّى وجد عينيه تناديان أنّه ليس في عقله ثانيةً، فأوجس وكال الشّتائم للخمر في نفسه، وجثا أمامه تحسّبًا، لكنّ جوناثا قال بصوتٍ هادئ: تعال واجلس جواري يا جيوڤاني.. أريد أن أعلّمك كيف تعيش!

ابتلع جيوڤاني ريقه بصعوبة، ونهض ليجلس بجواره منقبضًا؛ وهو يتوقّع أن ينشب مخالبه فيه ويبدأ بتعذيبه دون أن تحقّ له المقاومة مطلقًا، ولكنّ أباه هدّأه بصوته السّاخر: لا، لا تخف! أنت هنا لتتعلّم من سيّدك!

وأخذ جوناثا يتبجّح راويًا لجيوڤاني حكمًا ودروسًا من حياته الفاجرة، فيما هدأت مشاعر جيوڤاني وقد أدرك أنّ مزاجه في سكره طيّبٌ هذه المرّة.

بل وعلى العكس؛ قرّر جيوڤاني أن يستفيد من الموقف لصالحه، فدلك ذقنه محتالًا قبل أن يعلّق: عظيم! أنا حقيقةً مبهورٌ بحكمتك وقوّتك الشّديدة...

أشار إليه متغطرسًا: قل: المطلقة!

- نعم، قوّتك 'المطلقة'.. وبمناسبة ما كنّا نتكلّم عنه الفترة الماضية، كنت أتساءل: كيف استطعت في البداية أن تكشف خداع الـ.. القسّيسن والكنائس.. بسهولة؟

سكت جيوڤاني مترقّبًا نتيجة ما ألقاه، رمقه جوناثا بنظراتٍ منزعجةٍ؛ فانقبض قلبه قبل أن تسرّي عنه شفتا أبيه: لا تقل: 'تكشف'.. فخداعهم واضحٌ كالشّمس!

تنفّس جيوڤاني الصّعداء، وأجاب بصوتٍ متحمّس: بالضّبط! لكنّ النّاس لم يستطيعوا رؤية ذلك 'مثلك'!

- طبعًا، ومن قال لك أنّ النّاس 'مثلي' أصلًا؟! حتّى في ذلك الوقت كنت أذكى من الجميع، فقد كنت الأمهر في القراءة، و....

- وما هي القراءة يا سيّدي؟

رمق جوناثا جيوڤاني باستصغارٍ قبل أن يمضي دقيقتين في ضحكه المجنون، ثمّ يقرّر أن يشرح لجيوڤاني الصّابر معنى القراءة بكلماتٍ لا ترقى إلى التّوضيح بحال.

شرب جوناثا آخر شفّةٍ من كأسه، ورماه أرضًا ليصدر ضوضاء طنين الذّهب، واستند رافعًا رجلًا فوق الأخرى، وتنهّد ناشرًا رائحة نشوته، وبدأ بسرد قصّة شبابه متفاخرًا حينًا ومبالغًا آخر:

" كنت لمّاعًا منذ صغري، أجمل من أكبر حجرٍ كريم، فلاحظ قسّيس الكنيسة ذلك، وأخبر أبي أنّه بإمكاني أن أكون قدّيسًا إذا ما بدأت التّعلّم منذ هذا العمر، وبالفعل ألحقني أبي

بالمدرسة الكهنوتيّة، وبدأت مهاراتي تشعّ كالشّمس!

تعلّمت اللّاتينيّة كما لو كانت لغتي، وصرت الأسرع في القراءة، والأدهى في اختراع التّفاسير المقنعة، وبات الجميع يحسدونني، حتّى الرّبّ فعل!

وبعد أن صرت مقصودًا ومعروفًا على صغر سنّي، كان أبي يتفاخر بي ويتبارك، وهذا ما جعلني معجبًا جدًّا بنفسي، واعتقدتّ أنّي ولدتّ قدّيسًا، ولست بحاجةٍ ليعترف بي أحدٌ كذلك.

وبما أنّ الرّوح القدس معي، كان يوحي لي بفعل مكارم خاصّةً بي، فأنا فقط أستطيع أن "أبارك" الشّابّات، وأن أحصل على نصيبٍ من مال الرّبّ، وأن.. وأن..

ولكن فيما بعد، فكّرت ببساطة، إن كنت أنا أستطيع أن أقنع النّاس بما أريد رغم أنّي نفسي أحسّ أنّ فيه عيبًا؛ فلم لا يكون هناك من يقنعني ويسخر منّي أنا الآخر؟!

وهذا ما جعلني أكره لمس كتابهم المقدّس، لأنّي اعتقدتّ أنّه طريقتهم ليتلاعبوا بي، على أساس الإيمان، المصطلح الأوسع الّذي ينقذك في كلّ المعضلات!

وفي أحد الأيّام ضاق بي الحال وأنا محبوسٌ في "قفص الرّبّ"، فجمعت ما استطعت جمعه من الصّدقات ومن 'جيوب' الرّعية، ثمّ قرّرت أن أنطلق؛ فنبذت الدّين، وخلعت ثياب الرّهبان، وانطلقت أستمتع بهذه الحياة.

وبذكائي وجسدي القويّ وقدميّ الرّشيقتين، صرت أحصل على ما أريده قبل أن يعلم أصحابه أنّهم فقدوه، واقتنعت بسهولةٍ أنّ نظرات النّاس الغاضبة تجلب لذّةً أطيب من

مديحهم!! "

الفصل الثّامن

تقنعني أو آكلك

مرّت ثلاثة شهور، والزّعيم يلزم جيوڤاني بمصاحبته أغلب النّهار ليتعلّم منه حنكة القائد وحكمته بشكلٍ عمليّ، وأحيانًا يكلّفه بمهمّاتٍ خاصّةٍ ليزيد من تجاربه وعقله؛ على أمل أن تسرّع الدّروس المباشرة من نموّ حكمة جيوڤاني ورجولته، وتدارك العمر الضّائع.

أمّا جيوڤاني نفسه فقد كان يتوق لساعات فراغه؛ يستأذن أباه ليرخي لجامه قليلًا لبضع ساعاتٍ خارج القفص دون رقيب. صار يستكشف العالم الخارجيّ كإنسانٍ مسالم، ويطوف على ويليوس والكنيسة؛ وقد ضمّ إلى خطّته أن يتعلّم الكتاب المقدّس؛ ليستطيع مجاراة جوناثا فيما يعلم، ويتفكّر بأسئلته السّاخرة قبل ألّا يتاح له التّفكير.

وفي أحد الأيّام، بعد أن ودّع جيوڤاني جثمان ويليوس، عاد إلى غرفته متنهّدًا وقد لطمه الموت ثانيةً بأخذ معلّمه.. خطا نحو النّافذة يحدّق في السّماء على صدى ضرب المعاول في الوادي وهو يهمس: لن أهرب؛ ويليوس كان محقًّا، عندي الفرصة لأغيّر كلّ هذا، وربّما لهذا خلقت هنا أساسًا.

وسمع صوت الخادمة خلفه تدخل تضع له الماء، فابتسم لها بخفّة وقعد، أمسكت الإبريق تسكب له الماء ليتوضّأ وهي تسأل في أمل: طمئنّي يا سيّدي، كيف حال مسعاك؟

- اقتربتُ من النّهاية.. ولكنّي أقول لك دائمًا أنّها مجرّد رمية؛ قد لا ترقى للنّجاح.

- أرجو أن يسدّد الرّبّ هذه الرّمية وينظر إلى حالنا بعين الرّحمة.

- تقولين هذا وحالك أفضل مرّاتٍ من الآخرين!

- نعم، عندك أجد النّور الوحيد في حياتي، ولكن هذا لا ينفي أنّها مظلمةٌ من الجوانب الأخرى.

لقد كان ذاك مجرّد يومٍ ربيعيٍّ هادئ، حين أنهى جوناثا عمله اليوميّ في مراقبة مهمّات رجاله وتوزيع الغنائم السّابقة حسب قوانينه الخاصّة، وقعد يحتسي نبيذه النّهاريّ الخفيف. كان يتابع -بأعصابٍ مرهقة- الفراشات الملوّنة الّتي تسلّلت من النّافذة، وكانت عينا جيوڤاني أيضًا تراقبانهم؛ لكن وعقله في مكانٍ آخر.. وجاءت تلك اللّحظة الّتي أخذ جيوڤاني فيها نفسًا عميقًا وأطلق لسانه؛ مدشّنًا بذلك بداية الدّوامة!

- ما رأيك يا سيّدي أن نتسلّى قليلًا؟

التفت جوناثا بعينيه الشّاحبتين من المرض وقال: هات ما لديك..

- ما رأيك أن نجرّب قوّتك 'المطلقة'؟

برقت عينا جوناثا وابتسم منتفخًا: ماذا تقترح؟

- دائمًا نراك قادرًا على تعذيب الجميع دون رقيب.. ولكن السّؤال؛ هل بإمكانك -على الطّرف الآخر- أن تقوم بشيءٍ لا يؤذي أحدًا؟؟

صوّب جوناثا نظرته نحو جيوڤاني: ما الّذي ترمي إليه من وراء هذا؟

- لا شيء البتّة، مجرّد تسلية، أنت ستفكّر بطبيعة الحال بأمرٍ لم يخطر لي.

لعبت مخالب جوناثا بلحيته، ثمّ قال باستخفاف:

- أحضروا إليّ أحد المعذّبين طويلًا.

وبالفعل أسرع رجاله برمي هيكل رجلٍ مضنى أمامهما، فعلقت أنفاس جيوڤاني عندما نبّهته بضع شعيرات حمرٍ على رأس السّجين أنّ هذا هو جورفورس؛ الشّابّ الأحمر الوسيم الّذي كان مفعمًا بالحياة، يبدو الآن قطعة فحمٍ جافّةٍ نحتت عليها ملامح إنسان، غضّ وجه جيوڤاني في شحوب؛ وقد علم عمليًّا أنّ عقابه -بكلّ آلامه وخزيه- كان يدعى 'رحمةً' من جوناثا!!

وقطع أفكاره إيعازُ الزّعيم: أطلقوه.. ارموه في القرية.. ارموه أمام كنيسة.

وبحملهم إيّاه بعيدًا، التفت جوناثا نحو جيوڤاني المصدوم: أأجبت تساءلك الآن؟

ترك ياقته مستعيدًا الموضوع: في الواقع، هذا ليس تساؤلي تمامًا؛ فأنت تتلذّذ بأنّك حكمت على هذا بالعذاب ما بقي من حياته بهذا الجسد المهترئ، وستعذّب أهل الكنيسة أيضًا برعايته.

حبس جوناثا نفسًا، بينما عينا جيوڤاني تترقّبان ردّة فعله، ثمّ أمر: ضاعفوا طعام العبيد اليوم!

استند جيوڤاني يسيطر على وجهه: هذا أقرب.. لكنّه ليس ما تساءلت عنه أيضًا؛ لأنّهم سيصرفون هذه الطّاقة في عذابهم لك أيضًا.. قصدتّ شيئًا لا يكون لك منه شيء على الإطلاق.. فهل تستطيع؟

انخفضت نبرة جيوڤاني تلقائيًّا بينما رماه جوناثا بنظراتٍ ثاقبةٍ: أعطني مثالًا.

- ستظنّ أنّ لي غرضًا خاصًّا من وراء ذلك.

حدّق جوناثا إلى الأمام مفكّرًا قبل أن يتباهى:

- وإن أطلقت أحد العبيد 'إظهارًا لقوّتي'؟

- لا زلت تفعل ذلك لنفسك.. صاحب القوّة المطلقة يعطي دون أن يكترث!

تغيّر وجه جوناثا وقد بدأ يفهم بينما أردف جيوڤاني: القويّ يعطي دون حساب.. والضّعيف محتاجٌ ليأخذ.

فقاطعه بنبرةٍ حادّة: القويّ يأخذ دون حساب.. والضّعيف يُقهَر ليعطي!

حافظ جيوڤاني على هدوئه: نعم يا سيّدي، ما ذكرتَه لتوّك هو تعريف الضّعيف القويّ، أمّا أنا فأتكلّم عن القويّ القويّ؛ الّذي يجمع إلى قوّته في الأخذ استغناءً عن الحاجة.

فانقضّت مخالب جوناثا بغتةً تجسّ بساديّةٍ مجاري الحياة في رقبة جيوڤاني، ونظراته الشّيطانيّة ترمي الشّرر: آها، صار صغيري جاهزًا للنّقاش الموعود؛ دعنا نذهب إلى غرفتي الخاصّة إذًا!

ونهضوا لذلك، وانطلق جوناثا في المقدّمة لولا أن غدرت به قدمه اليمنى وكاد يسقط، ورفع رأسه لتظهر عليه الصّدمة حين وجد أنّ الّذي أسنده كان ابنه جيوڤاني، فأشاح وجهه بضيقٍ ظاهر، وتجاوزه مسرعًا بحرسه ليلحق بهم جيوڤاني خلفهم.

وما إن دخل الغرفة حتّى فوجئ بحرس أبيه يجرّونه نحو كرسيٍّ هناك ويقيّدونه عليه بشكلٍ صارم من الأعلى والأسفل، فلم يكن منه إلّا أن أرسل عيناه إلى عيني أبيه مستفهمًا، فوجده يبتسم متغطرسًا.

وحين انتهوا، أمرهم جوناثا: أعدّوا إناء زيتٍ كبيرٍ، استعدادًا لوليمتي.

وخرج الحرس ليبقى الأب وابنه وحيدين في الغرفة الّتي علاها هدوءٌ صعب، توجّس جيوڤاني وأخذ يلاحق بنظره جوناثا الّذي يدور حول الكرسيّ كالمفترس حول فريسته، ووسط هذا كافح جيوڤاني ليقسر وجهه على إخفاء التّوتّر، ووقف جوناثا خلفه أخيرًا يجسّ ملامحه بمخالبه بعنفٍ مستلذًّا بشعور السّاديّة: أعجبني أن نتسلّى سويّة.. ولذا فكّرت أن أفاجئك بمزيدٍ من المتعة!

وتركت كفّاه خدش وجهه لتضربا كتفيه بحماس: سنضع 'جسدك' على منضدة الرّهان؛ إن غلبتك في المناظرة فسآكله، وإن غلبتَ أنت يعود إليك!

ارتعش جيوڤاني مصعوقًا بهذه الكلمات، وغصّ بريقه حتّى داهمه السّعال، فعلت فوقه ضحكة جوناثا: لم تفاجأت؟!

أنت لم ترني قوّة إرادةٍ منك الفترة الماضية.. مجيؤك إلى الحياة كان غلطتي، ولذا سأعيدك من حيث جئت.

نظر جيوڤاني إلى جسده في شعورٍ من الغثيان، ثمّ حاول أن يشدّ أعصابه مشجّعًا لروحه: هيّا.. لقد كنت أعلم أنّني أخاطر.. على الأقلّ الآن سأجنّد خوفي لضرورة نجاحي، بدل أن كان عقبةً في طريقي.

وجلس جوناثا ببطءٍ على الأريكة المقابلة للكرسيّ، وهو يقول ملوّحًا بكفّه: يجب أن تشكرني لأنّي أريتك الضّوء أكثر من عشرين سنة، بينما إخوتك عادوا إلى بطني قبل أن يفهموا النّور!

شدّ جيوڤاني نفسه ليبتسم: نعم، إنّي أشكرك.. وسأعتبرك أبًا رائعًا إن أعطيتني الأمان حتّى نهاية المناظرة.

ابتسم جوناثا بزهوّ، وتلاطف وهو يخفي آلامه الجسديّة: لا بأس، سأتصبّر حتّى النّهاية ثمّ أفترسك، ولكن لا تبالغ.

ثمّ لفّ قدميه: إذًا ابدأ الكلام، وأنا سأبدأ السّخرية!

أخذ جيوڤاني نفسًا ليطرد التّوتر: في البداية، أودّ أن أخبرك باسم الرّجل الّذي غيّر توجّهي، وجعلني أبحث عن الرّبّ.

أبرز جوناثا أنيابه مشرقًا: أجل أفعل؛ علّني أقرف رقبته بقدمي!

ابتسم جيوڤاني لذلك: إنّه 'جوناثا بن جيوڤاني ويلياموني'.

ارتدّ جوناثا مستهجنًا: أنــا؟!!

تبادلا نظراتٍ صامتةٍ للحظةٍ قبل أن يردف جوناثا مستنكرًا: أنا الّذي زرعتك بالزّنـا، وسقيتك بمال الظّلم، وأنبتك على الفسوق، وما رأيت منّي إلّا الفجور تلو الفجور.. أأنا الّذي دفعتك لتؤمن بالرّبّ يا مجنون؟!

- بالضّبط!! كلّ هذا الّذي ذكرته هو ما دفعني لأبحث عن من هو أقوى منك؛ ليقف في وجه طغيانك.

ردّ جوناثا ساخرًا: آه.. لا أظنّك تقصد الرّبّ؛ فهو لم يستطع الوقوف في وجهي ولا لمرّةٍ واحدة!

- بل قل أنّك لم تتجاوزه ولا لمرّةٍ واحدة؛ هل مرّ أسبوعٌ واحدٌ استطعت فيه ألّا تأكل ولا

تشرب ولا تقضي حاجتك ولا تنام؟؟

حدّق لأعلى كابتًا ضحكته: أهذا هو وقوفه في وجهي في نظرك؟!

يا بُنيّ الأحمق، تعال أحكي لك كيف جرأت على الفجور:

كنت مؤمنًا جدًّا؛ لدرجة أنّي أردتّ أن يكلّمني الرّبّ بأيّ طريقة.. ووصل بي الأمر أن أرتكب المعاصي؛ علّه يكلّمني ولو بالتّعذيب.

ولكن خمّن ما المفاجأة؛ ضاقت القرى بفجوري ولم ينبس بحرف!!

ضيّق جيوڤاني عينيه: على هذه الطّريقة، ينبغي أن أستنتج من كوني حيًّا حتّى الآن أنّك ضعيف، على حساب أنّك لو كنت قويًّا لقتلتني كما إخوتي؛ بدل أن أستنتج أنّك تركتني أحيا بإرادتك.

حدّق جوناثا بأظافره هازئًا: يتركني بإرادته؟! ما هذا السّيّد الّذي يترك عبيده يتنعّمون بعصيانه ويسبّونه وهو يتفرّج عليهم 'بإرادته'؟!

ردّ على الفور: سيّدٌ ضامنٌ أنّ عبيده لن يفلتوا من الموت الّذي فرضه عليهم رغم أنوفهم!

تبادل جيوڤاني نظرةً مع جوناثا وقد نغزه بالجملة الأخيرة، ثمّ استطرد جيوڤاني:

- لا أبوك أعجبك، ولا أنت راضٍ بموتك الآن..

ألا يبدو أنّ هناك من حكم عليك من الأعلى معاكسًا لإرادتك يا سيّدي؟

فأجاب باستخفاف: أتدري ما أكثر شيءٍ أكرهه في أهل الدّين؟ أنّهم يجعلون الصّدف 'دلائل' على عظمة ربّهم المزعوم!

- عن أيّ صدفةٍ تتكلّم يا سيّدي؟! هل هناك إنسانٌ لن يموت؟!

هل هذه صدفة، أم حقيقة مفروضةٌ على السّيّد والعبد؟

ابتلع جيوڤاني ريقه قبل أن يضيف مؤكّدًا: لا يمكن لعاقلٍ أن ينفي حقيقة وجود قوانين في هذا العالم..

وكزعيم، أنت أكثر من يعلم أنّ التّنظيم يعني وجود منظّم.

رفع جوناثا أنفه متباهيًا: كلامٌ فارغ.. أنا لست تحت قوانين هذا الجسد المنهار.. ولا تستشهد بضعفه وقوانينه فهو لا يمثّلني!

أنا فوقه! ولو كنت أُعرَّف بجسدي لما استطعت بقوّته أن أسيطر على إنسان.. ولكن أنا؛ أنا من أسيطر على كلّ هؤلاء البشر!!

استند جيوڤاني وقد أرخى ملامحه: لكن دون جسدك، سينسى أمرك البشر..

فبما أنّ الرّبّ يقنّن على جسدك؛ فهو يحكم قبضته عليك.

قرأ جيوڤاني ملامح أبيه قبل أن يعقّب: ها أنا أقول ما يحلو لي الآن؛ لأنّك تسمح لي. أمّا إن شئتَ، فبإمكانك بسهولةٍ أن تخرس إرادتي باستعمال جسدي.

أخذ جوناثا يقرأ عيني جيوڤاني اللّتان أظهرتا قوّةً لم يعهدها منه، ثمّ علّق بتعالٍ: وأنا أتفضّل عليك ولا أفعل.

- نعم، أنا أُكبِر فيك يا سيّدي أنّك تلتزم كلمتك عندما تقولها، ولذا أظنّك تفهم الرّبّ تمامًا

حين يتفضّل ويصبر علينا حتّى نهاية مهلة الحياة.

لفّ جوناثا يده خلف الأريكة، وصار يضحك بشكلٍ متقطّع: تبًّا لك! ظهر أنّ الأشهر الثّلاثة قد أثّرت فيك يا ولد!

ابتسم جيوڤاني: سيّدي، هذا الّذي أكلّمك به فهو ما توصّلت إليه منذ طفولتي؛ من مراقبتك أنت بالذّات.. أنت كنت دروسًا لي طيلة حياتي.

فرمقه جوناثا من أعلى ملوّحًا بكفّه باستخفاف: وكلّه من بنات أفكارك، لا يوجد دليلٌ واحدٌ يربط ظنونك بواقعنا، بإمكانك بسهولةٍ أن تعتبره وهمًا وتكمل حياتك.

- يا سيّدي، كلّ إنسانٍ حرٌّ أن يستعدّ لحقيقة الموت أو يعتبره وهمًا؛ ما دامت أنفاسه تجري!

تحوّل جوناثا بعينيه وتهكّم: يا مسكين، لا يوجد لديك سوى الموت؛ الّذي لا أحد يعرف حتّى إن كان نهايةً فارغةً أم لا! أعطني دليلًا حقيقيًّا يربط واقعك بالسّماء الآن!

نظر جيوڤاني لأعلى يمينه مستذكرًا: واقعي أنا؟ حين كنت في المنجم، وقع الفحم على قدمي، وصارت تصعقني؛ ولم أستطع النّهوض رغم أنّ الجلّاد انهال عليّ...

قاطعه مستصغرًا: ...ودعوت الرّبّ، وكالعادة لم يحدث شيء.

- على العكس يا سيّدي، اختفى الألم من قدمي وكأنّ...

متململًا: جيوڤاني، هذه أفكارك! أريد سببًا ملموسًا غيّر واقعًا؛ ولا يوجد له تفسير سوى..

أن يكون تدخّلًا صريحًا من الرّبّ.

عقد جيوڤاني حاجبيه: حسنًا لديّ.. عندما صلّيت أوّل مرّة في الزّريبة وتوسّلت إلى الرّبّ أن يخلّصني، أغمضت عينيّ لأرى حلمًا غريبًا؛ أنّك مريضٌ وتناديني..

لم أفهم شيئًا طبعًا..

وحين أخرجتني صعقت حين سمعت أنّك مريض؛ وكأنّ الرّبّ أراد أن يخبرني حينها...

بدت أنفاس جوناثا ثقيلةً قبل أن يقاطعه بحركاتٍ هازئة:

- وما أدراني إن كنت حلمت أم لا؟!

ارتخى كتفا جيوڤاني: معك حقّ، سأعطيك دليلًا من حياة كاترينا..

قد كانت دائمة الصّلاة والتّوسّل للرّبّ، والحقيقة أنّي بلا سببٍ مقنعٍ أحببتها؛ مع أنّها ليست تلك الفاتنة.. لقد كنت أريدها لنفسي، فلم ضحّيت بنفسي لأجلها؟!

استند جوناثا معلّقًا: وليس أنت فقط، بل العبد أيضًا.

واستدرك جوناثا وقد انتبه: جيوڤاني، أهذا نفسه الـ*** الّذي أطلقتُه قبل قليل؟

أومأ جيوڤاني بالإيجاب فقدحه جوناثا بنظرةٍ شديدة، فانبرى من فوره مدافعًا: لم أحدّد أيّ شيء، وأنت أيضًا لم تحدّد حين أمرتهم!

غيّر جلسته مستعدًّا ليناديهم ليعيدوه، ثمّ تراجع متخلّيًا عن الفكرة وزفر بصبر: ليكن، ليتعذّب بجسده المهترئ.

وعاد بنظره إلى جيوڤاني الّذي كان مطرقًا في ترقّب: ما رأيك أن نستغلّ الصّدفة لنقول أنّ الرّبّ هو من أنقذه؟

رفع جيوڤاني عينيه مستطلعًا: في الواقع، إنّ حديثنا عن الرّبّ هو ما جعلني أطلب منك ذاك التّحدّي أساسًا؛ لذا أجل، الرّبّ هو الّذي أنقذه في كلا الحالتين.

انفلتت قهقهةٌ من جوناثا قبل أن يعبّر ماسحًا عينه: حسنًا، هذه أقبلها لك، الرّبّ فعلًا هو سبب خروجه!

دلك جوناثا أنفه ثمّ قال حافرًا جبهة جيوڤاني بمخلب سبّابته المدبّب: أتحدّاك أن تعطيني دليلًا من حياتي الخاصّة؛ بما أنّك دائمًا تطالعها!

حمل جيوڤاني ثقل ذلك، ثمّ قال وهو يحسّ بقطرة الدّم تسيل على مفرق حاجبيه: أنّك في شبابك كنت تطلب من الرّبّ أن يجعلك قدّيسًا، وقد فعل؟

جذب جوناثا يده بسرعةٍ واستنكر: فعل؟؟!

- ألست مقدّسًا الآن؟ هناك ما لا يقلّ عن مئة شخصٍ تحت إمرتك، وأهل القرى يحسبون لك ولرجالك ألف حساب!

أجاب بصوتٍ خفيض وقد خمدت عيناه: هذا ليس ما طلبته..

- بلى، أنت طلبت أن تكوّن قدّيسًا لأجل نفسك، وليس لتعلي كلمة الرّبّ..

وهذا ما حدث بالضّبط؛ حصلت على العزّ دون أن يكون لك علاقةٌ بالرّبّ.

أخذ جوناثا أنفاسًا غاضبةً قبل أن ينفجر: وهل تجرؤ أن تقول أنّ المنطق كان أن أعيش كادحًا على أجرة محصولي للعام كلّه، بينما أستطيع أن أعيش ملكًا تزخر خزائني بالذّهب؟!

- المنطق يا سيّدي يقول: "إن عشت ضعفك، فأنت في أصل الحقيقة"

لأنّك كما قلت؛ تسيطر على الآخرين بأن توهمهم بمهارتك أنّهم يجب أن يعظّموك.. وحتّى أنت؛ تعيش في وهم أنّك قويٌّ وصاحب قوّةٍ مطلقة!!

قصمه جوناثا بحدّ نظرته فأجابه بارتباك: سيّدي، إن كنت تريدني أن أتملّقك الآن، فانتهت المناظرة؛ وأنا إلى الزّيت.

ارتخى حاجبا جوناثا وتكشّف ثغره عن ضحكة، ثمّ رمى كتفه في لا مبالاة:

- وهمي كقويّ هو أرقى من وهمك كعابد لربٍّ لا تراه!

- كلامك صحيحٌ لو كنت لا أراه.

غزت السّخريّة وجهه: لا بدّ أنّك ورثت تلك العينين الخارقتين من أمّك!

ابتسم جيوڤاني معه: ومنك أيضًا.. فثلاثتنا نرى الكون يرسم لنا أثر العظمة والقدرة..

قاطعه جوناثا: أتدري ما أستغربه منك؟ أنّك لم تسأل أبدًا عن أمّك؛ رغم أنّك كنت صغيرًا.

أجبر جيوڤاني نفسه على الهمس: أيجب أن أسمعك تتفاخر بقتلها؟!

أشرق وجه جوناثا: لم تخيّب ظنّي! دعني أستكشف هذه العاطفة الآن!

وبرزت أنيابه وهو يطلب بعض المكسّرات بحركاتٍ لا مبالية، وعلى صوت مضغها شرع يتسلّى بشرح طريقة قتل أمّ جيوڤاني بأكثر طريقةٍ تغيظ ابنًا، وعلى الطّرف الآخر أنصت جيوڤاني إليه يعضّ على أسنانه بصمت؛ رغم أنّ وجهه احمرّ وأنفاسه تسارعت..

وعندما ملّ المجرم من مجرّد التّبجّح، عاد قائلًا: بدأت معدتي تتجهّز للحمك.. هل أنهينا تلك المناظرة؟

أطرق جيوڤاني إلى اليسار يكظم غضبه: إن كنت تريدها أن تنتهي، فقد انتهت.

قرّب الأب وجهه منه كاشفًا شفتيه عن أسنانه: أهكذا لن ينقذك الرّبّ من الزّيت؟ أعَجِز لأنّك لست في مرمى نظره هنا؟!

أرجع جيوڤاني رأسه قدر الإمكان وروّض صوته ليقول: إن رأى الرّبّ أن ينجيني الآن فسيفعل، وإلّا فلا.. هو ربّي؛ ولست أنا ربّه.

عقد جوناثا يديه من الخلف متهكّمًا: ما هذا الإيمان يا جيوڤاني؛ لقد أثّرت بي!

ورفع رأسه نحو الأعلى صائحًا: اسمع، يا ربّ جيوڤاني.. أنا أتحدّاك أن تنقذ جيوڤاني منّي الآن.. أتحدّاك أيّها الضّعيف!!

مشى جوناثا مع ضحكته المتقطّعة يدور حول جيوڤاني، ثمّ علّق يرمق جيوڤاني بطرف عينيه: آسفٌ لأجلك، لقد آمنت معك وكلّمته.. لكن انظر، ولا إجابة الضّعفاء!

رمى إليه ضحكةً في زهوّ وأدار وجهه، فعقّب جيوڤاني ملمّحًا: قل لي لماذا تمشي ببطءٍ يا سيّدي القويّ؟ أحسّ مشيتك تقول شيئًا ما.

وجم ثغر جوناثا لوهلةٍ فيما أردف جيوڤاني بجدّيّة: أرجوك، كفّ عن الاستكبار، دعنا نتكلّم بالمنطق.

بسط جوناثا يديه: منطق أنّك مهما ناديت لا تجد مجيبًا؟

- بل منطق أنّه سيجيبك بطريقته وليس بطريقتك.

نفخ جوناثا بقوّة: ألست تريد المنطق؟!

لقد فعلت أكثر من ذلك منذ أكثر من أربعين سنة، وللآن لا أجد جوابًا ولا عقابًا!! لا يوجد أحد، لا يوجد ربّ.. مهما ظننت نفسك ذكيًّا أو انبهرت.. أنت تتوهّــم!!

تلاحقت أنفاس جوناثا وبدا وكأنّه قد أزاح لتوّه أثقالًا عن صدره، تدافعت الكلمات إلى لسان جيوڤاني، كان كلّ عقله يقول لا تقلها، لكنّه قالها: ألهذه الدّرجة تخشى أن يكون موجودًا يا سيّدي؟

بهت وجه جوناثا من الجواب الصّادم، وداهمته موجة غضبٍ عارمة، فغطّى وجهه بيده يتلفّظ بصوتٍ جافّ: بل أخشى أنّي أخطأت حين لم أنشب مخالبي في عينيك.

لكنّ جيوڤاني أجابه ببرود وقد خلا وجهه من الدّم: وكأنّ الّذي يمسكك عن قتلي منذ عشرين سنةً؛ لا يزال محافظًا على كلمته حتّى اللّحظة؟

انتفض جوناثا وقد بلغ به الهياج أقصى مبلغ، فانقضّ من فوره؛ ليغرز مخالبه في كتفي جيوڤاني -على طرفي رقبته من الأمام- بأقصى قوّته يتشفّى بوجهٍ شيطانيٍّ مرعب: لا أحد يمسكني عن قتلك سواي، أيّها الغبيّ المجنون!

تشنّجت ملامح جيوڤاني بشدّةٍ مصعوقًا بكلّ ذلك الألم، وشرعت ثيابه تصطبغ بدمائه تدريجيًّا، فيما بدا أبوه أمامه كالخيمة العالية، وعيناه تكادان تجحظان عليه وهو يلهث ملقيًا عليه رذاذ أنفاسه الوحشيّة..

وفجأةً خرجت أعصاب جيوڤاني عن السّيطرة؛ لتستبدّ غريزة البقاء..

في اللّحظة التّالية، حاول جسد جيوڤاني أن يتلوّى رغم قيوده بحركةٍ دوديّةٍ، اصطدمت ركبة جيوڤاني بجوناثا، صاح الأخير من الألم ودفع جيوڤاني عنه بكلّ قوّته في حركة دفاعٍ لا إراديّة، انقلب الكرسيّ نحو الخلف، صعدت رجلاه الخشبيّة الأماميّة لأعلى، وصوّبت إحداهما إليه ضربةً قاضيةً في نقطة ضعفه؛ فقُذف بها إلى الخلف وهو يصيح صيحةً فظيعةً مدوّية.

وارتمى الزّعيم على إثرها على أقرب أريكةٍ ونصفه على الأرض؛ يتلوّى ويبذل مهجه ليغالب الألم المشتدّ؛ وهو يرتعش ويفرك الأرض برجليه؛ بوجهٍ قد غرق في العذاب، وعينين ستقفزان من الوجع الصّاعق.

في نفس اللّحظات، سقط جيوڤاني على ظهره مع الكرسيّ مرتطمًا بالأرض بشدّةٍ رجّت دماغه، واقتحم الحرس الغرفة لينجدوا سيّدهم بلهفةٍ عنيفة.

وصار جيوڤاني -في حاله المقلوب- يتجاهل صوت دقّات قلبه المدوّية؛ لينصت إلى كلامهم مترقّبًا بوجهٍ مصفرّ، وقد سيطر على روحه أنّه وصل إلى نقطةٍ صارت العودة منها ضربًا من المستحيل.

مرّت دقائقُ كجمرٍ حارق، قبل أن يرفع أحدهم الكرسيّ ليقول محدّقًا بجيوڤاني:

- هذا غريب؛ لا يزال مقيّدًا تمامًا.. لكن يبدو أنّ هناك آثار تعذيبٍ عليه.

فتح جيوڤاني عيناه الواجفتين ليرى جوناثا بين حرسه؛ جالسًا على الأريكة بظهرٍ مثنيٍّ غارقًا في وجعه والعناء بارزٌ على سحنته، ولهول اللّحظة _جهش جيوڤاني للبكاء وقد تملّكه اليأس من النّجاة من غرفة التّعذيب؛ فضلًا عن الحياة..

لطالما كان يذعره أن يغضبه بكلمة، والآن ماذا ستكون النّتيجة بعد كلّ هذا الوجع المجنون؟!!

ومرّت دقيقةٌ والحرس يتفرّجون عليهما، الأب يتلوّى جسديًّا والابن يتلوّى نفسيًّا؛ وقد أنساه الفزع جراحه المفتوحة وألمه الحارق، أمّا لون وجهه فلم يعد يتميّز عن لون دمه..

وفجأةً مزّق المشهد صوت جوناثا مدوّيًا: اخرجوا من الغرفة!!

فهرعوا إلى الخارج دون تفكير، وعلى صوت صفق الباب دوّى صوت الأب ثانيةً: ألآن تبكي أيّها الأحمق؟!

ابتلع جيوڤاني دموعه وهو يتمنّى لو تبتلعه الأرض، بينما أردف جوناثا مبتسمًا يمضّ ألمه: تمامًا في اللّحظة الّتي أردتّ فيها غرز أظافري في عنقك!

همس جوناثا لروحه سعيدًا: لقد انتظرت أن يردعني الرّبّ أكثر من أربعين سنة.قويّ؛ لا يحتاج أن يضربني، يكفي أنّه لم يحمني من حركتي الغبيّة.

وعلى ساحة وجهه اختلط الضّحك بالوجع: أنا تحدّيت الرّبّ يا جيوڤاني.. والآن انظر من الضّعيف بيننا.. إنّه أنا.. أجل أنا.. أنا الضّعيف!

واستند جوناثا كالمجنون يصارع أعصابه ليضحك وهي تأبى إلّا أن تزعق، وانعصرت

دموع الصّراع مُرّةً على خدّيه المحمرّين، وعينا جيوڤاني مفتوحتان كطفلٍ مترقّب، يراقبه مشدوهًا محبوس الأنفاس وهو لا يصدّق ما سمعته أذناه، وعقله يكرّر شيئًا واحدًا: غريب الأطوار.. غريب الأطوار!!

واستغرق الأمر وقتًا قبل أن يهدأ جوناثا نسبيًّا ويستطيع أن يقول بهدوءٍ غريب: حسنًا، أنا أؤمن بالرّبّ الآن..

ولكن كيف تثبت -أيّها الفيلسوف- أنّه الرّبّ أبو المسيح، ولم لا يسيطر على عقول النّاس كما يسيطر على الأجساد؟؟

كاد جيوڤاني يكذّب أذنيه، لكنّه ازدرد ريقه وشحذ صوته المختنق وهو ينادي عقله الّذي كاد يطير: لا يسيطر على عقول النّاس لأنّه.. لأنّه..

أظهر جوناثا بسمةً وهو يجيب نفسه: لأنّه يريد منهم حين يعظّموه أن يعظّموه بحقّ لأنّه عظيمٌ حقًّا!

وليس يجبر أحدًا على التّلفّظ بذلك خوفًا؛ مثلي.

علقت الكلمات في حلق جيوڤاني من شدّة دهشته، ثمّ سعل وقال:

- أمّا عن كونه أبا المسيح..

وانتزع جوناثا زمام الجواب ثانيةً: إنّه ليس أباه! المسيح إنسانٌ خلقه الرّبّ بشكلٍ خاصٍّ؛ ليكون رسولًا خاصًّا.

أطرق جيوڤاني مرتبكًا: سعيدٌ لأسمعك تقول ذلك.

رفع جوناثا رأسه مبتسمًا يتلو:

- «وهذه هي الحياة الأبديّة: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ 'وحدك'، ويسوع المسيح الذي أرسلته». يوحنّا، الإصحاح السّابع عشر.. أذكر الثّالثة.

فردّ جيوڤاني مبهورًا: ألا زلت تحفظها منذ 'أربعين سنة'؟!

- وماذا تتوقّع من شابٍّ كان يريد أن يكون قدّيسًا؟!

تبادل الاثنان بسماتٍ أينعت من بين الأوجاع، قبل أن يستغلّ جيوڤاني الفرصة الّتي لم يكن يحلم بها: إذًا دعنا نترك هذا الدّين المتناقض و..

ولكن بنبرةٍ حازمةٍ ردعه: ولماذا تزعم أنّه متناقض؟

أحسّ جيوڤاني بالغرابة، وكأنّ جوناثا استعاد ماضيه وعاد يريد أن يدافع عن دينه بشراسة، فارتبك قبل أن يجيب بصوتٍ خافتٍ متردّد:

- في الفترة الماضية، تدارست أغلب الكتاب المقدّس، وأحسست أنّه متناقض..

أجاب جوناثا جادًّا: هذا لأنّك تقرؤه لأوّل مرّة، أمّا حين تقرأه للمرّة العاشرة، سيولد في قلبك إيمانٌ يعميك عن ذلك!

بهتت ملامح جيوڤاني وهو يسترق النّظرات إلى عيني أبيه النّافذتين، حتّى انفلت جوناثا مقهقهًا أخيرًا:

- يا لك من أبله!! هل صدّقت؟؟ ألم تسمع ما قلته؟ قلت لك 'يعميك عن ذلك'!!

أطلق جيوڤاني أنفاسه: هه.. أرحتني الآن!

فأجابه هازئًا: وهل جوناثا الفاجر مريحٌ أكثر من الرّاهب؟؟

- على الأقلّ أعرِف من أنت هكذا!!!

اهتزّ جوناثا مستمتعًا يُغيظ ألمه: وما أكثر تناقضٍ لفت انتباهك فيه يا جيوڤاني؟

- الأنبياء.. هم المصطفون؛ ولكن يقترفون ذنوبًا لا تدخلهم السّماء!

دلك جوناثا ذقنه مستذكرًا: أجل، كنت أعتقد أنّي إن صرت قدّيسًا فسأكون أطهر من الأنبياء.

ركّز جيوڤاني نظره نحو أبيه بجدّيّةٍ جعلته يجم له قبل أن يفصح أخيرًا:

- أنا الآن لست نصرانيًّا، فهذا الدّين أقدم من القديم؛ ولم يعد منه نسخةٌ واضحة.

حدّد جوناثا نظرته: هل تركت دين آبائك يا خائن؟؟

ضحك جيوڤاني بخفّة: نعم، وقد أسلمت!

أجاب مكشّرًا: ما الّذي قلته بالضّبط؟!

- أترى هؤلاء الّذين يعملون معنا معروفًا، ويلهون الملك في الجنوب؟

متهكّمًا: تقصد أعداء جلالته؛ 'العثمانيّون'.

- أجل، هؤلاء لديهم دينٌ منطقيّ؛ تمامًا مثلما كنت أعتقد قبل أن أعرف كلمة 'دين'؛ تؤمن بأنّ هناك ربًّا واحدًا مسيطرًا على القوانين، وأنّه أرسل رسولًا يدعى 'محمّد'.. وانتهينا؛ لا يوجد أبٌ ولا ابن ولا ثالوثٌ ولا شيء.

غيّر جوناثا جلسته مهتمًّا: ولا يعرفون المسيح؟

- بلى الإسلام هو امتداد النّصرانيّة؛ يجب أن نؤمن بالمسيح كرسولٍ معلّم.. خلقه الله بروحه من السّيّدة مريم العذراء دون..

قاطعه جوناثا: قلت "الله"؟!

استدرك جيوڤاني: آه نعم.. بلغة الرّسول محمّد يشيرون إلى الرّبّ بـ الله.

استند جوناثا: والمسيح أيضًا يا جيوڤاني.. كان يدعو الرّبّ بلغته الآراميّة "اللّها".

تفاجأ جيوڤاني ثمّ ابتسم لأبيه: هل سأتعلّم منك الدّين في النّهاية؟

لكنّ جوناثا لم يبتسم كما توقّع منه، بل لمست يده كوعه واستدار وجهه جانبًا، وقد استغرق بالتّفكير بعيدًا. أمّا جيوڤاني على الجانب الآخر، فكان مستعجبًا من تصرّفات أبيه؛ فقد لاحظ منذ البداية أنّه تعمّد ألّا يشرب بل وبدا كأنّه يناقش باهتمام.

وهمس جيوڤاني لنفسه وهو يفحص شرود أبيه: فهمت أصل القصّة الآن..

جوناثا على وشك الموت؛ يعني جوناثا يفكّر بما بعد الموت، وابتدع أمر أكلي ليتظاهر أنّه يلعب بي، بينما هو يريد أن يتحاور معي دون أن يفقد هيبته.

وعاد جوناثا للكلام وهو يحمل ذقنه بين أصابعه: وأوامر ربّك هي نفسها الأوامر الّتي جاء بها المسيح؛ لا تقتلوا.. لا تسرقوا.. لا تزنوا...

هزّ جيوڤاني رأسه مؤكّدًا ببسمة مكر: ...'ولا تأكلوا أبناءكم'! لأنّ الرّسولان يسقيان من نفس النّبع.

برزت أنياب جوناثا كابتًا سخريته: جيوڤاني، أنت قتلت واغتصبت وسرقت بنفسك وبإرادتك الخاصّة.. فهل ذاك الشّمّاس هو من ضمن لك أنّ الرّبّ بالفعل سامحك ويريدك

أن تتحدّ به في السّماء؟

ارتدّ جيوڤاني: الشّمّاس؟ لا!

أنا أكلّم الله كلّ يوم خمس مرّات وأطلب عفوه بنفسي...

انتفض جوناثا: كلّ يومٍ خمس مرّات؟ هل أنت راهبٌ في دينك؟

- لا يوجد راهبٌ في ديني، هذا واجبٌ على الجميع.. كي نذكره في كلّ وقت ولا ننسى أوامره.

أحسّ جيوڤاني أنّ أباه مهتمّ، فعاد مضيفًا:

- بشعورك بالقويّ طيلة الوقت؛ لن يؤرّقك ضعفك يا أبي.. وحين تثق بوعده بأرضٍ مليئةٍ بلذّات الدّنيا مضاعفة؛ سيبرّر هذا لمنطقك فقدانها هنا.

وما إن سكت جيوڤاني حتّى جفل بسماع صوت سكّين جوناثا يُستلّ ووجهه قد وجم كالصّخر. فجمدت مقلتا جيوڤاني وهو يراقب أباه الّذي نهض ليدور حول كرسيّ الابن الّذي بدوره انكمش مستعدًّا للأسوأ.

وخرَق تحفّز جيوڤاني إحساسُه بضربة السّكين ترخي قيده، فانتظر وهلةً قبل أن تضرب كفّا والده الثّقيلتان كتفيه؛ اللّتين شرعتا تزعقان من ألم الجراح.

مرّت دقيقة صمتٍ، وجيوڤاني يحسّ قلبه في رقبته من لهيب التوتّر، قبل أن يهمس جوناثا أخيرًا من فوق رأس ابنه: لن أكون قدّيسًا، ولكن لا بأس إن كان جزءٌ منّي سيفعل.. دعني أرى شبيه وجهي في الفردوس.

ومن ثمّ عاد إلى اللّهجة الآمرة: غادرني!! واعلم أنّي إن وجدتّك في منطقتي بعد ثلاثة أيّام فسأعتبرك عدوّي.

وتركه مبتعدًا، فنهض جيوڤاني بعد أن خلّص رجليه من الحبل، ووقف يدلك يديه وينظر مستهجنًا نحو أبيه الّذي يتّجه نحو النّافذة؛ هل فعلًا انتهت تلك المناظرة المريعة بسلامٍ بعد كلّ ما حدث؟ أحقًّا صفح عنه دون أدنى قصاص؟!

والأغرب أنّه أمِن على غير عادته أن يعطيه ظهره؛ رغم أنّهما وحيدان في الغرفة!

أخيرًا حبس جيوڤاني أنفاسه وتقدّم نحوه بتلطّف: أنا لم أسعى إلى نقاشنا كي أنجو بحياتي؛ فأنا لم أكن أعرف أساسًا أنّك ستضع حياتي على المحكّ.

وسكت للحظاتٍ قبل أن يردف: أبي، لا أعتقد أنّ أمرًا عظيمًا كالفردوس قد يخطئ ذكاءك.

رمق جوناثا ابنه بحدّةٍ بطرف عينيه، وهمس بصوتٍ لا يكاد يسمع: حتّى لو تغاضى الرّبّ عمّا اقترفته؛ فلن أنسى ذلك أنا.. الفردوس ليس للأنجاس.

اقترب جيوڤاني منه، ولم تكن ملامحه تحمل خوفًا بقدر ما تحمل إصراراً لطيفًا:

- ربّنا كامل؛ لأنّه يجمع إلى قوّته المطلقة حبًّا مطلقًا!

يقول لنا: «لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذّنوب جميعًا»

لا تتعاظم بخطاياك على رحمة الرّبّ، فهو يحبّ أن تعتقد أنّه أعظم.

عضّ جوناثا على أسنانه، فيما أكمل جيوڤاني بملامح متأثّرة:

- اسمع هذا؛ رجلٌ قتل مئة نفس، في مثالٍ حيٍّ لما اقترفناه أنا وأنت، وحين قرّر أن يخطو خطوةً واحدةً نحو النّدم، سبقه الموت.. فرحمه الله لأجل خطوته!

لوّح جيوڤاني بيده في فضاء الغرفة: فقط لأنّه حاول يا أبي!

أخذ جيوڤاني نفسًا قبل أن يضيف: بإمكانك أن تعوّض عن ظلمك للناس بألف سنةٍ من الحساب ربّما، لكن لا تغلق باب الأمل خلفك.. لا تجعل لربك حجةً عليك ليحبسك في عذابك إلى الأبد.. فقط اعتذر وحاول أن تصلح!

أجاب جوناثا تلقائيًا: "أنـــا" أعتذر؟!!

ردّ جيوڤاني باستنكارٍ حادّ: أيّ "أنا" يا أبي؟! بعد أيّامٍ لن يعود هناك 'أنا'!!

أشاح جوناثا وجهه بشدّةٍ مرخيًا كتفيه، بينما استدار جيوڤاني قائلًا بلهجةٍ متوسّلة: أرجوك انظر؛ هذا ما ينبغي عليك فعله لو أردتّ الاعتذار؛

اغتسل بماء نظيفٍ وعظّم الرّبّ في قلبك، ووجّه إليه هذا بحبّ:

وفي صمت الغرفة الّذي لم يقطعه سوى عويل الرياح في الخارج، فعل جيوڤاني ما لم يتوقّعه أبوه قطّ..

ركع، ثمّ وضع جبهته على الأرض في سجودٍ مَهيب..

بقي لثوانٍ ملتصقاً بالأرض، بينما كان جوناثا يراقب المشهد بذهولٍ شلّ أطرافه؛ كانت تلك السّجدة هي الرّسالة الأقوى الّتي ذعرت منها روحه السّوداء.

وحين نهض، علّق جوناثا ينظر من الأعلى وقد رفع حاجبه بدهشة: أهذا الّذي كنت تفعله في براتوس حين ظنّك رافاييل نائمًا على الأرض؟

ابتسم جيوڤاني وأومأ: آن الأوان لتستبدل خمرتك يا أبي!

ابتعد جوناثا من فوره آمرًا: اذهب 'ركضًا' قبل أن أغيّر رأيي.

زفر ولم يجدّ بدًّا من الخروج من الغرفة مسرعًا، ولكن لحظة أغلق الباب داهم عينيه رؤياه السّابقة؛ حين ترك جوناثا المريض لمصيره "مغلقًا الباب"، ومضى لشأنه في الحلم. توقّف مذهولًا للحظة، وكادت رجله أن تخطو قبل أن يرتدّ ويفتح الباب ثانيةً: لقد أطال الرّبّ عمرك رغم دعاء النّاس عليك؛ لأنّه يريدك.. فلا تخيّب ظنّه بك!!

وسارع جيوڤاني بإغلاق باب الشّرّ ذاك.. وهرب بأقصى سرعةٍ يخطف الأمل..

وبمجرّد أن داست قدمه عتبة الباب.. انتشى برؤية السّماء..

ومنتعشًا بنسمات الحرّيّة.. غنّى قلبه لأوّل مرّةٍ في حياته..

سيكون جيوڤاني بلا جوناثا!!

[(النّهاية الواقعيّة: استمرّ الزّعيم يقاوم مرضه وضعفه لأيّامٍ حتّى غدر به أحد رجال العصابة فقتله شرّ قتلة وانتزع الزّعامة منه؛ بعد احتكاره إيّاها لأكثر من ثلاثين سنة.. وبعد سنواتٍ غزا العثمانيّون المنطقة واجتثّوا منها العصابات وخلّصوا أهلها من المجرمين.)

أمّا إذا كنت من مشجّعي النّهايات السّعيدة: فاقرأ الفصل الإضافيّ]

فصل إضافيّ

صفقة جوناثا

وأخيرًا أُغلِق الباب، واستطاع جوناثا -بعد طول تصبّر- أن يرخي جسده المتحامل، وزفر يتجاوز الألم وهو يغطّي وجهه بكفّه؛ فلم يسبق له أبدًا أن سمح لابنه أن يكلّمه بحرّيّةٍ هكذا، ولهذا أساسًا لم يعترف به كلّ تلك الأيّام، والآن يحاول أن يخفي عن نفسه المتوحّشة أنّه فعل، بل وأطلقه للأبد بعد أن رآه منهارًا، وبعد كلّ ما تجرّأ على قوله.

ولكنّه أجفل حين فتح الباب ثانيةً: لقد أطال الرّبّ عمرك رغم دعاء النّاس عليك؛ لأنّه يريدك.. فلا تخيّب ظنّه بك!!

وأغلق جيوڤاني الباب بسرعة.. وعلى صوت خطواته الرّاكضة المبتعدة، أنزل جوناثا كفّه فاتحًا أصابعه بعصبيّة، وروحه تهمس باستنكارٍ: ظنّه بي؟!! أيّ ظنّ؟! وهل أبقيتُ شيئًا؟! سلكت طريقًا لا عودة منه.. نعم، لا عودة منه.. لا عودة.

ورفع عينيه يحدّق بحرمانٍ نحو السّماء، وهمس بنبرةٍ باهتة: قوّةٌ مطلقة وحبٌّ مطلق؛ وأنا لا أدري ما هو الحبّ أساسًا؟!

أراه يجعل من النّاس حمقى؛ فهل تأثيره كالخمرة؟؟

وقعد جوناثا على الأريكة ببطءٍ يحاول أن يتجاوز ألمه، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا وهمس بوجهٍ غالبه الخزي: ما الّذي جعل هذا الولد يتلفّظ بتلك الكلمات؟!

لطالما نجوت من ملاحقة الجنود بأعجوبة، وطالما استغربت كيف فوّت خصمي استغلال حركةٍ غبيّةٍ من سيفي، وطالما عجبت كيف لا يغدر شركائي بي، لقد سرقت وقتلت دائمًا دون أيّ خوفٍ؛ وكأنّ روحي في أمانٍ مسبق.. أكان هذا حقيقةً هو استجابة الرّبّ لدعائي القديم؟!

حسنًا، لقد فسّرت كلّ هذا بـ أنا، وأنا أعرف أنّه ليس أنا.

شدّ قبضتيه وهو يهمس بشفتيه: أعرف في أعماقي أنّه ليس أنا.

وتلوّى رافعًا رأسه وهو يفكّر: لقد عملت المستحيل لأمحوك من حياتي، وأنا عارفٌ أنّك خارج خيمتي المظلمة موجود..

وها أنت على وشك أن تمحوني بحشراتٍ حقيرة، وتحيلني غبارًا تطؤه الأقدام.

وكشّر مضيّقًا عينيه مستطردًا: لقد عملت المستحيل كي لا أموت.. كي لا أواجه اللّحظة الّتي تُعرَف فيها الحقيقة.. ولكنّك أبيت إلّا تجعلني أعيى من عيشها لأشهر..

أشهرٌ قضيتها وأفكاري تتردّد بين الحياة والموت!

وانتفض صائحًا في أعماقه: لقد تعبت.. تعبت!

اللّعنة! لقد جعلني ذلك الصّبيّ أفقد ثقتي بنفسي.. لقد جعلني بريق عينيه أشتاق إلى شغف أيّام شبابي.

ولذكر شبابه المنصرم، انقطع نفسه وهو يقول مذهولًا: لا أكاد أصدّق! جيوڤاني بحث عن الرّبّ دون أن يوهمه أحدٌ بوجوده..

وعلّق ببطء: لم يكن.. 'حتّى'.. يعرف ما اسمه!!

أغلق عينيه ملذوعًا بالفشل: لقد كنت أحبسه في قفصي لأثبت لنفسي أنّ الرّبّ مجرّد وهمٍ من المجتمع. وبدلًا عن هذا، أثبت لي أنّ العبادة شيءٌ في صميم الإنسان.. لماذا، لماذا؟ لماذا!!!؟!!

غرز مخالبه في شعره وهو يتميّز غيظًا من واقعه، لقد بات عالقًا بين الحياة والموت؛ لا يستلذّ بشهواته، ولا يسعه أن يتراجع عمّا اقترفه، كما لا يستطيع أن ينسى صراعه ما دام الألم يزداد يومًا بعد يوم.

طيلة الأشهر الماضية، كان يعيد إقناع نفسه المتوجّسة أنّ الموت نقطة نومٍ نهائيّة، وأنّه فقط يستمتع حتّى آخر لحظة، ولكن..

يأبى فكره القديم أن يتركه، بل عمل جاهدًا أن يحطّم أمانيه ويضعه في حالةٍ من التّوتر في لجّة هذا الصّراع الخانق. وفجأةً يظهر جيوڤاني ليعضد الماضي على الحاضر، ويبرق بالأمل لعدوّه الإيمان المكلوم.

في اللّحظات التّالية، دخلت جسيكا بعد أن طرقت الباب ولم تسمع إجابة، وتلكّأت لحظةً تقرأ حاله قبل أن تقترب منه وتقول بدلعها المعتاد:

- يا لي من غبيّة! عندما رأيت جيوڤاني هاربًا بهذه الطّريقة.. خفت أن يكون قد تجرّأ عليك.. ولكن..

سكتت أمّ جوليا وقد أدركت أنّ ملامح الرّجل -الّذي يفترض أن يدعى زوجها- كانت غارقةً في شرودٍ متألّم، فقعدت بجواره تلامسه برقّةٍ:

- أرى أنّ الألم عاودك يا سيّدي.. لقد جهّزت لك وصفةً عشبيّة جديدة، أرجو أن تسمح لي أن أجرّبها!

ولكنّ جوناثا فاجأها بسؤالٍ جافّ: لماذا تهتمّين بشفائي؟ أليس أفضل لك أن أموت؟

فردّت بصوتٍ متلوّن: كيف تقول هذا يا سـ...

فصاح بها آمرًا: جسيكا!! أجيبي، أليس أفضل لك أن أموت؟

تعثّر لسانها وهي تحاول أن تجد شيئًا يرضيه قبل أن تحكم على نفسها بأيّ كلمة، لكنّه قاطعها وهو ينهض: لقد أجبتِ بالفعل.. لا أريدك بجواري ثانيةً.

لحقته وهي تتوسّل: اسمعني أرجوك.. تعقّد لساني من وقع هيبتك، و...

قبل أن تكمل، كان جوناثا قد أغلق الباب في وجهها ليتركها تضرب أخماسًا في أسداس وتتلمّس عضديها الرّاجفين، أمّا هو فكان وجهه لا يزال يرسم الغيظ وهو يهمس لروحه مطمئنًا إيّاها بشكلٍ روتينيّ: أنا قويّ.. أقهر كلّ أحد؛ ولا أحد يأمن عذابي.

قالها على عادته رغم أنّ شفتاه كانت فاترةً لدرجة الممانعة، فأطرق ومشى نحو غرفته وأسنانه تشتكي من الضّغط. وفي لحظة، فقد أعصابه فأخذ يلكم الجدار قائلًا بعينين جاحظتين: ليتها لعبةٌ لتنتهي.. ما هذا الّذي أنا فيه؟! أحسّ ثقل العالم على صدري.

واتّكأ بجبهته على الجدار يعتصر من ضيق الرّوح ويتلوّى، ثمّ هرع إلى زجاجة النّبيذ وشرع يتجرّعها بشراهة؛ عساه يفلت من نفسه.. وأين المفرّ؟!

رمى الزّجاجة الفارغة، ولا يزال يترنّح من ثقل روحه، فأسرع ليندسّ في فراشه ليلوذ

بالنّوم. لكنّ الخمر، الّتي غطّت الألم وخدّرت جسده، أنسته أن يداري مرضه ويمشي ببطء، فخانته قدماه ليجد نفسه يسقط على بطنه على الأرض، ليطلق صرخةً ألمٍ عاد صاعقًا من العدم.

ساد أنينه الغرفة، وهو لا يزال يقهر جسده المتعذّب ليرتفع بنفسه نحو السّرير، واستلقى أخيرًا وترك جفنيه يطبقان، علّه يختبئ خلف ستار النّوم، ولكن..

حين يكون العذاب في الرّوح؛ فحتّى النّوم لا يمتلك صلاحيّة الشّفاعة.

الحقيقة أنّ النّوم أخرجه من واقعه، ليدخله في واقعٍ آخر عاشه في شبابه، لقد أعاده الحلم أكثر من أربعين عامًا إلى الوراء، ليعيش لحظاتٍ لم ينسها الزّمن :

كان جوناثا -الشّابّ الرّشيق المفعم بالحيويّة- عائدًا من المدرسة اللّاهوتيّة في عطلته نحو منزل أبيه القابع على طرف أرضه، كانت نسمات الهواء العليل تداعب شعره الأسود المنسدل خلف أذنيه، وهو يحدّق مبهورًا بحجرٍ كريمٍ يبرق بين يديه.

وما إن دخل المنزل حتّى ارتمى على الكرسيّ وعقله اختُزِل إلى ما بين يديه. حينها اقترب أخوه الأصغر ياكوبو ليطّلع على هذا البرّاق، لكنّ جوناثا دفعه، وأخذ بزهوٍّ يركض هاربًا منه وهو يضحك.

لكنّ شيئًا صغيرًا دخل بين رجليه ليقلب الأمور رأسًا على عقب، تعثّر جوناثا رغم محاولاته لاستعادة توازنه، وسقط أرضًا بشدّة، وطاش الحجر الكريم من يده ليتكسّر مصطدمًا بأحد أواني الطّهو المعدنيّة الصّدئة.

ذهل جوناثا وهو يحدّق بأشلاء الحجر المتناثرة في كلّ مكان، وارتعشت أعصابه من الغضب، وفجأةً وجد نفسه ينقضّ على قطّ أخيه الّذي تقصّد أن يعرقله، لقد أمسكه غارزًا أصابعه بعنقه وأخذ يعذّبه، فيخنقه تارّةً ويعصر أعضاءه أخرى، وياكوبو -من الأسفل- يصرخ ويحاول انتزاع قطّه من بين يدي أخيه الكبير بلا أمل.

ولم يجد ياكوبو طريقةً إلّا أن يسرع بإحضار والده من الحقل، ولكن حين وصل الأب وجد القطّ صار أشلاءً مترامية هنا وهناك حول الإناء المعدنيّ نفسه، وابنه جوناثا ملطّخٌ بدمائه من رأسه حتّى قدميه، وهو يلهث من الغضب.

صدم الأب من المشهد، وصاح بابنه غاضبًا: ما الّذي تفعله في الكنيسة إن لم تتعلّم حتّى الرّفق بخلق المسيح؟!

أنا وهبتك للمسيح لتحقّق رغبتك وتصير قدّيسًا، وأنت لا تحترم المسيح حتّى!

فزمجر جوناثا بأعصابٍ مشدودة: المسيح غير موجودٍ يا أبي! لم لم ينقذ القطّ 'المسكين' الآن؟؟ يكفي!! قرّرت أن أخرج من هذه التّرّهات!

شحب وجه الأب ونزلت يداه ببطءٍ وهو يحاول ابتلاع ريقه، متبادلًا النّظرات مع ابنه الّذي كان الشّرر يتطاير من عينيه، وأخيرًا جمع الأحرف ليقول متفائلًا:

- لا بدّ أنّ الغضب قد أفقدك رشدك...

فقاطعه بحزم:

- لا!! لقد عدتّ وأنا أنوي ألّا أدوس عتبة ذلك المكان المجنون ثانيةً.. اسمعني: لا يوجد الرّبّ ولا المسيح ولا روح اللّا شيء.. إنّها مجرّد حيلةٍ ليسيطروا علينا!

فقد الأب صبره وأمسك ياقة جوناثا بشدّةٍ وصرخ فيه: أيّها المجنون!! حتّى لو لم تعد ترغب بالذّهاب، فاخرس ولا تتكلّم بهذه الطّريقة.. هذه مقدّسات.. أتفهم؟! مقدّسات! إيّاك وأن تذكرها بسوء، وإلّا...

صوّب جوناثا نظره نحو أبيه، وابتسم أوّل بسمةٍ خبيثةٍ في حياته، وفتح فمه ليرمي المقدّسات بشتيمته الأولى.. وسرعان ما جُنّ جنون الأب من هذه الوقاحة، ورماه أرضًا ينهال عليه يضربه بالعصا حتّى كلّ، وصاح أخيرًا:

- من الغد ستعود إلى الحراثة أيّها الخبيث.. وأنا الّذي كنت أمنّي نفسي بك أسقفًا.. ليقتل المسيح هذا 'المارد' الّذي دخل رأسك.

كانت تلك اللّيلة طويلةً على جوناثا، لدرجة أنّها بقيت محفورةً في ذهنه من بين كلّ ليالي عمره، كان في تلك اللّحظات على مفترق طرق حياته، كان يعلم أنّ أباه سيغفر له لو اعتذر عن تصرّفاته في الصّباح، ولكن..

- "أنــا" أعتذر منه؟! لا، لن أعيش حياتي أبلهًا مثل النّعجة لأجل غضبه التّافه. إنّه مجرّد فلّاحٍ جاهل، ولا يعلم كيف يستعبدونه بكلمة.. 'مقدّسات'.

ولم يفعل في الصّباح سوى أنّه سكت بوجهٍ غاضب، ورغمًا عن أنفه ساقه أبوه إلى الحراثة. لكن وبمجرّد أن يغيب عنه، كان يتوقّف عن العمل ليحدّق حوله وكأنّه يعيد

التّعرّف على بيئته من جديد، وبعد مرّاتٍ لطمه أبوه صائحًا:

- لا تريد أن تتعلّم ولا أن تعمل؟ ما الّذي تريده بحقّ السّماء؟

مسح جوناثا وجهه وسكت لوهلةٍ يتّخذ قراره قبل أن يصيح:

- لماذا أعمل بدل الثّور، وأنا ثريّ؟؟

ظهرت الصّعقة على وجه الأب الّذي قال بصوتٍ خفيض: إنّه حتّى يرى الأمور على عكسها.. أيّ شيطانٍ هذا الّذي..

فقاطعه بصوتٍ جاد: لا! أستطيع أن أثبت لك؛ أنا خبّأتهم في البيت، نستطيع أن نعيش ملوكًا يا أبي!

ابتسم جوناثا لأبيه محاولًا أن يعيد حاجبيه إلى مكانهما، ثمّ قال وهو يترك المحراث: حين تراهم ستصدّقني!

وركض نحو المنزل وأبوه يصيح عليه، وحين وصل الأب المنزل وجد جوناثا يخرج من غرفته، وفي يده كيسٌ جلديّ، وتقدّم يفتحه مُطلِعًا أباه على حفنةٍ من القطع النّفيسة، وهو يقول ضاحكًا: أترى؟ لا حاجة للعمل!!

أمسك الأب الكيس ويداه ترجفان، وحين لم يعد لديه شكٌّ أنّ ما بين يديه حقيقة، رفع نظره ببطءٍ نحو ابنه الفخور وقال بصوتٍ متوتّر: ومن أين جئت بكلّ هذا؟

أجاب جوناثا بزهوّ: بعضهم سرقته من الكنيسة، والآخر خطفته من الـ....

وقبل أن يكمل كان كفّ أبيه قد انهال على وجهه كأقوى مرّةٍ في حياته، وقُذف جوناثا حتّى اصطدم رأسه بالجدار. وحين أدرك ما حدث، سمع أباه يستشيط: تسرق؟! تسرق يا

مجنووون!!

ألنا أكدح طيلة النّهار لأطعمك لقمةً شريفة، وأنت تقضي وقتك بالسّرقة؟؟!

أمسك جوناثا رأسه ليتوقّف عن الدّوار، واستند على الجدار حتّى وقف وأجاب بغضبٍ مكبوت: إذًا نعمل مثل البهائم لنأكل صحنًا رخيصًا في نهاية المطاف؟؟!

- أجل، أهون من السّرقة.. أهون من تأكل طعامًا نجسًا.. أهون من أن تحرم صاحب المال من...

انفجر جوناثا: هذه كلّها ترّهات ليستسخرونا ويجعلونا نعمل على إنتاج طعامهم!!

صاح مستنكرًا: من هؤلاء...؟؟

- الّذين يعيشون ملوكًا، ونحن ثيران أراضيهم.. أنا درست اللّاهوت وعرفت كلّ شيء.. كلّها خدعة، اخرج منها ودعنا نسلك طريقنا نحو السّعادة!

تجمّدت أطراف الأب بينما استطرد الابن بنبرةٍ مهدّأة: هيّا دعنا نستمتع بالحياة.. سأشتري لك جديًا كاملًا على العشاء، ولن تنام إلّا وأنت في نشوتك.. وحتّى بإمكاني أن أشتري لك خادمة، وسـ...

وقاطعه أبوه مدوّيًا: جوناثا!!!!

سكت جوناثا للحظاتٍ قبل أن يعقد يديه بخبث: حسنًا، لا تفعل!

أمّا أنا فسأعيش ملكًا، وستجد نفسك تخدمني شئت أم أبيت.. ودَعِ المسيح ينفعك!!

وعلى وقع تلك الكلمات الخرقاء، ثار الأب حتّى صارت عيناه بحمرة الدّم، وانقضّ بجثّته الضّخمة على جسد جوناثا الغضّ، وأخذ يضربه ويلكمه وقد فقد السّيطرة على نفسه تمامًا. لكن فجأةً انفجر صوت ياكوبو وهو يبكي من الخوف ويصيح مختبئًا خلف المنضدة: توقّف.. توقّف.. لا.. لا!

فعاد للأب وعيه، وأدرك أنّه على وشك أن يرتكب جريمة القتل بابنه، فرسم صليبًا على وجهه المدمّى، وأخذ أنفاسًا كثيرةً قبل أن تطاوعه نفسه أن ينهض عنه أخيرًا. وحمل كيس جوناثا، وهرع راكضًا نحو الكنيسة ليعيده.

أمّا جوناثا فقد كان في أصعب حالٍ مرّ فيها في حياته، ولكن هل يتراجع؟

- ما دمت أتنفّس فسأدافع عن حقّي.. لن أدع قبضته تحبس عنّي أنفاس الحرّيّة.

بهذا تمتم وهو يحاول أن ينهض، قبل أن يذهب الألم بوعيه وينهار طريحًا على الأرض ومنظره يؤذي العين والعاطفة. وقعد ياكوبو يبكي دافنًا رأسه على المنضدة؛ وهو يرى أقسى مشهدٍ في حياته الصّغيرة آنذاك.

استيقظ جوناثا ثانيةً ليحسّ نفسه في السّرير، وحين أجبر عينيه المتورّمتين على الانفتاح، رأى وجه معلّمه القسّ يتلو التّراتيل فوق رأسه ويده ممسكةٌ بناصيته، فتجاوز ألم شفتيه الزّرقاوين ليقول:

- دعني وشأني.. أنا كفرت بدينك.. ولا أؤمن بمسيحك.. ولم يجبرني أيّ شيطانٍ على ذلك.. بل أنا جوناثا ويلياموني الشّيطان الجديد!

ارتدّ القسّ ثمّ عالج ملامح نفسه ليستعيد وقاره: جوناثا، تذكّر شغفك واللّحظات الجميلة الّتي قضيتها في العلم...

فقاطعه: بإمكانك أن تستمتع بأيّ شيءٍ تقتنع به.. لكن أنا، قرّرت البحث عن سعادةٍ تجتاحني حتّى وأنا أرفضها!

- هذه لن يمنحك إيّاها إلّا الرّبّ يا بنيّ.. لا تخرج من رحمة المسيح!

ردّ هازئًا: دع المسيح يمسكني بكلّ قوّته عن فعل ما أريد.. هيّا، أين هو؟ ألا يستطيع السّيطرة على عبده بنفسه؟؟

وبعد نقاشٍ طويل، خرج القسّ من المنزل وأبو جوناثا يلحق به، ليقف القسّ عند الطّريق: أنا آسف؛ إنّه يفعل ذلك بإرادته الكاملة.

أجاب الأب بصوتٍ مختنق: أأنت واثق يا سيّدي؟

- هذا تلميذي منذ خمس سنوات، وأعرف ذلك الإصرار الفولاذيّ الّذي لديه.. وخاصّةً وأنّك أدخلت العنف في المسألة.

تنهّد القسّ وأضاف: نفس الشّغف الّذي كان يوجّهه ليصير قدّيسًا، صار يوجّهه ليصير شيطانًا.. ليس أمامنا سوى أن نصلّي لأجل أن يعود إلى رشده.. فليعوّضك المسيح يا أخي!

وغادر القسّ ببساطةٍ تاركًا الأب يذوب من الخزي والعجز، ينظر إلى السّماء متوسّلًا يستجدي المساعدة من الرّبّ.. هل سيُحرَم ابنه كنسيًّا ويغدو مطرودًا من الرّحمة؟؟ كان

يرجو من المسيح أيّ معجزة تخلّصه من هذه الفضيحة ووصمة العار الّتي ستنطبع عليه أبدًا.

في اليوم التّالي، قعد جوناثا على مائدة الطّعام ثانيةً والكدمات الشّديدة قد أفسدت وجهه، استغرب حين وجد صحنه فيه كمّيّة أكبر من الخبز واللّحم، نظر نحو صحن أخيه ليجد فيه الكمّيّة القليلة المعتادة، أمّا صحن أبيه فكان على النّصف، وجاء صوت أبيه ليشرح له:

- إن كانت المشكلة أنّك لا تشبع، نستطيع أن نحلّها كما ترى.

ضيّق جوناثا عينيه وأجاب بجفاء: لا أشبع، ولا أحصل على الشّراب طيلة الوقت، وليس لديّ جوارٍ ولا خدم، وليس لديّ بيتٌ فاخر، وعليّ أن أعمل..

هذه هي مشاكلي، هل تستطيع أن تحلّها كلّها بعملك الشّريف؟؟

سكت الأب بمرارةٍ وقعد ليأكل، وبعد تفكيرٍ أجابه: حتّى الملك هناك حدودٌ لقدراته.. لا أحد يستطيع أن يفعل كلّ ما يحلو له.. بل حتّى عندما يكون بإمكانك ذلك، ستكون الحياة سخيفةً وبلا معنى، يا بنيّ.

عاند متعاليًا: أستطيع أن أبذل نفس الجهد الّذي تبذله ويكون نصيبي من الحياة أكبر.. فلم عليّ أن أرضى بالأقلّ فقط لأنّك خانعٌ لخداع الكنيسة؟؟

أسند الأب رأسه مغطّيًا وجهه وهمس بعذاب: ما الّذي أستطيع أن أقوله لك أكثر ممّا قاله القسّ؟!

- لا تقل شيئًا.. أنا ابنك ولست عبدك؛ أنا أعيش بالطّريقة الّتي تحلو لي، وأنت بطريقتك.

زمجر الأب بحرقة: حقًّا؟ والعار واللّعنة اللّتان ستجلبهما لي ولأخيك ولعمّتك، أين نصرّفهما؟؟

أشاح جوناثا وجهه وزفر، ثمّ عاد ليقول: سأسافر وأترككم لشرفكم.

ارتعش الأب من الغضب وقال: أنا ربّيتك، وأنا رعيتك، والآن عندما نما شاربك أخيرًا، ستتركني وتذهب وكأنّك ولدتّ بهذا الطّول؟

ابتسم جوناثا بخبثٍ: أآخذ ياكوبو معي؟

صاح ياكوبو منتفضًا: لا!! لن أذهب معك لو مهما فعلت!

ضحك جوناثا بخفّةٍ ورفع طعامه قائلًا:

- انظر كيف تكسب عندما تسلك طريقي أيّها الأحمق!

وفجأةً ارتعدت المنضدة تحت قبضة أبيه الصّارمة وهو يصيح: ألا يكفيني أنت حتّى تفسد أخاك أيّها الـ***؟؟!

ساد صوت أنفاس الأب الغاضبة لدقيقة، ولكنّ جوناثا تجاهله يأكل غير مكترث. وعلى هذا المنوال مضت الأيّام والأب المبتئس يضع نصف طعامه لابنه الجاحد الّذي بالكاد يعمل، وهو يجوع ويشقى بلا طائل..

وفي النّهاية أحكم المرض قبضته على الأب وبدأ الفقر يجتاحهم أكثر يومًا بعد يوم. أمّا

جوناثا فلا يزال على أسلوبه الخبيث البطيء، وكلامه السّامّ الّذي يقتل أباه الحرف تلو الحرف دون أدنى عاطفةٍ أو رحمةٍ لأبيه.

وجاء ذلك اليوم المشؤوم الّذي جلس فيه جوناثا ليأكل فلم يجد في صحنه إلّا رغيف خبزٍ يابس وكأس ماء، فضاق صدره من الغيظ، ولكنّه تصبّر وأكله بسرعةٍ، ثمّ قال لأبيه الجالس إلى جواره:

- أهذا كلّ شيء؟ هات شرفك؛ علّني أجد فيه ما يسكت بطني!

لم يرفع الأب عينيه الشّاحبتين، ولم يجب على الكلام المستفزّ المعتاد، كان المرض والجوع قد أخمدا روحه، فبات جسدًا هزيلًا بائسًا بلا مشاعر ولا تعابير، حتّى ظهره كان منحنيًا نحو المنضدة وهو بالكاد يسند نفسه.

وأخيرًا حرّك كفّه المرتعش ضعفًا ليناول نصف رغيفه لابنه ونظرته تحكي قصصًا من الأسى، فهو يعلم أنّها ورقته الأخيرة الّتي لن تفعل سوى أنّها ستُبرّئ ذمّته من ولادة اللّصّ الّذي ينسب إليه.

صرخ ياكوبو بصوتٍ متحشرج:

- هذا يكفي يا جوناثا، ألا ترى كم أبونا مريض، اترك له قطعة الخبز!!

اختطف جوناثا الخبز ورماه بعنفٍ على صحن أبيه، ثمّ ابتسم لياكوبو بنظراتٍ غير مريحة، وتركهم يمشى نحو غرفته. أمّا الأب فقد أغمض عينيه يزفر بعذاب حين اخترق لحظتَه صوتُ ياكوبو يصيح بذعر: لاااا!!!! أبي انتبه....

ففتح الأب عينيه لآخر مرّةٍ قبل أن تتشنّج ملامحه بالكامل، ويسقط وجهه على المنضدة ويستحمّ وجهه بدمائه الّتي تسيل من رقبته، وجوناثا من فوقه يمسك السّكين مبتسمًا: عندما أقول لك أنّي جائع، فستطعمني ولو من لحمك!

ثمّ صوّب نظرته المرحة نحو ياكوبو المصعوق:

- أنا أيضًا أشفق على أبينا؛ بهذه الطّريقة ارتاح من عذاب رؤيتنا لصوصًا، وأعطانا طعامًا لعدّة أيّام.. أمستعدٌّ لرائحة اللّحم المشويّ؟

كانت الدّموع تسير أنهارًا على وجه ياكوبو، والكلمات في حلقه تكاد تخنقه، والذّعر يجعله يرتجف بلا توقّف، وحين أدرك جوناثا أنّ أخاه لا يشاركه اللّحظة، انتزع سكّينه واقترب من أخيه قابضًا ذراعه بعنفٍ ومصوّبًا سكّينه نحوه: يبدو أنّي لن أنتفع منك، ولذا...

وهنا تشكّلت الكلمات المتشنّجة في فم ياكوبو، وبالكاد قال وهو يرتجف بحدّة:

- لا!! لا!! سأفعل أيّ شيء..فقط.. لا تقتلني..

ردّ متغطرسًا وعيناه تنتشيان بالنّصر: حياتك ملكي، ولكنّي سأبيعك إيّاها مقابل أن تكون عبدي الوفيّ بقيّة عمرك.

وأطلق ضحكةً عالية، بينما بدا وجه ياكوبو في غاية القهر؛ وهو يجبر نفسه على الإذعان لهذا الوحش الّذي هو بين مخالبه، وبعدها...

- سيّدي.. ألا تسمعني؟ أنت تصرخ بشدّة.. هل يوجد ما نفعله لنخفّف عنك؟

فتح جوناثا عينيه الشّائبتين بصعوبة، ليسمع نفسه يصيح وأنفاسه متسارعة، وحين استطاع أن يتمالك أنفاسه قليلًا، أدرك أنّ هذا الّذي يكلّمه هو ذاته ذاك الطّفل ياكوبو ذي السّبع سنوات.

ومضت لحظاتٌ سار فيها شريط حياته مسرعًا من تلك اللّحظة القديمة، حين استعبد أخاه الصّغير، إلى اللّحظة الرّاهنة؛ الّتي يقف فيها أمامه رجلًا خانعًا لم يجرؤ على عصيانه في حياته، ولم يعترض على عقوباته إلّا بدموعٍ جرت على شاربيه.

ولكن الآن، يبدو أنّ الكفّة بدأت تنقلب؛ فياكوبو كان واقفًا يتفرّج بسلامٍ على جوناثا الّذي يصيح من عذابه. وبعد قليل، جاء الطّبيب ليسأله:

- أخشى أنّ الورم تفاقم، ربّما بسبب اصطدامٍ أو ضغطٍ زائد.

أجابه ياكوبو: وجدناه مستلقيًا بشكلٍ ملويٍّ على السّرير، وأظنّه نائمًا منذ ساعات.

- يبدو قد شرب كثيرًا؛ فهناك الكثير من البول المحتبس.. وأخشى أنّه لم يعد بإمكاننا فعل شيءٍ حيال هذا.

همس جوناثا يكبت صرخته وعيناه تستجديان:

- ألا يمكنك فعل شيءٍ أبدًا؟ يستحيل أن أعيش ساعةً أخرى مع هذا الضّغط المريع.. أحس سكاكينًا تمزّق اعصابي..

زفر الطّبيب وقال بصراحة: ليس لديّ إلّا حلّ سمعت به ولكنّه غالبًا يفشل.. أن أجري لك عملية قسطرة؛ تنقلك من ألم الاحتباس إلى ألم آخر، ومن ثمّ.. تنتظر النّهاية.

أطلق جوناثا صيحةً بينما علّق ياكوبو:

- أو بإمكانك أن تنهي حياتك منذ الآن؛ ما دام الفارق ساعات.

صاح جوناثا: لا!! لا أريد أن أموت..

ردّ ياكوبو بهدوء: ولكنّك ستموت ستموت، ولن يزيدك انتظار الموت إلّا عذابًا.

سالت دموع جوناثا وهو يلتفت إلى الطّبيب:

- اعمل لي هذه العمليّة.. هناك شيءٌ مهمٌّ يجب أن أعيش ولو يومًا لأفعله.

- إنّي أحذّرك، سيكون ألم القسطرة المعدنيّة صاعقًا وفظيعًا.

أجاب متجرّعًا القهر الّذي طالما جرّعه للآخرين: ليكن.

ومع كون جوناثا في ذلك اليوم مَلكًا على رجاله، خزائنه مليئةٌ بالذّهب، وموائده زاخرةٌ بالطّعام، وعبيده بالعشرات، إلّا أنّه كان أفظع يومٍ في حياته على الإطلاق، الصّراخ الّذي صرخه كاد يجلب له السّكتة، ونار الألم كانت تحرقه بلا شفقةٍ ولا رحمة..

لقد عرف هو ورجاله يومها أنّ التّبوّل المحتقر هو نعمةٌ لا تقدّر بالذّهب.

حين حلّ اللّيل كان جوناثا قد فقد وعيه من فرط الألم، إلّا أنّه قد تخلّص من البول أخيرًا. وتناوبت جوليا وأمّها يحاولان أن يتداركا الأمر قبل أن تشتدّ به الحمّى، ومرّت أيّامٌ صعبةٌ قضاها جوناثا في الفراش يهذي بين ألمه ومنصبه الّذي يخشى أن يختطف منه، وحينما يصحو ينضمّ إلى قطار همّه خوف الموت أيضًا فيتلظّى بفكرة خسرانه المطلق

من جميع الجهات.

كانت تلك ليلة احتفال، حين جلس جوناثا على كرسيّه وقد بدا وجهه المصفرّ نحيلًا وعيناه مرهقتان، ومع ذلك كان لا يزال يحاول أن يبدو قويًّا، ولكن أيّة قوّة وقد صار لا يجرؤ على الشّرب أو الأكل؟! لم يعد يستطيع إلّا أن يسدّ رمقه بلقيماتٍ جافّةٍ وشربة ماءٍ خفيفة على فتراتٍ متباعدة؛ خوفًا من أن يجتمع البول ويذيقه الويلات.

جلس بنظراتٍ واجمةٍ يشاهد من حوله يشربون ويضحكون ويرقصون، وهو سيّدهم ومحرومٌ من كلّ متعةٍ على الإطلاق بسبب.. البول!

حوّل نظره الحزين نحو كرسيّ جيوڤاني الفارغ، وأخذ يحدّق به طويلًا وهو يتذكّر كلماته: "ألا يبدو أنّ هناك من حكم عليك من الأعلى معاكسًا لإرادتك؟"

همس في نفسه وزفر:

- لقد ثرثر وتجاوز حدوده، وأنا أطلقته انتقامًا من احتجاز أبي لي.. ولكن..

آهٍ لو كان أهلًا ليخلفني في مرضي الآن.

واستطرد بملامح مستغربة: يبكي كالأطفال، لكن مهتمٌّ بمصيري بشكلٍ غريب.. تراه هل فعلًا يحبّني رغم أنّي كنت دائمًا أتقصّد أن أؤذيه كي لا يرمي بعاطفته الحمقاء عليّ؟!

وحانت منه نظرةٌ إلى أتباعه المحتفلين، كان هذه المرّة يراهم بشكلٍ مختلفٍ

بعيني عقله دون حجاب الخمر الّتي طلّقها مجبرًا منذ أيّام، بدوا له يتصرّفون كالحيوانات

باسم السّعادة، وتسلّل إليه خزي كونه مثلهم في العادة، وهمس متأمّلًا:

- يعيشون في وهم أنّهم سعداء، بينما هم في حالةٍ من الحضيض..

أهذه هي السّعادة الّتي بعت كلّ شيءٍ لأجلها؟!

وزفر مسندًا رأسه على كفّه واستطرد:

- إذا كانت حتّى هذه السّعادة وهمًا، فأين الحقيقة؟؟

خسرت كلّ السّعادة، بخسراني الخمر.

رمى نظره نحو سماء اللّيل الّتي بدت من النّافذة البعيدة، وهمس: لا يزال وهمك أرقى من هذا الوهم البهيميّ الّذي أمامي..

سأقول الشّيء الّذي كنت قد جزمت أنّي لن أقوله أبدًا:

لقد قررت أن أعود إليك.. وبكلّ قوّتي!

تحرّكت هواجس مختلطةٌ في صدره وهو يقول تلك الكلمات، فشدّ قبضتيه وكأنّه يشدّ لجام ثورٍ هائج، وهمس بشفتيه وفكّه يرجف: نعم، سأفعل.. أنا قويّ.. أنا أستطيع!

الحبّ المطلق.. لم أدر أبدًا ما هو.. لكنّي سأحاول أن أكتشفه.

ابتسم جوناثا وقد بدأ وجهه يتقبّل قراره الجديد بسرعته الغريبة في التّقلّب، وعلّق في نفسه متنهّدًا: لقد كان ذاك الصّبيّ محقًّا؛في الخروج من حالة الكذب نسيم راحة..!

تحامل جوناثا على نفسه ينهض ببطء، وحين استعدّ حراسه أومأ لهم أن يتركوه، ومضى يشدّ خطاه خارجًا من المكان حتّى دخل غرفة نومه الدّاخليّة، وفتح النّافذة يحدّق في

السّماء المرصّعة بالنّجوم ويتذكّر لحظات شغفه القديم الضّائع..

ابتسم وقد لفحته رائحة الأيّام الخوالي وخضعت ملامحه بشكلٍ لا يتناسب مع وجهه الّذي سوّدته أيّامه، واندفعت كلماتٌ لم يكن ليتخيّل أنّه سيقولها: أعلم أنّك فوق كل شيء.. لستَ حبيساً في سماء، ولا يسكنك ضعف البشر.

أعلم أنّ المسيح ليس ابنك، وأعلم أنك الغنيّ الذي لن يحتاج لصلواتي القذرة.

ترك قدميه تنزلان، ليجثو على ركبتيه معانقًا عتبة النّافذة: نعم، أعلم أنّك لن تخسر شيئاً إن تركتني للجحيم، ولن تزداد ملكاً إن أصبحتُ قدّيساً..

لكنّني الآن -وللمرّة الأولى- أعلم أنّك أرحم من أن تتركني أحرق نفسي بغبائي، دون أن ترسل لي -ذلك المغفّل- جيوڤاني ليكون مرآتي الّتي كرهتها.

وأحنى رأسه بملامح معجبة: سيّدي القويّ، أراك لقّنتني الدّرس الّذي عجز أبي عن تلقيني إيّاه، أعترف الآن؛ هذا العالم تخلو حتّى قمّته من السّعادة المطلقة.

وارتسمت على ثغره ضحكته السّاخرة: بمجرّد كرة لحمٍ حقيرةٍ منتفخة حطّمتَ كلّما أفنيتُ عمري لأجله..

فضلًا عن أنّ كلّ ما أنا فيه بسبب كرتي الماء اللّتين في وجهي؛ لو أسلتهما فقط لكنت الآن في الحضيض.

وتحرّك جوناثا إلى وضع الخضوع: سيّدي وربّي.. لو تعيدني الآن إلى لحظة أبي، فأقسم لك أنّي لن أسلك هذا الطّريق ثانيةً، لقد كنت جاهلًا بقوّتك وأغبى من أدرك حكمتك..

وانكمشت ملامحه في اعترافٍ مخزي: صدقتَ، القوّة تطغيني، كان من الأفضل لي أن

أبقى فلّاحًا حتّى لا أجني على نفسي ألف سنةٍ من العذاب..

وغصّ صوته: أربعين متعة مقابل ألف عذاب.. وربّما أكثر..

وارتفع احتجاجه: لم أحتمل أشهرًا من المرض، حتّى أحتمل كلّ هذه الدّينونة الرّهيبة! أيّها الرّبّ، أنت من تمنعني بكلمتك من العودة وإصلاح غبائي!

وهدأت نبرته: وبما أنّني جرّبت بعض القوّة والملك، فأنا أعلم أنّك تستطيع إن أردتّ أن تخرجني من كلّ هذا.. تستطيع بخزائنك العظيمة أن تعطيني لأدفع ثمن ظلمي كلّه بغير أعصابي..

وخنعت ملامحه: يا خالقي، أنت الوحيد الّذي يعلم عجزي في أمر الحبّ؛ فحاسبني بما في يدي.. خذ مالي وسلطتي، وهاك كبريائي قرباناً.. فقط أخرِج التّعذيب من معادلة الحساب.

دفع نفسه عن النّافذة ناهضًا، وتراجع خطواتٍ وعينيه لا تزالان نحو السّماء، وانتشر في الغرفة طنين أساور الذّهب والخواتم الّتي رماها من يديه، ثمّ أخرج سكّينه وكسر كلّ أظافره الحادّة، ورمى ثوبه الحريريّ ليقف عاري الصّدر موجّهه نحو النّافذة.

همس لنفسه: ولأتذكّر الآن ما عمله جيوڤاني..

وتلا أحد المزامير الّتي تمجّد الرّبّ، ثمّ حاول أن يركع كما أراه جيوڤاني. ولكن لم يكن أيّة ركوع؛ فالألم اشتدّ به إلى حدٍّ بعيد، ومع ذلك لم يكترث به وصار يضغط جسمه بلا رحمة، واستطاع أخيرًا أن يركع بعد أن صارت أعصابه ترجف من الألم، وبذل جهدًا

ليستطيع التّركيز على أنّه يوجّه ذلك لربّه.

لم يحتمل لفترةٍ طويلة، ونهض وهو يلهث، ويستعدّ للأصعب؛ السّجود، سيتسبّب بضغطٍ كاملٍ على بطنه، ومع ذلك حتّى الوجع الشّديد لا يستطيع أن يلجم جوناثا عندما يضع في رأسه شيئًا. وبالفعل نزل على ركبتيه وبدأ يحاول أن يوصل أنفه إلى الأرض، هامساً من بين أسنانٍ مطبقة: ستسجد أيّها الخنزير! ستسجد وليس لمرّة واحدة..

وثار الوجع ضاربًا أعصابه حتّى الرّأس، لكنّه استمرّ يناضل ضدّ ذلك الورم الحديديّ، إلّا أنّه في النّهاية أطلق صرخة هزيمة، ورفع ظهره رغمًا عنه، وأخذ يلهث يرمق الأرض بعينين لامعتين.. وما إن التقط أنفاسه، حتّى عاد يجبر جسده المضنى على الانحناء، وما هي إلّا ثوانٍ حتّى تسلّلت الدّموع من عينيه من حدّة الألم، واضطرّ للعودة دون أن يحقّق ما يريد.

وما هي إلّا ثوانٍ حتّى علا صوته: لا!! سأفعلها.. لا شيء سيوقفني!

وعاد يقهر جسده بلا رحمة، المرّة تلو الأخرى، وحتّى لو استراح قليلًا كان قراره الحاسم يشعله ثانية.. ربّما كانت تلك المرّة الثّالثة والعشرين حين مرّغ أنفه في الأرض أخيرًا، وشعر بغثيان الورم يطبق على أنفاسه، لكنّه استمر ضاغطاً وجهه نحو الأرض كمن يثبّت توقيعاً أخيراً على عقدٍ لا رجعة فيه.. وكلّما كان يفكّر به هو أن يكسر تشنّج الوجع ليقول: أنت القويّ.. أنت سيّدي..

نهض بعينين محمرّتين يشهق من الوجع ويغبّ أصداءه الصّاعقة حتّى صدرت همسته: اللّعنة على الشّيطان!!

ثمّ تذكّر كلماته القديمة لمعلّمه: "ولم يجبرني أيّ شيطانٍ على ذلك.. بل أنا جوناثا ويليامون؛ الشّيطان الجديد!" فانتفض بشدّةٍ يشتم نفسه، ثمّ مسح وجهه وأغمض عينيه يستمع لصوت عقله الّذي بدا يحاول السّير بمقلوبه.

جلس مستندًا على الجدار، ونزلت قبضته ببطءٍ لتكشف عن عينين متوسّعتين في وجل، كان يبتلع خشيته تارّةً ويعيد حساباته أخرى، ومئات الوجوه المسحوقة تتراءى له، وآلاف المواقف الّتي استمتع بها صارت سهام جحيمٍ تنذره بالخطر..

أن يؤمن؛ يعني أن يقرّ أنّ لكلّ أولئك المستضعفين ربٌّ سينتقم لهم.. أن يستعدّ لتعود إليه كلّ شتيمةٍ وكلّ سخريّة.. أن يتهيّأ ليكيلوا له الصّاع صاعين، ويذيقوه ما جرّعهم من بؤسٍ وعذاب.

مرّ وقتٌ طويلٌ أمضاه يتلمّس واقعه الجديد، قبل أن ينهض ويمسح وجهه متمتمًا بحزم: الأمر هكذا إن فكّرت به أم لا.. سأنشغل الآن باللّحظة، وبعدها أستسلم لحكم الرّبّ عليّ.. وأيًّا كان.. فأنا أستحقّه.

وقعد على الكرسيّ قبال النّافذة، يتذكّر المزامير الواحد تلو الآخر، ويعيد ترتيبها في قلبه، يستحضر بتمجيد الرّبّ السّبب المنطقيّ أمام 'أنا'ـه، لترضى بالتّنازل السّريع لصالح خطّته الطّارئة، ويكسب رهان الحياة قبل فوات الأوان.

وحين أشرقت الشّمس راقبها بباصرتين عازمتين، ثمّ نهض فغسل وجهه، وارتدى ثوبه وأساوره ثانيةً، وهو يقدح المرآة بعينيه الغائرتين محملقًا في وجهٍ بات نحيلًا وجافًّا. عدّل ياقته بيدٍ غاضبة، وأطبق قبضته حتى ابيضّت مفاصله، موبّخًا صورته: جوناثا ويليا موني!! إن فشلت صفقتي بسببك؛ فلن أغفر لك!!

خرج من الغرفة كعادته، ونهض حرسه احترامًا له، معلّقًا كبيرهم: يسرّنا رؤيتك بخيرٍ يا سيّدي.. قلقنا عليك البارحة.

أومأ جوناثا على عادته ومضى نحو الغرفة الرّئيسيّة حيث يحكم مملكته الجبليّة، وجلس على كرسيّه المتصدّر، وأمر بحضور أحد رجاله لوحده، وحين مثل بين يديه، قال له بنظراتٍ ماكرة: أهلًا بريكاردو! إذًا، أين وصلت بخطّة الخيانة؟

صدم الرّجل وانبرى مدافعًا عن نفسه وهو يذكر كلّ موقفٍ عظيمٍ وولاءٍ للعصابة، ولكنّ جوناثا قاطعه قائلًا بحزم: احتفظ بهذا كلّه فهو لا يعنيني،

سأكلّفك بمهمّة؛ إن أعجبني أداؤك صدّقتك وكذّبت الواشي، وإلّا..

أخذ ريكاردو نفسًا، ومسح عرقه مقطّبًا: لا بأس بهذا.

ولكن حين سمع الحرس المهمّة، التفتوا يحدّقون بأعين بعضهم مستهجنين؛ لم يدركوا ما الهدف من أن يخرج ريكاردو ناشرًا كيسًا من الذّهب في أحد القرى، ولكنّ سيّدهم كان يتكلّم بثقته وسخريته المعتادة، فابتلعوها خوف أن يقعوا هم في الفخّ، ويتّهم أحدهم بالخيانة!

خرج ريكاردو وهو يعوّل غرابة المهمّة على أنّها اختبار ولاءٍ قُصد به أن يكون منافيًا

للمنطق، وبعد قليلٍ دخل ياكوبو محيّيًا وقعد، وجاء الرّجل التّالي حسب أوامر جوناثا، وبطريقةٍ مشابهة كلّفه أن يسوق اثنين من العبيد حتّى القرية ويتركهم، ويا ويله لو علم أحدهم بالأمر.

وهكذا توالت المهمّات العجيبة على مسامع الحرس المشدوهين، الّذين باتوا يضربون أخماسًا في أسداس حيرانين، أمّا ياكوبو فقد انقلب وجهه وهو يحدّق بوجه أخيه الكبير ذي الهالات السّوداء، بدا يتصرّف بحالته الطّبيعيّة تمامًا؛ يضحك ويهزأ وكأنّه قد وضع عصابته بالكامل مادّةً لسخريته اليوم!

لكن، بعد تأمّلٍ طويل، لاحظ ياكوبو فارقًا واحدًا في أخيه؛ لقد كانت أظافره كلّها قصيرةً بشكلٍ غير مرتّب، وهنا استند شاردًا يرمق أخاه بين الحين والآخر، ثمّ أسند رأسه يقرأ بنظره كلّ إشارة، وهو ينتظر انتهاء توزيع المهمّات الفرديّة السّرّيّة بفارغ الصّبر ليتأكّد من فرضيّته.

وبعد نهارٍ طويلٍ من الأوامر الغريبة، نهض جوناثا ليتناول لقيمات العشاء بعد أن عصرته معدته، وما إن جلس ليأكل حتّى استأذن ياكوبو ودخل ليقف بجواره: أشمّ رائحة القطّ!

رمقه جوناثا بطرف عينيه، وأعاد وهو يضع لقمةً في فمه: القطّ؟!

فسكت ياكوبو بينما أومأ جوناثا إلى حرسه ليتركوهما، وحين خرجوا نظر مستفهمًا نحو ياكوبو الّذي أجاب: قصدتّ اللّحظة الّتي انقلبتَ فيها إلى ضدّك.

أشاح جوناثا بوجهه خجَلًا، وهمس: اكتفِ بالمشاهدة.

استبشر ياكوبو وهو يأخذ مقعدًا: ترى لو عرف أبونا أنّ الشّرّ الّذي في قلبك كان يحتاج إلى أكثر من أربعين سنةً ليتفرّغ، ماذا كان سيفعل إذًا؟!

مسح جوناثا صحنه على غير عادته، وهو يشتهي لو يقدر أن يسكت جوعه بأكوام الطّعام الّتي لديه، ولكنّ وجع العمليّة المريع جديرٌ بأن يدفعه أقصى فترةٍ ممكنة. متجاهلًا كلّ ذلك أردف ياكوبو:

- أريد أن ألفت نظرك إلى أنّ أبانا قد انتقم منك شرّ انتقام!

صوّب جوناثا نظرةً حادّةً إلى ياكوبو الّذي شرع بالتّوضيح:

- أجل، بسبب أنّك قتلته؛ فقدتّ ثقتك بالعلاقات العائليّة، وعشت وحيدًا طيلة حياتك..

اتّخذت أخاك عبدًا خادمًا، وابنتك جاريةً رخيصة، وابنك أسيرًا ضعيفًا، ولم تتزوّج.. لقد حرمت نفسك من كلّ حبٍّ ودفء.

أخذ جوناثا نفسًا عميقًا، فيما علق لعاب ياكوبو في حلقه وهو يدرك أنّه غامر في سبيل التّعبير عن خاطره، وأخيرًا أجاب جوناثا بهدوء: سؤالي الأزليّ قبل أن يموت أبونا أساسًا؛ ما هو الحبّ في أصله يا ياكوبو؟

استغرب سؤاله فارتبك حتّى تأتأ: أن تتعلّق بشيءٍ كثيرًا..

- أجل، مع السّعي في مصالح المحبوب.

اطمأنّ ياكوبو بعد أن أدرك من نبرته أنّه لا يتهكّم: نعم، هذا هو.

- هل تعتقد حسب ذلك أنّي أحبّ شيئًا إذًا؟

حكّ أنفه متردّدًا: تحبّ التّخطيط والذّهب والسّطوة والشّرب و...

- هؤلاء مصالحي بذاتها أيّها الأحمق! قصدتّ شيئًا منفصلًا عنّي.

فكّر ياكوبو وفكّر فقاطعه جوناثا ساخرًا: أحسنت؛ أنا لا أحبّ شيئًا، ولا أعرف أساسًا ما هو الحبّ الّذي تقدّسونه وترزخون تحت سطوته! لا أظنّه فكرة.

أنا كلّ ما حولي يسير خلف أفكاري، فإذا انقلبت أفكاري انقلبتُ على كلّ شيءٍ دون تلك الحماقة الّتي تسمّونها عاطفة!

لم يستوعب ياكوبو الفكرة: يعني كيف؟! أيعقل أنّك لا تحبّ أحدًا مطلقًا؟! كنت أراك تحبّ جيوڤاني!

- جيوڤاني.. اعتبرته 'أنا' مضافًا إليّ العاطفة.. اكترثت لشبهه بي.. كانت تربيته هي وسيلتي لأعرف كيف كنت لأكون لو كنت عاطفيًّا أو ولدتّ لأبٍ ثريّ.

ومسح جوناثا شعره: والأدهى أنّه اتّجه دينيًّا مثل أبيه رغم تعاكس البيئة.

اهتزّ ياكوبو: أنت قلتها؛ ألا تحبّ الرّبّ؟ على الأقلّ حين أردتّ أن تكون قدّيسًا؟

نظر جوناثا جانبًا: لا أستطيع القول أنّي أحبّه؛ ما دام موجودًا فيجب أن أتقرّب إليه لأجل مصلحتي.

أجاب بصرامةٍ وتململ: مصلحتك.. مصلحتك.. أنت تختزل كلّ حبّ العالم إلى حبّ نفسك!!

صمت جوناثا وعيناه تفكّران، ثمّ قال: كأنّك محقّ.. أنا بالفعل 'أحبّ' نفسي، متعلّقٌ بها وأقدّمها على كلّ شيءٍ!

توسّعت عينا ياكوبو دهشةً واستهجانًا: كأنّني محق؟!! لا يوجد أدنى شكٍّ أنّك تعشق نفسك، وتعبدها، بل وتريدنا أن نعبدها معك!

اتّكأ جوناثا مائلًا برأسه إليه: أنت جادّ؟ أحقًّا أنت تعتقد أنّني 'أنا' أحبّ؟؟

- بلا أيّ شك.. اسأل من تريد، الجميع يعتقد ذلك.

ظهر الذّهول على وجه جوناثا وقال بانفعالٍ غير مسبوق: 'أنا' أحبّ!!

وأخيرًا عرفت ما هو الحبّ!! وهو بالفعل يسيطر عليّ مثلما يحدث معكم تمامًا!

وأخذ يفرك ذقنه يفكّر بصوتٍ عالٍ: إذا كنت أفدي ذاتي بجسدي، فـ 'ذاتي' هي ما أحبّ؛ شيءٌ أشعر به ولا أراه.

ونهض يدور في الغرفة متحمّسًا وسط نظرات ياكوبو المشدوهة، وبعد دقيقةٍ صاح: فهمتها.. فهمتها!!

وضرب قبضته على كفّه المبسوط يقرّ خطّته: هذا ما يجب أن أفعله: أن أحبّ الرّبّ؛ أن أتعلّق به وأقدّمه على كلّ شيء، هذا ما أفعله!

انفجر جوناثا مقهقهًا من شدّة الفرح، وهو يردّد : أحبّ، 'أنا' أحبّ!

لكنّه أحسّ بغرابة نظرات ياكوبو الشّائكة، فسكت يحاول أن يستعيد اتّزانه، ثمّ انطلق نحو غرفته وخطواته لا تشبه خطواته.

أمّا ياكوبو فتمتم: مجنونٌ وغير مجنون.. لا أفهم كيف!

ثمّ نظر نحو الأعلى شاردًا وهمس:

- على أيٍّ، أيّها الرّبّ، أين عدلك المزعوم إن كان 'جوناثا الشّيطان' سيدخل الفردوس؟!

وبحلول المساء دخل ياكوبو على أخيه، وتوجّس حين وجد جوناثا يلعب بأصابعه موجّهًا إليه نظرةً ساخرة: ما رأيك أن أختبر ولاءك أنت الآخر؟

حبس أنفاسه وانتفض قائلًا: مرني!

ابتسم بمكرٍ محدّقًا بأظافره المكسورة: خذ ذهبًا واشترِ أرضًا، واعتزل الجريمة.

ارتدّ ياكوبو مصدومًا بينما عقّب جوناثا بتهكّم: ألست تحبّ والدك؟ وكنت مصرًّا على البقاء معه؟

ويوم الأحد؛ الّذي لولا الجمر، الّذي أقعدتّك عليه، لما تركته أبدًا؟؟

أشاح ياكوبو بوجهه: وقد احترقت واحترق يوم الأحد معي..

ألآن ستجبرني على الإيمان يا جوناثا؟!!

أصدر بشفتيه صوت النّفي المتكرّر: لا تسئ فهمي.. أنا فقط أقوم بصفقةٍ رابحة، ولذا أنا أخلي مسؤوليّتي كشيطانٍ سابق.

- حسنًا أيّها الشّيطان؛ حين تطلّ من نافذة فردوسك 'العالي'، لا تهزأ من هذا الّذي أغويته.

هزّ كتفيه مبتسمًا: لا أحد يهزأ في الفردوس يا ياكوبو.

ضحك ياكوبو بخفّة: تأكّدنا أنّك لست من أهلها.

وتلكّأ وهلةً قبل أن يهمس مستنكرًا: لم أتوقّع أن يكون هذا شكلُ خرفك على أيّة حال.

تحوّلت ملامح جوناثا إلى الخبث: الخرف أنساني؛ ما كانت آخر تسعيرةٍ للشّتيمة؟

تجلّد ياكوبو ودفع بلسانه: التّسعيرة الّتي تثبت لرّبّك أنّك تغدر به.

تكشّفت الضّحكة السّاخرة عن ثغر جوناثا: التّسعيرة الجديدة أن تخضع لدرسٍ وعظ.. منّي 'أنا'!!

تنهّد ياكوبو بصوتٍ جافّ: عدلك مثل عدل ربّك.. ستجدان شيئًا تتكلّمان به.

حذفه جوناثا بنظرةٍ معلّقًا: 'أنا' عادل، أيّها الخرف؟!

هرب بعينيه: ولماذا شبّهتك بربّك إن كنت عادلًا؟!

وجم جوناثا: ومتى ظلمك الرّبّ أيّها المغفّل؟

سكت ياكوبو بينما كرّر جوناثا سؤاله وقد احتدّت ملامحه، وحين لم يجد جوابًا، تشيطنت عيناه وهو يقول: أنت شتمت ربّي، ولذا ستدفع الثّمن.

سرت القشعريرة في جسد ياكوبو الّذي أوقع نفسه، فيما أردف أخوه: بعد أن تدفع، 'سأرسلك' إليه لتختبر عدله بنفسك.

جثا ياكوبو وتأتأ: ما دام عادلًا؛ فكن مثله؛ لم يسبق لك أن قلت أنّ هذا يغضبك!

حدّق جوناثا بظفره المكسور: أنت سكتَّ وفوّتَ فرصتك.

ردّ بصوتٍ متخافت: خفت أن أقول لك أنّي لا أجده عادلًا في منحك فرصةً للفردوس.

لعب جوناثا بأصابعه وتملّى برعشة ياكوبو طويلًا قبل أن يقول: آها، إذًا أنت ترجو ألّا أكون بخير.. سجد ياكوبو في محاولةٍ يائسةٍ لإنقاذ نفسه، فيما أردف جوناثا: لن تفلت، لقد نهبت وقتلت الكثيرين، وستتعذّب لأجلهم جميعًا ليقوم العدل.

نهض ياكوبو يقدح أخاه؛ يستنكر أن يعاقبه على ما أجبره عليه بدايةً، فيما مال إليه جوناثا بوجهٍ مكّار متمثّلًا كلام الرّبّ: "لكن إن أرضيتني، فسأعادل ظلمك للنّاس من خزائن ملكي الّتي لا تنتهي؛ حتّى يصفحوا عنك جميعًا وأدخلك الفردوس!"

أدرك ياكوبو الحيلة فذبلت عيناه في تهكّم: هل أنت ألطف واعظٍ في العالم؟!

لمعت أسنانه مفتخرًا: تلك الكلمات لا تناسب إلّا القويّ المقتدر الّذي بعت نفسي له. ثمّ استند: ها قد مثّلت لك يوم الدّينونة.. هل وجدتّ العدل؟ أم تريد لكلينا أن نكابد الجحيم لتعدّه عدلًا؟!

نهض ياكوبو وازورّ عن جوناثا ليخرج، أغمض جوناثا عينيه متنهّدًا حين سمع صوت خطواتٍ باغتته بنصلٍ باردٍ على رقبته، وكفٍّ ساخنةٍ توصد فمه، وتردّد صوت ياكوبو في أذنه بحقد: لا يهمّني عدل ربّك.. أنا سآخذ حقّي وحقّ أبي بنفسي.

لم يرتعش جوناثا أو يحاول المقاومة، إنّما شبك يديه على بطنه ومدّ رجليه كالمستعدّ للتّابوت.. توجّس ياكوبو ومدّ رأسه ليطالع عينيه؛ فوجدهما ينظران إليه بهدوءٍ ساخر، دهش ياكوبو وارتبك يعيد حساباته قبل أن يرجف صوته: لم لست خائفًا؟!

ضحكت عينا جوناثا أكثر، ثمّ أغمضهما منتظرًا. قبض ياكوبو على سكّينه مقطّبًا ورفعها ليوجّه ضربةً محمّلةً بأثقال حقده، فانغرز رأسها مزلزلًا خشب الكرسيّ قبل أن يرفع يده: معك حقّ، ما هذا الانتقام التّافه الّذي يساعدك على تخطّي عذابك حين بدأ أخيرًا؟!

اهتزّ جوناثا ضاحكًا وهو ينتزع السّكّين من جوار رقبته: سأموت موتةً بشعةً فاحرص أن تحضرها!

دار ياكوبو إلى أمامه متهكّمًا: يحسبك المرأ تتكلّم عن حفلةٍ ممتعة.

هزّ جوناثا كتفيه: هذا لأنّ 'جوناثا' لم يعد محور الكون، فبدأت أتلذّذ برؤيته يتحطّم كالآخرين!

حاول جوناثا أن يستر ضحكته بجانب أصابعه: هيّا لقد أمرتك بما سمعت. وأشار بسبّابته آمرًا: ستمتثل، وستأخذ معك جوليا. ابتسم ياكوبو بتعابير تحكي العذاب: ما أطيب شعور أن آمن شرّك! ليت القسّ ربطك حينها بالسّلاسل.

حرّك جوناثا يديه كالمقيّد: إنّ 'سلاسل الرّبّ' هي ما تبغي!

وبمرور ساعةٍ، كانت جوليا عند والدها تتوسّل والقلق يلفّ عينيها: أرجوك أعد التّفكير في قرار نفينا يا أبي!

لم ينظر إليها: أنا لم أنفكما؛ إنّما مضطرٌّ أن أصير جيّدًا مع أقاربي.

صمتت جوليا تنظر بعينين مصدومتين ثمّ قالت بصوتٍ خفيض: هل عندك خبرٌ أنّ الجنود سيفعلون شيئًا؟ نظر إليه بمكر: نعم.. قريبًا.

- لكنّي لا أرى أيّ علامةٍ على ذلك!

قصمها بنظرته فعقّبت مرتبكة: حسنًا، أنت بالتّأكيد أعلم.. ولكن لا يمكنك أن تخبرني أنّ حياتي قد تحطّمت هكذا فجأة!

أجاب متهكّمًا:حقًّا يا صغيرتي؟! حسنًا خذي أمّك معك؛ حتّى تجدي حضنًا تأوين إليه!

نظرت إليه محاولةً أن تقول شيئًا لكنّه سبقها:

- قولي لي أيّهما أفضل: الحيوان أم الإنسان؟

تردّدت جوليا تحاول أن تفهم معنى السّؤال: الإنسان..؟

صفّق جوناثا بخفّةٍ متهكّمًا: آها، أحسنت، الإنسان!

فإذا كانت الحيوانات تأكل وتتزاوج حسب قدراتها، هل يفترض بالإنسان أن يكون مثلها فقط؟ أم أفضل؟

قطّبت جوليا حاجبيها وأحنت رأسها يسارًا تهمس بضيق: أنا هكذا تعجبني حياتي ولا أريد أن أغيّر.

أجابها برحابة صدر: أنت حيوانة؛ أقصد حرّة.. ولكن ليكن في علمك أنّ حياتك هذه وراءها جحيم الرّبّ.

ردّت مكشّرةً بصوتٍ حادّ: أنت تقول هذا يا أبي؟!

فأجابها بصرامةٍ رافعًا أنفه؛ يتقصّد طعنها: كنت أفضّل أن أتركك لحياة البهائم بصراحة.

هزّت تلك اللّهجة ثقة جوليا، الّتي انسحبت من الحديث قائلةً: حسنًا.. ما دام لا بدّ من الفراق.. فدعنا نتوادع الآن بدلًا من هذا!

أرخى ملامحه: أقبل وداعك ولكن من بعيد.. فأنا أبوك كما تعلمين.

تجمّدت جوليا من وقع الصّدمات، ولم تعد تعرف ماذا طرأ لأبيها وأي خَرَفٍ سيطر عليه في آخر حياته، ولكنّه أجابها بوجهٍ قويّ: أجل، لقد جعلني الموت أعيد حساباتي، فآمنت بالرّبّ، وندمت على ضياع شبابي.

وأضاف مراقبًا تعابيرها الجامدة: اتّعظي من رؤية الّذي عوّدك التّمرّد أمامك؛ أعجز من أن يتبوّل.

تنهّدت ممسكةً ياقتها وقالت بصوتٍ مختنق: "وداعًا يا أبي" وخرجت من الغرفة تجرّ أذيال صدمةٍ شديدة. أمّا جوناثا فقد تبعها ببصره حتّى غابت وهو يبتسم بفرح: سعيدٌ أنّك لست أذكى من أبيك!

وبعدها جاءت جسيكا أيضًا لتسمع نفس الكلام وتدهش بنفس الطّريقة.

وفي النّهاية لم يجد الثّلاثة بدًّا من المغادرة تلك اللّيلة حسب خطّة جوناثا الّتي رسمها لهم، ولكنّهم بطبيعة الحال اصطحبوا معهم أكثر ما استطاعوا حمله من الذّهب والأشياء الثّمينة!

أمّا جوناثا فقد دخل غرفته للمرّة الأخيرة في حياته، ووقف ليكرّر الصّلاة الّتي أشعلت جسده ألمًا البارحة، لكنّ المفارقة أنّه هذه المرّة لم يتعذّب كثيرًا وهو ينحني، فسجد طويلًا وقد أحسّ أخيرًا أنّه وجد نفسه!

لكنّ المفاجأة كانت في الصّباح، حين اكتشف أنّ سرّ تنازل الوجع عنه حين الانحناء، كان ببساطةٍ أنّ الورم وبشكلٍ مفاجئ كان يتعافى، حتّى الطّبيب بدت الدّهشة عليه: أنت محظوظٌ بلا شكّ.. هذه أوّل مرّةٍ أقوم بهذه العمليّة، ولم أتوقّع أن أحقّق هذه النّتيجة النّادرة!!

نظر جوناثا إليه بعينين متّوسّعتين وصدرت كلماته مذهولة: يعني لن أموت؟!

هزّ الطّبيب كتفيه: إن استطعت الأكل والشّرب، فلماذا تموت؟!

وخرج الطّبيب تاركًا جوناثا في حالٍ من الذّهول بعد أشهرٍ من غرقه في قضيّة الموت، تملّكه ذعرٌ غريب، ليس خوفاً من الحياة، بل خوفاً من فساد الصّفقة!

لقد بدأ يدفع ثمن الفردوس غالياً بتلك الطّلبات الغريبة البارحة وإبعاد عائلته، والآن، هل يعيد الرّبّ إليه حياته، وكأنّه يقول له لا أريدك؟!

سارع حرسه ليهنّؤوه على الشّفاء بينما هو في مكانٍ آخر:

بنيت خطّتي على حساب أنّي ميّتٌ أساسًا! والآن..

هل أفرّط بحياتي بهذه البساطة وقد يكون مقصود الرّبّ من هذا هو طردي؟

أستطيع الآن أن أشرب و..

وتناهى صوتٌ إلى قلبه: بالطّبع لن تفرّط بها، لا أحد يفرّط بحياة الملوك، والطّعام والفتيات والخمر!

وانظر، كلّ هؤلاء ينظرون إليك بعين التّعظيم، ويتبعون أوامرك بحذافيرها، من غير المنطق أن تضيّع نواصيهم الّتي في يدك...

ولكن فجأةً ضرب جوناثا وجهه بكلتا يديه بشدّةٍ وهو يصيح: لا!!!!!

فوجئ حرسه بهذا، وصدموا بأنفاسه المتسارعة الغاضبة على عكس ما توقّعوه بعد سماع خبرٍ سعيدٍ كهذا، هذا وهم لم يسمعوا صوته في الدّاخل مزمجرًا:

- كيف تجرؤ؟! كيف تجرؤ يا جوناثا أن تعيد التّفكير في الأمر؟ وماذا كنت تفعل طيلة اللّيلتين الماضيتين؟

هل صرت من الأغبياء الّذين تتلاعب بهم العواطف؟؟!

ليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، المهمّ أن تكون أنت بخير!!

وعلى إثر قراره، انتفض ناهضًا مخترقًا نظرات حرسه المستهجنة، ثمّ انطلق بلا توقّفٍ إلى الغرفة الرّئيسيّة، وجمع الجميع يحثّهم وقد استلّ سيفه:

- وصلني الخبر أنّ جنود الملك يريدون محونا "في طريقهم" وهم عائدون من معارك الجنوب، هيّا لنريهم من سيواجهون يا رجال!!

فثار الرّجال مستلّين سيوفهم منادين بالنّصر، وأنصتوا إلى خطّة قائدهم المحنّك بكلّ أذنٍ صاغيةٍ، وهم واثقون من مئات التّجارب السّابقة أنّه سيقودهم إلى المزيد من

الغنائم، وأنّهم سيلقّنون الأعداء أسوَد دروس حياتهم.

وحسب الخطّة بينهم، ترصّدوا جميعًا على مشارف الجبل، وجمعوا العبيد والكنوز على الجانب المعاكس لهم، وأخذوا جميعًا أماكنهم يترقّبون على قدمٍ وساقٍ منتظرين لحظة الهجوم السّوداء، وكيف سيثبتون لفرقة الملك أنّ هذا حصنٌ حصين، ويوهمونهم أنّهم بالمئات.

إلّا شخصًا واحدًا كان يتفقّد جنوده على حصانه، متحمّلًا ألمه الّذي تزيده مشية الحصان، وكابتًا ضحكة السّخرية الّتي يتمنّى لو يطلقها عاليًا لتبلغ عنان السّماء!

وانطلق بحصانه يزوّدهم بتفاصيل الاحتياطات فرقةً فرقة؛ حتّى وصل نحو الطّرف الآخر من الجبل، وهناك كان يتأكّد أيضًا كيف جمعوا كلّ شيءٍ 'كما أمرهم' تمامًا.

وحين كان كلّ شيءٍ على ما يرام، التفت في نظرة وداعٍ قصيرةٍ لمملكته وجاهه وأمواله وسلطته، نظر وقد علا وجهه شعورٌ بالنّشوة؛ نشوة أنّه بذكائه يشكّل عواطفهم البالية، ويجعلهم جميعًا يسيرون عبيدًا لأهوائه ومصالحه دون تردّد. وأخيرًا ابتسم لهم جميعًا بقلبٍ متبلّدٍ وهو يمكر لهم جزأه الثّاني من الخطّة: إحضار جنود الملك!

فبينما ظنّ الجميع قائدهم يتفقّد هنا أو هناك، كان هو قد انسلّ يسابق الرّيح على حصانه باتّجاه قرية كاترينا عند قدم الجبل، كانت الابتسامة مستبدّةً بملامحه وهو ينظر نحو السّماء الزّرقاء الواسعة ويصيح بفرح: هاك كلّ مالي!

واقتحم القرية بين عيون النّاس المتوجّسة، واتّجه مسرعًا نحو تجمّع الجنود الّذين لم تسمح لهم الرّيبة إلّا أن يشهروا أسلحتهم في وجهه دون تفكير، فما كان من جوناثا إلّا أن

ألقى سيفه أرضًا وصاح: أحسنتم!

أنا جوناثا ويليامونى رئيس عصابة الجبل.. وها أنا جئتكم مستسلمًا، ولن أخاطر بحياتي لأجل خدعةٍ كما تعلمون!

حاوطه الجنود من كلّ جهة وبكلّ حذر، وحين تأكّدوا أنّه وحيد تقدّم إليه رئيسهم: دعني أخمّن، تريد أن تعقد صفقة؟

- أجل؛ أخبركم كيف تجتثّون العصابة بخمسين رجلًا قبل مساء الغد، وتحرّرون القرويّين وتستعيدون المال، مقابل أن يكون إعدامي سواءً مثل الآخرين، وأن تدعوني أتكلّم قبل الإعدام.

دُهش رئيسهم بينما انفجر الآخرون يضحكون أمام هذا المقابل السّخيف، لكنّ ضحك جوناثا معهم اضطرّهم للوجوم، فقاطعه رئيسهم: ألا تريد شيئًا آخر؟ لن يحقّ لك أن تغيّر رأيك فيما بعد.

ظهرت القوّة على ملامحه: اضحكوا على أنفسكم، أمّا أنا فما أريده فعلته؛ أنا طيلة حياتي فوق القانون.

ازورّ رئيسهم: حسنًا، اتّفقنا، انزل لنسمع منك.

ترجّل جوناثا وضرب الحصان ليركض بعيدًا كي يقطع على هواه طريق العودة، ثمّ التفت بلهجة القائد يعطيهم تفاصيل خطّته المضادّة، والممرّات السّريّة في الجبل، وعدد الرّجال والعدّة في كلّ مكان، وحين أدرك رئيس فرقة الجنود أنّ الأمر حقيقيّ، سارع بأخذ جوناثا إلى رئيس جنود القرية بأكملها، الّذي نقل الخبر لوحدات الجنود في كلّ القرى المحيطة

بالجبل بأقصى سرعة.

وبالفعل وجد رجال العصابة ما وعدهم قائدهم حقًّا حين رصدوا جنود الملك يتّجهون نحوهم، فأحسنوا استغلال مواقعهم ليهاجموهم حسب خطّة قائدهم الّذي افتقدوه منذ ساعة. وبينما كانوا يخوضون المعركة، كان الجبل من ورائهم يتعرّض للغزو السّريع بعد غياب التّركيز عليه.

باختصار، كانت المعركة تسير مسرعةً لصالح جنود الملك بشكلٍ غريب؛ 'وكأنّهم' كانوا يعرفون كلّ شيء مسبقًا!!

في اليوم التّالي، اصطفّ أهل القرية يحيّون الجنود الشّجعان الّذين خلّصوهم من عناءٍ متجذّرٍ من عشرات السّنين في يومٍ واحد، ويستقبلون إخوانهم القرويين المستعبدين الّذين بالكاد تعرّفوا عليهم من تغيّر حالهم الشّديد وسقوطهم في الموت إلّا قليلًا، ولولا شعاع الرّحمة الّذي أشرق عليهم بعد طول دعاءٍ كلّ ليلة، لما التقوهم أحياءً أبدا.

تعالت الهتافات والضّحكات وصرخات الشّوق والشّفقة، وهاجت القرى بهذا الحدث الجلل؛ وأخيرًا سقطت عصابة ويلياموني اللّعينة بعد أكثر من ثلاثة عقودٍ من السّلب والنّهب والقتل والاختطاف، وبالمقابل كثرت الشّائعات عن السّبب الّذي منع الملك من إنقاذهم من زمان؛ ما دام الأمر بهذه السّهولة واليسر!

أمّا جوناثا فقد وقف محاطًا بجنود الملك يتفرّج على الموكب المنتصر، يضحك بتقطّع والجنود يحتقرونه بنظراتهم متوجّسين من جنونه، أمّا هو فقد كان كالعادة ساخرًا من

فرحهم وهو يتذكّر كيف كان يبني الخطّة كلّها في اليوم السّابق، حين كان يختبر ولاء رجاله الّذين فاتهم أن يختبروا ولاء قائدهم!

أشرق فخورًا حين رأى الأسرى من رجاله يسيرون أذلّاء في القيود خلف أحصنة الجنود ليس كأنّهم كانوا أدواتٍ له؛ بل كأنّهم لا يعنونه أبدًا.. ورمق السّماء مناديًا: هاك جاهي وسلطاني!

كان النّاس حتّى أصغرهم يرشقون قطّاع الطّرق بالحجارة والشّتائم، كانت رؤوسهم مطأطئة ووجوههم مسودّةٌ كما لم يرها جوناثا من قبل..

أمّا هو فهزّ كتفيه بلا مبالاة: عملهم الغدر، والجزاء من جنس العمل.

لكن، زفر بغصّةٍ حين فكّر أنّ دوره سيحين ليكون معهم على هذه الحال المخزية، لولا أنّه أخذ نفسًا مريحًا ليبلغ روحه أنّ الأوان قد فات بالفعل، وأنّه قد أوقع بها إلى غير ما رجعة، ليس حين سلّم نفسه؛ بل حين أخطأ التّقدير قبل أربعين سنة، فالآن وجب عليه أن يقدّم كبرياءه قربانًا للرّبّ.

وفجأةً، ساقه الجنود إلى مقرّ الحاكم، وهو بناءٌ حجريٌّ عظيم تفوح منه رائحة السّلطة والقدم، قادوه بممرّاتٍ ضيّقة حتى فُتح بابٌ خشبيٌّ ضخم مرصّعٌ بالنحاس، ليدخل بقيوده نحو ردهة الاستقبال الكبرى.

كانت القاعة واسعةً، ذات سقفٍ شاهقٍ تتدلى منه ثريّاتٌ حديديّة، وجدرانٍ مزيّنة بدروعٍ وراياتٍ قديمة. وفي صدر الرّدهة، خلف طاولةٍ من خشب الأبنوس الثقيل، جلس رجلٌ يفيض بذخاً، يرتدي معطفاً من المخمل الأرجواني المبطّن بالفراء، وتحيط بيده خواتمٌ

تلمع تحت ضوء الشّمس.

شعر جوناثا بصغر حجم 'قصره' المتواضع سابقًا أمام الأبنية هنا، لكنّ غروره بقي واقفًا كملكٍ في عيني نفسه. تلاقت الأعين، عبس جوناثا مشمئزًا، يحاول كبرياؤه أن يقاوم وقد أدرك أنه واقفٌ بين يدي الأمير، الّذي أنهى حديثه مع الحاكم والتفت إليه: إذًا أنت زعيم العصابة.. تعال اشرح خطّتك أمامي.

وجم جوناثا وهو يمضّ أن يطيع بعد أن كان مطاعاً، لكنّه شرع يشرح له ويجيب أسئلته مستعرضًا ذكائه ومكره. وفي النهاية رفع الأمير رأسه عن قبضته المستند عليها بنظرةٍ فاحصة: أنت حاذقٌ في الأمور العسكريّة؛ يكفينا دليلًا أنّك صمدتّ ثلاثين سنةً وتنازلت لمجرّد إرادتك الخاصّة.

أشاح جوناثا بعينيه بضيقٍ نحو السّجاد الفاخر تحت قدميه، بينما أردف الأمير بصوتٍ حادّ كالنصل:

- عندي لك صفقة: نطلق سراحك مقابل أن توظّف خبرتك مستشارًا تحت رايتنا؛ وكلّما أفدتّنا نجزل لك العطاء.

أجاب ببرود: تقصد في معارك الجنوب؟

قاطع الحاكم بحدّة: طبعًا، وأين إذًا؟

ضحك جوناثا بخفّة وعدّل وقفته وهو يجيب ببساطة: أنا تنازلت عن ملكي لأنّي أبرمت صفقةً مع ربّهم.

انفجر الحاكم: وتجرؤ أن تقولها هكذا في حضرة الأمير أيّها الوقح؟!

زاد عرض بسمة جوناثا فيما علّق الأمير بنبرةٍ فيها مسحة غيظ: استمرّ بالابتسام عساني أكسّر أسنانك مع عظامك على عجلة التّكسير.. خذوه من أمامي.

خرج جوناثا من قاعة الأمير رافع الرّأس يسير بإيقاعٍ واثق وعيناه تسخران من الجميع؛ لم يكن يمشي كمن خسر فرصةً للحياة، بل كمن يحلّق سعادةً بتحقيق حلمٍ قديم!

في اليوم التّالي، وبعد أن رُفع جميع قطّاع الطّرق الأسرى على الصّلبان، جاء الجنود بـ جوناثا، ليصعد ويقف أمام صليبه في منتصف صفّ الصّلبان؛ ونادى المنادي أمام الحشود:

"الكلمة الأخيرة للطّاغية جوناثا، سليل عائلة ويلياموني، ورأس عصابة الشّؤم"

وبالفعل صعد جوناثا وسط صخب الجمهور الغاضب برباطة جأشٍ ولا يزال محافظًا على ابتسامته، ليس فقط مواجهًا أعين القرويين الحاقدة؛ بل أيضًا مجابهًا رجاله المعلّقين الّذين فوجؤوا بسماع اسمه ورؤيته. ووقف بثوبه الحريريّ الأسود وشعره الأبيض يقول بصوت القائد الجهوَري: أيّها القرويّون، لعلّكم تتساءلون عن سبب وقوع الجبل في يومٍ واحد، والسّبب أمامكم، إنّه يعلوكم جميعًا!!

رفع يديه مشيرًا إلى السّماء وصاح: آمن جوناثا ويلياموني بالرّبّ القويّ، ولذا كان عليه أن يعتذر من الرّبّ ويقرّب إليه كلّ ما يملك حتّى يبادله الحبّ هناك؛ في السّماء!

توسّعت أعين رجال العصابة المعلّقين، وثاروا يشتمون جماعيًّا من خلفه ويلعنون،

وأصواتهم كالضّباع الّتي تمدّ رأسها لتنهش ولا تصل؛ لكم اشتهوا أن يمزّقوا هذا الخائن الّذي أوردهم هذه النّهاية المريعة، ولا يزال واقفًا يتبجّح أمامهم بذلك دون أن يخالط صوته أدنى خجل!

لكنّ جوناثا واجه الضّجيج الّذي خلفه بانقباضٍ خفيفٍ وابتسامةٍ عريضة، وأنزل يديه مستطردًا يكلّم القرويين بصوتٍ علا أصوات من خلفه: الأمر الّذي لا تعلمونه أنّي أنا -ويلياموني- الّذي أعياكم بشرّه، كنت راهبًا مجتهدًا في بداية حياتي..

جعلوني أبحث عن الرّبّ في كتابٍ متناقض. وبالطّقوس الغريبة؛ ألهَوني عن رؤيته في كونه المتكامل. عندما ناديته ظننت أنّه لم يسمعني، ولم أدرِ أنّي أنا الّذي أغمضتّ عينيّ عن رؤيته يرعاني.

ووضع يده على صليبه الّذي ينتظره خلفه: ليس المسيح فقط، حتّى نعبده؛ بل نحن جميعًا نورٌ من نار الرّبّ، نحن جميعًا أبناؤه!!

ربّ الملكوت لا يحتاج في جوهره الإلهيّ لبشر؛ الرّبّ واحدٌ مجيد!

وإلى هنا تفاقمت ثورة المتديّنين من الحشد، فهرع الجنود ليسكتوه، ولكنّه قال كجملةٍ أخيرة: أيرضيكم أن تقولوا أنّ ويلياموني الشّيطان مات مثل موتة ربّكم؟!!

خطفه الجنود مكمّمين فاهه ورافعين إيّاه على الصّليب، وما يدور في خلده: ياه، بمثل هذا قتل بعض القدّيسين!

وزفر متحسّرًا: آهٍ لو جاءت هذه اللّحظة وأنا قدّيس؛ لكم كانت صفقتي أربح..

وبابتعاد الجنود بدأ وابل الحجارة والرّوث بالهطول على رؤوس المعدَمين، والنّار قد أضرمت من تحتهم؛ لتقتحم رائحة شواءِ أجسادِههم أنوفَهم. ومن أمامهم وجوهٌ لاعنة، والشّتائم المقذعة تغالب لهيب النّيران في لذعها الحارق.

كان قلب جوناثا يخفق بشدّةٍ من بين العذاب الشّديد، ومع ذلك كان هو يترقّب الموت بتجلّد، إذ أنّ جزءاً بارداً في عقله كان يراقب المشهد راضيًا؛ كأنه مخرجٌ يشرف على مشهده الأخير. "انظر إليّ الآن" صرخ بها في سرّه نحو السّماء " إنّ جسدي هو آخر قرابيني إليك، إذًا أنا أحبّك!!"

ولكن طبعًا كان الألم فظيعًا صاعقًا، لدرجة أنّه خرج عن طوره في النّهاية واشترك في الصّراخ مع الآخرين، وتسابقت دموعه تغسل لحيته تحاول أن تصل لتطفئ النّار عند قدميه بلا أملٍ أو تأثير.

هذا كان آخر ما وعاه جوناثا قبل أن يظهر له أبوه فجأةً في نفس المنظر القديم على المنضدة قبل أن يقتله، ويمدّ يده الرّاجفة ليناوله نصف قطعة الخبز اليابسة تلك..

وهذه المرّة لم يتردّد جوناثا المُعيى الرّوح في مدّ يده إليه، ليس ليأخذ الخبز، بل ليقبّل يد أبيه الّذي انتصر عليه في النّهاية؛

لقد كان هذا في نفس اللّحظة الّتي انقضّ فيها حجرٌ قاضٍ؛ ليضرب رأسه بشدّةٍ جعلته يرتطم بالخشب خلفه، وبعدها يرتخي الرّأس للأبد! *

..........تمّت ....